في الفكر الإسلامي
الحديث والمعاصر

دكتور

عبدالحميد عبدالمنعم مدكور

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة

دار الهاني للطباعة والنشر

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ

صَدَقَ اللّهُ العظيم

[الرعد: ١١]

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين

وبعد

فهذه محاضرات في الفكر الإسلامي والحديث ، يُرْجى أن تحقق لقارئها "رؤية " أو " إطلالة " على هذا الفكر ، للتعرف – ولو بقدر – على آفاقه ومعالمه ، وواقعه وقضاياه ، وما يحيط به من تحديات ، وما يواجهه من مشكلات ، وما قُدِّم لها من حلول لدى بعض أعلامه ، ممن حملوا رايته ، وأسهموا في بنائه ، وبذلوا الجهود لتحديد قسماته وملامحه ، وعملوا على تجديده والنهوض به .

ويمكن القول بأن القضايا الجوهرية ، والمشكلات الملحَّة ، والتحديات الكبري التى واجهها ويواجهها – الفكر الإسلامي الحديث كانت أكثر صعوبة وأهمية من تلك القضايا التى واجهها في عصور سابقة ، على الرغم مما قد يبدو من تشابه ظاهري بينه وبينها في بعض الأحيان .

فقد انشغل الفلاسفة الإسلاميون – فيما مضي – بقضية التوفيق بين الدين والفلسفة ، بسبب ذلك الموقف الرافض للفلسفة لدى كثير من علماء الإسلام على اختلاف تخصصاتهم ، ومن ثم وجد الفلاسفة أنفسهم مضطرين إلى بيان أن الفلسفة لا تعارض الدين ؛ لأن الحق لايضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له كما يقول ابن رشد في فصل المقال ، وقد فعلوا ذلك حفاظا على الفلسفة وعلى أنفسهم ؛ لأن الأمر بدا كما لو كان مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم ، ولهذا جعلوا الانشغال بها على رأس اهتماماتهم ، وكان ذلك من وراء كثير من الآراء التى توصلوا إليها ، ورغبوا في تعريف الناس بها .

وإذا كان الأمر كذلك لدى هؤلاء الفلاسفة فإن المفكرين الإسلاميين – وهم صِنْوُ هؤلاء الفلاسفة وأقرانهم – قد أشغلوا – في مجمل أفكارهم – بقضيتين جوهرتين :

أولاهما : محاولة تحديد ، العلاقة بين الفكر الإسلامي والعالم الإسلامي – بصفة عامة – والفكر الغربي والحضارة الغربية التى فرضت نفسها على العالم كله ، بسبب ما تحقق لها من تقدم علمي تقني وقوة سياسية واقتصادية وعسكرية ، جعلتها حاضرة بنفوذها في كل أرجاء المعمورة .وهي أكثر حضورا في العالم الإسلامي الذى تتصل حدوده الجغرافية بحدودها ، ويرتبط تاريخه – منذ بداياته الأولى – بتاريخها ، وقد اتسع هذا التاريخ لصور متفاوته من العلاقات ما بين سلم وحرب ، وتأثير وتأثر . وامتد إلى جوانب متعددة من الفكر والأدب والسياسة والفلسفة وغيرها . وقد جاءت أوروبا إلى الشرق الإسلامي بجيوشها منذ حمله نابليون على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١ م) ومن يومها لم تنقطع محاولات السيطرة على هذا العالم الإسلامي ، واحتوائه بكل سبل التأثير الممكنة .

وكان على المفكرين الإسلاميين في مختلف أقطار العالم الإسلامي أن يحددوا مواقفهم من هذه القوة التى تفرض نفسها عليهم بفكرها وعلمها، وبمطامعها ونفوذها، وبنموذجها الحضاري الذى تتجسد فيه فلسفتها وقيمها وغاياتها على نحو يمثل تحديا للعالم الإسلامي ، بماله من دين وفكر وتاريخ وتراث عريق ، وتجربة حضارية مجيدة . وبما آل إليه أمره في عصوره الأخيرة من ضعف وتخلف وانحسار .

ولقد يبدو أن هناك تشابها بين موقف الفلاسفة القدامي والمفكرين الإسلاميين المحدثين والمعاصرين ، لكن هذا التشابه الظاهري يخفي – خلفه – بعض الفروق الجوهرية التى ينبغي ملاحظتها والتنبه لها :

ومن هذه الفروق أن اتصال العالم الإسلامي بالحضارة الغربية يتم – هذه المرة – في ظروف تختلف عن ظروف اتصاله بها قديما .

فلقد كان العالم الإسلامي – في المرة الأولى – أكثر قوة وعافية ونهوضا في مجالات السياسة والقوة العسكرية والاقتصادية ، كما كان يتصف بهذه القوة نفسها في مجال الحضارة والإبداع والفكر والعلم ، وقد أتيح له أن يحقق نهضة علمية ذات قواعد راسخة ، وبنيان شامخ ،كان موضع الاستغراب من مؤرخي الحضارة ، حتى من الغربيين ، الذين عبروا عن دهشتهم للسرعة التى اكتملت بها هذه الحضارة ، وللعمق الذى وصلت إليه ، وللأصالة التى تبدَّت في كثير من جوانبها ، ويمكن أن نشير – في هذا الصدد – إلى ما قاله ليكليرك في مقدمة كتابه عن تاريخ الطب العربي ، وما كتبه روزنتال عن علم التاريخ عند المسلمين ، وما ذكره بريفولت في كتابة : بناء الإنسانية ، وما كتبه سارتون في تاريخ العلم، وديورانت في قصة الحضارة ، ولوبون في حضارة العرب ، وبار تولد في تاريخ الحضارة الإسلامية ، وزيجريد هونكه في كتابها : شمس الله على الغرب ، وآنا ماري شيمل في كتابها : الإسلام دين الإنسانية ، وروجيه جارودى في كتابه : الإسلام دين المستقبل إلى كثير غير هؤلاء ممن اتجهوا وجهة الأمانة العلمية والإنصاف للحقيقة . والإسلام – إذن – كان في المركز الأقوى : دولة وفكرا وعلما وحضارة وتأثيرا وإشعاعًا ، ولاسيما فى بدايات الدولة العباسية ، التى تمَّ في عهدها النصيب الأكبر من حركة الترجمة لعلوم الحضارات السابقة على الإسلام . ولهذا لم يكن – هناك – خوف على الإسلام وفكره ، بسبب القوة الذاتية للأمة وعلمائها ، ومن دلائل ذلك أن حركة الترجمة لم تلبث إلا قليلا حتى قام العلماء المسلمون بالبحث والدراسة والنقد والتصحيح والإضافة إلى جهود السابقين ، والتوصل إلى علوم ومناهج ونظريات علمية ، كان لها أبلغ الأثر في الحضارة الإنسانية بصفة عامة ، وفي الحضارة الأوروبية على وجه الخصوص .

أما اتصال العالم الإسلامي بالحضارة الغربية بجناحيها الأوروبي والأمريكي فيتم الآن في ظل ظروف عسيرة ، فهو – إذا قارناه بأوروبا وأمريكا ، بل إذا قارناه بماضيه – يعاني من ضعف ظاهر وتدهور ملحوظ في كثير من جوانب حياته العلمية والفكرية والمادية ، وهو ضعيف الصلة والارتباط بالقيم الايجابية في تراثه نفسه ، وهو ممزَّق من الناحية السياسية ، متخلف في النواحي العسكرية والصناعية ، وهو تابع من الناحية الاقتصادية ، تنتشر فيه الأمية بنسبة عالية ، ويفتقر إلى روح الابتكار والمبادرة ، أما إسهامه في البحوث العلمية على المستوى العالمي فهو قليل أو محدود ، وهو يعتمد – في تلبية كثير من حاجاته الأساسية كالغذاء والدواء والسلاح، بل وأدوات الترفيه ، وأسباب الرفاهية – على الآخرين . ومن هنا كان خطر التعبية للآخر ، والالتحاق به واعتماد تجربته، والنسج على منوالها أشد مما كان عليه الحال في الماضي ، عندما كان السبق والتقدم من نصيب المسلمين . ويزداد الإحساس بخطر التبعية إذا لاحظنا رغبة " الآخر " في الهيمنة وفرض نموذجه الحضارى ، بالعقوبات الاقتصادية ، أحيانا ، وبالحرمان ، من التكنولوجيا المتقدمة ، والحظر على بعض مجالاتها في بعض الأحيان ، وقد يصل الأمر إلى حد التلويح باستخدام القوة العسكرية ، بل الاستعمال الفعلي لها كما حدث في الاستعمار القديم الذى شمل أكثر بلاد العالم الإسلامي في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وكما يحدث الآن في الاستعمار الحديث الذى يتعرض له العالم الإسلامي في القرن الواحد والعشرين . وهو يأتي هذه المرة مصحوبا ببرامج جاهزة يراد تطبيقها – بكل السبل الممكنة : أخلاقية أو غير أخلاقية – على العالم الإسلامي ، وتتردد في الأجواء دعوات إلى تطبيق الديمقراطية المزيفة التى تاتي في صحبة مدافع القوات الغازية وطائراتها وصواريخها ، كما تتردد شعارات براقة عن حقوق المرأة وحقوق الإنسان بحسب المفاهيم الغربية لها. ويقترن هذا كله بنظريات عن صدام الحضارات ونهاية التاريخ، واتخاذ الإسلام عدوا

بعد زوال خطر الماركسية وتفكيك الاتحاد السوفيتى ، ثم دمغ الإسلام ذاتــه بالإرهاب ووصمه بأنه السبب في تخلف المسلمين . ثـم توضـع الخطـط والبرامج لتجريد هذا العالم الإسلامي من خصوصيته الثقافية والحضـارية ، وإعادة صياغته بما يتوافق مع قيم الحضارة الغربية ، حتى لا يظل مصـدر تهديد واقع أو محتمل لها ، ويستعان – لتحقيق ذلك – بالتأثير فـي منـاهج التعليم ، وبوسائل الإعلام ، والعقوبات الاقتصـادية ، وبـالقوة ، إذا لـزم الأمر .

* ولعل التأمل في هذا الفارق المهم يقودنا إلى فارق آخر ، يتمثل فـي أن اللقاء القديم الذى وقع بين الحضارتين قد تم بمبادرة من العالم الإسلامي ، وباختيار حُرٍّ منه ، وذلك عندما أحس المسلمون بالحاجة إلى الإفـادة مـن معارف الأمم الأخرى ، التى سبقتهم في بعض مجالات المعرفة الرياضـية والطبيعية . وقد رأينا بعض خلفاء الدولة العباسية يرسلون البعثات للبحـث عن المخطوطات التى لدى الدول الأخرى . وكان الحصول عليهـا يـدخل ضمن الاتفاقات التى تعقدها الدولة الإسلامية مع هذه الدول ، تحقيقا لرغبتها في امتلاك هذه المخطوطات ، والانتفاع بما فيها من علوم ومعارف . أما ما يحدث الآن من اتصال فإنه يرجع – في المقام الأول – إلى الطرف الآخر ، بما يضعه له من برامج وحدود ومجالات وحسابات تُرَاعَي فيهـا مصـالحه ومكاسبه ، قبل أى اعتبار .

* ثم يضاف إلى ذلك أن الاتصال القديم تم مع تراث يمكن وصفه بأنه كان في حالة سكون ، لأنه كان ينتسب – في معظمه – إلى حضارة اليونان التى كانت قد زالت قبل الإسلام بعدة قرون ، وقد توقف عن النموّ أو التأثير بعد أن تحولت أوروبا إلى المسيحية في ظل الدولة الرومانيـة فـي القـرن الرابع الميلادى وأدى ذلك إلى حجب هذه المعارف – لاسيما الفلسفية منها – عن التداول ، بل إنها وضعت في خزائن مغلقة ، واضطر العلماء بها إلـى

الهجرة إلى الدولة الفارسية ، ولم يكن فيها ما نشاهده الآن من حركة موارة بالقوة والتجدد ، والتقدم الهائل ، والاكتشافات العلمية ، والتـراكم المعرفـي الذى لم يحدث له مثيل من قبل. وكل هذا يتحقق للحضـارة الغربيـة فـي عصرها الحديث دون ريب. وليس ثمت مقارنة بين هذا الذى يحدث هنـاك وبين ما يحدث في العالم الإسلامي الذى يسعي إلى التقدم والنهضة بخطـى وئيدة متثاقلة ، تجعل الهوة بينه وبين العالم المتقدم تزداد اتسـاعا ، وتنـذره بخطر التبعية والاضمحلال .

* ويسوقنا ذلك إلى الحديث عن القضية الجوهرية الثانية التي كانت في مقدمة ما شغل المفكرين الإسلاميين في العصـر الحـديث ، بعـد لقـائهم بالحضارة الغربية منذ الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨ – ١٨٠١) وما بعدها . وتتمثل هذه القضية في التفكير في النهوض بالعالم الإسـلامي مـن الوهدة الحضارية التى انحدر إليها ، ومن عوامل التخلف التى حلـت بـه . وكان على هؤلاء المفكرين المشغولين بهموم أمتهم ، الساعين إلى نهضـتها أن يفكروا في أسباب هذا الضعف ، وأن يرسموا الطريق إلـى مواجهتهـا والتخلص منها أو التقليل من آثارها ، والوصول بعالمهم الإسلامي إلى مـا يعينه على استثمار عوامل القوة الكامنة فيه ، واستئناف دورة جديـدة مـن دورات حضارته ، تتصل بما كان له من أمجاد فيما سبق من عصوره .

*وإذا كان الحاضر امتداداً للماضي ، وثمرة له ، فقد خصصنا في هذه الصفحات قسما للحديث عن ذلك الماضي ، وكان من أهداف ذلك أن تكـون التجربة التاريخية حاضرة في الأذهان ، لا ستكشاف عناصـر القـوة فيهـا واستلهامها والإفادة منها ، ولمعرفة عوامل الضـعف التـى ظهـرت فيهـا ومقاومتها واجتناب أخطائها ، وهذا هو درس التاريخ وعبرته ، ثـم لكـى يظهر للمتأمل في وقائع الماضي وأحداثه أن التقدم والتخلف في حياة الأمـم يخضع لسنن وقوانين نفسية واجتماعية لا تقل في ثباتها وتأثيرها عن القوانين

الطبيعية ، فكلاهما لا يحدث صدفة ولا بطريقة عشوائية ، وهما لا يحدثان بعيدا عن الإرادة الإنسانية والفعل الإنساني كما يري القائلون بالجبر وإسقاط الأسباب من الفلاسفة والمتكلمين والصوفية في القديم والحديث . وهذا درس من الدروس التى يقدمها لنا القرآن الكريم فى نصوص كثيرة منه ، ومن ذلك على سبيل المثال :

– ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧) .

– ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١٤٠) .

– ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ (آل عمران : ١٥٥) .

– ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) .

– ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ ﴾ (النساء : ١٠٤) .

– ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ (النساء : ١٢٣) .

– ﴿ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾(الرعد: ١١) .

إلى آيات كثيرة أخرى لا تتسع لها هذه المقدمة .

وهكذا ترتبط النتائج بالمقدمات ، والمسببات بالأسباب ، وإذا كانت الأمة قد حققت كثيرا من عوامل القوة والتقدم في ماضيها ، ورغبت في أن يكون لها مثل ذلك في حاضرها ومستقبلها فإن عليها أن تأخذ بمثل ما أخذ السابقون من الأسباب ، وأن تضيف إليها كل ما يمكن أن تصل إليه من أسباب القوة

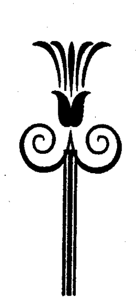
التى توصلت إليها البشرية على امتداد العصور . وبهذا يتداخل الماضي والحاضر ، وتتكامل التجربة الإنسانية لتحقيق المزيد من الخير والتقدم والأمل .

ومن الحق الإشارة إلى أن ساحة الفكر الإسلامي في العصر الحديث واسعة فسيحة ، وقد ظهر فيها كثير من الأعلام والتيارات والمدارس ومشروعات النهضة وخططها .وهى جديرة بدراسات كثيرة تستكشف معالمها ، وتحدد ملامحها ، وتبين مواقعها تجاه التراث والأصالة والمعاصرة والعلاقة بالحضارة الغربية ، ولقد كان من بين أعلامها من هو جدير بأن تخصص له دراسة أو دراسات مستقلة ، وقد وقع الاختيار على بعض هؤلاء للحديث عنه ، دون إقلال من قدر الآخرين الذين لم نتمكن من الحديث عنهم ، ونرجو أن تتاح الفرصة لاستكمال هذا النقص في مناسبة أخرى ، إن شاء الله تعالى .

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عبد الحميد عبد المنعم مدكور

۞ ۞ ۞



القسم الأول

عوامل القوة فى حياة الأمة الإسلامية

عوامل القوة
في حياة الأمة الإسلامية

تمهيد :

يؤكد كثير من المهتمين بفلسفة الحضارة والتاريخ أهميـة الـدين فـي بناء الحضارة الإنسانية ، ومن هؤلاء جوستاف لوبون – مـؤرخ الحضـارة المشهور – الذى أوضح هذه الأهمية على نحـو قـاطع لا يحتمـل لبسـا ، فقد ذكر أن أهم المبادئ التى تسير عليها الأمـم ، وتعتبـر منـار التـاريخ، وعماد الحضارة تتمثل في المبادئ الدينية ، التي كانت علـى الـدوام أهـم عنصر في حياة الأمم ، ومن ثم كانت أهم عنصـر فـي تاريخهـا ، ولـذا كانت أكبر حوادث التاريخ التى أنتجت أعظم الآثـار هـي قيـام الـديانات وسقوطها .

وعندما أراد أن يشرح ويفسر سبب هذه المكانة العظمي للدين أوضح أن الدين هو العامل الوحيد الذى تتوحد به – وقتًا ما – منافع الأمة ومشـاعرها وأفكارها ، فيقوم المبدأ بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التى تتكون منها روح الأمة ، والتي لا تنتج هذه النتيجة إلا علـى مـدى طويـل فـي التاريخ .

ولم يغب عن بال هذا المؤرخ أن يؤكد فكرته عن أهميـة الـدين بمـا يسجله التاريخ من أن قيام الأمم بأعظم الأعمال كان في عصر هذا التطـور الذى يحدثه الدين في نفوس أتباعه ، وبسببه تأسست أكبر الممالك التاريخيـة البارزة فإنه وجد أمامه تاريخ الأمة الإسلامية التى نشأت وتطـورت علـى أساس تلك الفكرة الدينية التى اقتبستها من محمد ﷺ ، فاستطاع هؤلاء الـذين

ينحدرون من بعض القبائل العربية أن يقهروا أمما كانت لا تعرف عنهم حتى الأسماء ، وشادوا تلك الدولة الكبري (١) .

ونجد مثل هذا الرأى – كذلك – لدى مؤرخ وفيلسوف كبير هو أرنولد توينبي الذى يقرر أن للعقائد الدينية دورا خطيرا للغاية في مجريات التاريخ ، حيث كانت البوذية سببا في وجود حضارة الشرق الأقصى ، وكانت العقيدة الهندوكية وراء ميلاد الحضارة الهندية ، وكانت العقيدة المسيحية سببا في نشأة الحضارة المسيحية الشرقية والغربية ، وكان الإسلام هو المصدر الذى انبثقت منه الحضارتان : العربية والإيرانية . وهكذا كان للعقيدة أثرها البارز في نشأة الحضارة الإنسانية في عصورها المختلفة . وفيما يتعلق بالإسلام – خاصة – أشار توينبى إلى أن التوفيق الذى أصابته الدوله الإسلامية – وهو توفيق مذهل في رأيه – كان يرجع إلى العقيدة الإسلامية وحدها (٢) .

ويتردد مثل هذا الرأي لدى فلاسفة آخرين ممن شُغلوا بفلسفة الحضارة ، وبيان أثر الدين في نشأتها وازدهارها ، ومن هؤلاء هنري بين ، وهرمان دى كيسلرلنج وغيرهما ممن لاحظوا ذلك الارتباط بين الدين والحضارة على نحو لا يمكن إغفاله أو إهماله ، ومن ثم ينبغي أن نبحث في أى حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذى بعثها (٣) .

---

(١) انظر : جوستاف لوبون : سر تطور الأمم ، تعريب أحمد فتحي زغلول ، طبع المطبعة الرحمانية ، ط٢ / ١٩٢١ ص ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ . وتوجد نصوص تؤيد هذه الفكرة في صفحات أخرى مثل ١٥٦ ، ١٥٩.

(٢) انظر : محمد فؤاد شبل : توينبى مبتدع المنهج التاريخي الحديث ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٩ .

(٣) انظر : مالك بن نبي : شروط النهضة ، ترجمة عمر مسقاوى ، د / عبد الصبور شاهين . دار الفكر ، سوريا ، ط٢ /١٩٦٩ ص ٨٣ – ٨٦ .

ولمالك بن نبي نفسه حديث عن أهمية الدين في بناء الحضارة . انظر المرجع نفسه، صفحات ٦٦، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨.وسيأتي بيان مفصل لآرائه ، فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

وينطبق هذا الرأي في العلاقة بين الدين والحضارة – أكثر ما ينطبق – على الإسلام الذى قامت – على أساسه وبتأثيره – الأمة الإسلامية ، فالإسلام هو أصل نشأتها ، ومصدر وجودها ، وباعث نهضتها ، وأساس حضارتها ، واليه ترجع عوامل ازدهارها وقوتها ، وهو – بالنسبة لها – مثل جذر الشجرة للشجرة ، فهو الذى يمدها بالحياة والقوة والنماء ، ولذلك كانت دائمة الحاجة إليه ، شديدة الاعتماد عليه ، فإذا حيل بينها وبينه ، أو أصابه الضعف والضمور فى عقلها ووجدانها كان ذلك نذير عدمها وفنائها .

وإذا كانت الشجرة لا تقوم بالجذر وحده ، بل بما ينتج عنه من ساق وأغصان وأوراق ، وبما يترتب على ذلك كله من ثمرات ؛ فإن الدين – كذلك – يثمر ثمرته في تلك العوامل المتكاملة التى أدت إلى قوة الأمة الإسلامية ، وحددت شخصيتها ، وحققت مكانتها ، وأسست حضارتها ، وهي – جميعا – ترجع إلى أصلها الأصيل – وجذرها العريق : الإسلام .

من عوامل قوة الأمة الإسلامية :

تضافرت عوامل عدة كانت سببا فيما تحقق للأمة الإسلامية في عصرها الأول من قوة مادية ومعنوية .

١ – وتأتي العقيدة على رأس هذه العوامل جميعا ، لأنها تغلغلت في قلوب الذين آمنوا بها ، ولذلك كانت حية قوية مهيمنة ، وكانت إشعاعاتها مؤثرة في الفكر والسلوك والحركة الفوارة المتجددة ، وقد ترتب على قوة العقيدة – بمعناها الشامل – عدد من الآثار والعوامل التى يمكن النظر إليها على أنها أشبه بفروع الشجرة للشجرة ، فهي جميعا ترجع إلى جذر واحد تعتمد عليه ، وربما جاء بعض هذه الآثار متصلا بالفرد ، وربما جاء بعضها متصلا بالجماعة ، وربما كان بعضها متعلقا بقيمة أو مبدأ شرعه الإسلام ، ولكنها – جميعا – متحدة المنبع والمصدر فهي وليدة هذا الدين ، راجعة

بأصولها إليه معتمدة ، في حياتها عليه ، وهي قبس منه ، وثمره له ، ومن أهم هذه الآثار والعوامل ما يأتي :

أ- يقظة الوجدان والضمير وقوة الشعور بالمسئولية أمام الله عز وجل . ويرجع ذلك إلى أن العقيدة لم تكن فكرة نظرية خاملة خامدة في زوايا الشعور، بل كانت قوة حية تمنح الضمير أقصي درجات اليقظة والشفافية والتأثير ، لما يترتب على الإيمان بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى من الاستحضار لعظمته ، وإحاطة علمه ، ونفاذ مشيئته ، وكمال قدرته ، وذلك يورث المؤمن الذى يتغلغل الإيمان في أعماقه مشاعر الهيبة والإجلال لمقام ربه ، ويمتلئ قلبه بالمراقبة له والحياء منه ، والإقبال عليه بما يرضيه ، ومن شأن ذلك كله أن يؤدى إلى سمو الاخلاق ورقي السلوك ، ورهافة الضمير الذى ينطلق إلى الخير بوازع ذاتي داخلي يصعب خداعه أو التغرير به ، ومن هنا فإنه يصاب بالقلق والتمزق والصراع النفسي إذا وقعت منه أدني مخالفه ، ويُحْرَم – عندئذ – من سكينة الرضا وطمأنينة اليقين . (*)

(*) سنورد لكل عامل من هذه العوامل بعض النماذج العملية تحقيقا لعدة أهداف ، منها : بيان واحدة من خصائص المجتمع الإسلامي الأول وهى عدم الفصل بين الإيمان والعمل ، فالإسلام يضع المبدأ أو الحكم أو التوجيه ، والمؤمنون يسارعون إلى التطبيق بإخلاص شديد ، وإقبال عظيم ، دون تكاسل أو مراوغة ، ومنها بيان أن هذه المبادئ والأسس والقيم التى دعا إليها الإسلام لم تكن تحليقا في الخيال ، ولا جريا وراء المثال النظرى المجرد ، بل كانت سموا بالإنسان إلى أقصي ما يمكن أن يرتفع إليه الإنسان ، وكان الناس – في الوقت نفسه يرتفعون – بنبل عظيم فيهم – وإيمان صادق في قلوبهم – إلى هذه المستويات الرفيعة التى يريد لهم الإسلام أن يرتفعوا إليها ، ثم إن تلك النماذج التى سنشير إليها تقدم لنا مُثُلاً رفيعة للاقتداء والأسوة ، ولا شك أن التربية عن طريق القدوة تعد من أعظم الوسائل التربوية نجاحا .

وقد كان من آثار تلك اليقظة للضمير ، التي هى نتيجة لقوة العقيدة وهيمنتها على النفس ، أنْ وجدنا من العصاة من يذهب إلى الرسول ﷺ ليعترف على نفسه بأشد الجرائم ، وهو يعلم أن هذا الاعتراف سينزل به أشد العقاب ، وقد كان يمكن له أن يستتر بستر الله له ، ولكنه يقبل على ذلك ، ويصر عليه . ومع أن الرسول يراجعه أربع مرات فإنه يتمسك باعترافه لا عتقاده أن الله مطلع عليه وناظر إليه ، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الاخرة (١) .

وكان من آثار تلك اليقظة للضمير أنْ وجدنا من المجاهدين من يحرز المغانم الغالية دون أن يراه أحد ، فيذهب بها إلى قيادته ، ولعله يشكو عَيْلَة أو فقرا ، فيقال له " هل أخذت منه شيئا ؟ فقال : أما والله و الله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأنا . فقالوا : من أنت ؟ فقال : لا والله ، لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيركم ليقرظوني ، ولكنى أحمد الله وأرضى بثوابه .. " (٢) .

وكان من آثار تلك اليقظة للضمير أن وجدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتقلب االليل في فراشه لأنه يخشي من مساءلة الله له يوم القيامة عن دابة تتعثر في الطريق : لماذا لم يُسَوِّ لها الطريق ؟ وهكذا وهكذا (*).

---

(١) ورد الحديث بروايات متعددة في البخاري . انظر : صحيح البخاري طبعة الحلبي وبهامشه حاشية السندى ، كتاب المحاربين من أهل الكفر والردة : باب : رجم المحصن ، وباب : لا يرجم المجنون والمجنونة ، وباب : هل يقول الإمام للمقر ... والباب الذى بعده ، ١٧٦/٤ ، ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) انظر : تاريخ الطبري ، تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم،دار المعارف ١٩٧٧ ج٤ /١٩ .

(*) من المهم الانتباه إلى أن يقظة الضمير التى هي أثر من آثار قوة العقيدة في النفس المؤمنة لا تنحصر آثارها في نطاق العلاقة بين الإنسان وربه ، بل إنها تمتد لتشمل كل علاقات المؤمن بما حوله وبمن حوله أى أن لها آثارها الاجتماعية أيضا ، وهذا مرتبط بالفهم الصحيح لحقيقة ومضمون " الإيمان " كما ورد في القرآن والسنة حيث يأتي العمل الصالح جزءا منه، أو على الأقل ثمرة ضرورية، وشرطا لازما لقبوله .وسنوضح هذه النقطة – إن شاء الله – عند الحديث عن عوامل الضعف فيما بعد .

ب- ثم أن من الأمور الهامة التى تترتب على سلامة الاعتقاد وتمكنه في النفس أن يكون الولاء للإسلام والانتماء إليه سابقا ومُقَدّما على ما سواه من أنواع الانتماء والولاء الأخرى التى يمكن أن تكون للإنسان (*)، وأن تكون هذه الأنواع من الولاء خاضعة لأمر الله وحكمه ، غير مناقضة لما شرعه ، فإذا حدث التناقض - وهذا لا يكون إلا أثراً لشرك أو كفر أو غفلة أو هوى - فإن المؤمن يقدّم أمر الله على ما سواه ؛ لأن من شأن المؤمن أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وفي تقرير هذا المعنى يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ (**)وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ ... ﴾ (التوبة : ٢٣ ، ٢٤) .

- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾ (الممتحنة : ١)

(*) ليس معنى هذا أن يتجرد الانسان من أنواع الانتماء الاخرى كمحبة الانسان لأهله أو وطنه أو نحو ذلك فقد سئل الرسول ﷺ : أمن العصبية (اى هل من العصبية الممقوتى شرعا) ان يحب الرجل قومه ؟ قال : لا ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم " سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي حديث رقم ٣٩٤٩ - ١٣٠٢/٢ وجاء في الحديث عن الزهرى قال " قَدِمَ أصيلُ على رسول الله من مكة فسألته عائشة (وكان ذلك قبل أن يضرب الحجاب) : كيف تركت مكة فوصفها بأوصاف تُهَيِّج الأشجان " فقال رسول الله ﷺ : حسبك يا أصيل لا تحزنّى وفي رواية قال : ويها يا أصيل : دَعِ القلوب تَقِرْ .

راجع : كشف الخفاء للعجلوني ٤١٤/١ ، مؤسسة الرسالة ط ١٩٨٣/٣ .

(**) يتضح في هذه الآية والآيات التى بعدها ان التعارض واقع بين إيمان وكفر بما يترتب عليه من محاربة لله وعداوة له - جل جلاله - وللمؤمنين .

وقد طبق جيل الصحابة – الذين كان الايمان في قلوبهم كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما " أعظم من الجبال " (١) هذا المبدأ تطبيقا لا يكاد يوجد له نظير ، حين جعلوا لأمر الله ودينه السبق والغلبة على كل شيئ ،وافتدوا عقيدتهم ودينهم بكل غال ونفيس ، وانتصروا على مشاعرهم النفسية المتغلغلة في أعماق القلوب ، وقد أثبتوا ذلك – بطريقة عملية – منذ ان وُضِعُوا موضع الاختبار . فعندما خرج رسول الله ﷺ لملاقاه عيرِ قريش ، ثم علم بخروج قريش لحماية العير وحرب الرسول ، استشار الناس ليعلم ما عندهم " فقال له سعد : لعلك تخشي أن تكون الانصار ترى حقا عليها ألاّ تنصرك إلاّ في ديارهم ، وإني أقول عن الانصار وأجيب عنهم : فاظْعنْ حيث شِئت ، وصِلْ حَبْلَ مَن شئت ، واقطعْ حبل من شئت ، وخُذ من أموالنا ما شئت ، وأعطِنَا ما شئت ، وما أخذتَ منا كان أحبَّ الينا مما تركتَ ، وما أمرتَ فيه من أمر فأمْرنا تَبَعُ لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البَرك من غمدان لنسيرنّ معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر خَضْنَاه معك " (٢) .

ولما وقع القتال ببدر قاتل الصحابة أقاربهم وإخوانهم وعشيرتهم من المشركين ، ولم يخافوا في دين الله لومة لائم ، فقتل أبو عبيده بن الجراح أقرب الناس إليه (*) ، وقال أبو بكر الصديق لابنه عبد الرحمن – وكان لا يزال على شركه – لو رأيتك ما صدفت عنك " (٣) .

---

(١) انظر : حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣١١/١ .

(٢) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد في هدى خير العباد ، المطبعة المصرية ومكتبتها دون تاريخ ٨٦/٢ .

(*) يتضح في الأمثلة التى سنوردها هنا ما اتضح في الآيات السابقة من أن الحديث عن عداوة المشركين المحاربين لله ولرسوله وللمؤمنين وترك موالاتهم ، وخاصة إذا كانوا محاربين. أما الآباء فإن الله قد أوصي بحسن رعايتهم حتى ولو كانوا مشركين ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ... ﴾ (لقمان : ١٥) .

(٣) انظر : حلية الأولياء ١٠١/١ .

وعندما قال عبد الله بن أبي بن سَلُول – وكان منافقا – عن الرسول ﷺ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخْرِجَنَ الأعزُ منها الأذَلَّ ، وعلم بذلك ابنه عبد الله ، ذهب الابن إلى رسول الله وقال له : يا رسول الله انه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فان كنتَ لابَدُ فاعلاً فمُرني به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخرزج ما كان لها من رجل أبرً بوالده مني وإني أخشى أن تأمرَ به غيرى فيقتلَه ، فلا تدعني نفسي أنظرُ إلى قاتل عبد الله بن أبيٍّ يمشي في الناس فأقتله فأقتل ، رجلا مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا " [1] وهكذا وهكذا [2]

ولقد كان هذا الولاء للاسلام يعطى للامة عاملا من أهم عوامل قوتها ، ويمدها بزاد متجدد من الصبر والاحتمال والقدرة على مواجهة الصعاب، ثم يعينها على خوض المعارك في ميادين الجهاد .

٢– ولم تكن العقيدة تحدث أثرها في ضمير الفرد وسلوكه فحسب، بل إنها كانت تحدث آثارها – كذلك – في حياة الجماعة كلها وفي حياة الأمة جمعاء . ذلك أن الأمة الإسلامية ذاتها كانت أثرا من آثار الإسلام ، فالإسلام هو الذى أقامها ؛ لأنه هو الذى نقل العرب من العصبية القبلية التى كانت سائدة قبل الإسلام إلى الوحده القائمة على الإيمان ، ثم وحّد العرب وغيرهم من الشعوب الأخرى التى أقبلت على الإسلام ، وجعل من الجميع أمة واحدة متكافئة ، متماسكة كالجسد الواحد والبنيان المرصوص . ولقد كان هذا التوحيد من الإعجاز الذى حققه الإسلام الذى حقق لأول مرة ما وُصِف بأنه

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ، تحقيق الأستاذ مصطفي السقا وآخرين . مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ط٢ /١٩٥٥ مجلد ٢٩٣/٢ .

(٢) انظر الحلية ١٥٢/١ ، والبداية والنهاية لابن كثير ، تحقيق د / أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية – لبنان – ط٣ /١٩٨٧ ج٣ /١٧٢ ، ٢٧٩/٤ .

أمّة الفكرة أو المبدأ ، حيث أسقط العصبيات ، وألغى التفاخر بالأنساب والأحساب ، ورفض الاعتداد بكل مظاهر التميُّز التى لا صلة لها بجوهر الإنسان ومكوناته الذاتية وقد نهي الرسول ﷺ عن العصبية وعن الفخر بها ، وبيَّن أن الناس جميعا أبناء آدم ، وأنه لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى وقد أسقط ربا الجاهلية ودماءها في خطبة حجة الوداع وقال : " قضي الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب (وهو عمه) موضوع كله ، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ،وأن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب (وهو من عشيرته) [1].

ومن أقواله ﷺ في هذا الشأن :

- " كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أوليكونُنَّ أهونَ على الله من الجعلان " [2].

- " ليس منَّا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية " [3].

- ... ومن قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبة (أى لعصبية) أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة فقُتِل فقتلة جاهلية " [4].

- إن الله قد أذهب عنكم عبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء " [5]

---

(١) سيرة ابن هشام ٦٠٣/٢ ، ٦٠٤ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطي ، طبعة عبد الحميد حنفي ، وبهامشه كنز الحقائق للمناوى ٩٥/٢ . وهو حديث حسن .

(٣) السابق ١٣٨/٢ .

(٤) صحيح مسلم ، بتحقيق عبد الله أبو زينة ، طبعة الشعب ، كتاب الإمارة ، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ٥١٥/٤ ، ٥١٦ ومسند أحمد طبع الحلبي ٣٠٦/٣ ، ٤٨٨ .

(٥) مسند أحمد ٣٦١/٣ ، ٥٢٤ .

والأحاديث كثيرة في هذا المعنى ، وهى تدعو إلى أخوة الإيمـان التـى تحدث عنها القرآن ، وتسقط كل مظاهر التفرقة والتعالي الكـاذب الـذى لا يصح أن يكون بين المؤمنين .

أ- وقد انضم إلى هذه الأخوّة التى تؤلف القلـوب ، وتوحـد الأمـة أن الإسلام يبني مجتمعه على بيان أن للناس فيه حقوقا (*) ، وأنه لا يقوم علـى فكرة " الواجب " وحدها، بل على فكرة " الحق " أيضا ، فهو يتحـدث عـن حقوق الآباء والأمهات والأبناء والأزواج وذوى القربي، ولو لم يكونوا مـن ذوى الميراث ،وحقوق الضعفاء وحقوق الجيران حتى ولو لم يكونوا مسلمين كما تحدث عن حقوق للفقراء والمساكين واليتامى والأرامل وأبناء السـبيل ، والمرضى والأسرى والصغار والعاجزين وقد أوصي بهؤلاء جميعا خيرا ، وبيّن ما ينبغي أن يقوم به المجتمعَ من رعاية وتكريم لهم ، ولم يتـرك ذلـك للتطوع الذى قد تشح به النفس ، ولا للنوايا الحسنة التى قـد يعصـف بهـا الطمع والهوى ، ولكنه أثبت ذلك وأكده بالتشريع المُلْزم، فَشَرَع فـي المـال حقوقا ، ورغّب في الصدقة والصلة والبر الذى تزكو به النفس ، ويرضي به الرب ، وتتآلف به القلوب ، وأيقظ في الضمائر حب الايثار ، وكرم العطاء ، وأريحية السخاء .

واستقبل الصحابة ذلك كله بالاستجابة الكريمة ، حتـى إن مـنهم مـن يتصدق بماله كله ، ومنهم من يريد ذلك فينصحه الرسول بـأن يجمـع بـين العطاء والإبقاء ؛ حرصا على ورثته من ذل الحاجة ومهانة السؤال .

ولعل من الأمثلة الباهرة التى يزدهي بها المسلمون – مما لم يقـع لـه مثيل – ما وقع عندما آخي الرسول ﷺ – بعد هجرته من مكة إلى المدينة –

(*) وردت في هذا كله آيات كثيرة وأحاديث نبوية توضح أنواع هذه الحقوق وما تؤدى إليه من إشاعة الرحمة والمودة والتضامن الاجتماعي ، ولكن تفصيل ذلك يحتاج إلى مقام آخر .

بين المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم ؛ فداء لعقيدتهم وبين إخوانهم من الأنصار ، وكان لهذه الأخوَّة في الدين مقام الأخوة من النسب ، حتى لقد كان المسلمون يتوارثون بهذه الأخوة قبل نزول أحكام المواريث ، وقبل الأنصار ذلك كله بنفس راضية ، بل إنهم آثروا إخوانهم المهاجرين على أنفسهم وقاسموهم أموالهم وديارهم ، وعندما أفاء الله على رسوله من بني النضير دعا الرسول ﷺ الانصار وشَكر لهم صنيعهم مع المهاجرين، ثم قال " إن أحببتم قسمتُ ما أفاء الله عَليَّ من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في مساكنكم وأموالكم ، وإن أحببتم أعطيتهم (وحدهم) وخَرَجوا من دوُركم " فقال سعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ : بل نَقْسمه بين المهاجرين (وحدهم) ويكونون في دورنا كما كانوا ، ونادَت الأنصار : رضينا وسلَّمنا يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ " اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار "[1] وقد أنزل الله عز وجل مدحهم في سورة الحشر " ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ... ﴾ (الحشر : ٩) .

ب- ثم كان مما فعله الدين لتأكيد وحده الأمة أنه أقام تشريعه على العدل الذى يستوي أمامه الكبير والصغير ، والشريف والضعيف ، والحاكم والمحكوم ، ولذلك غضب الرسول من أسامة بن زيد - مع ما له من المودة والمحبة عنده - لأنه تَشفَّع لإسقاط الحد عن إحدى الشريفات من بني مخزوم ، وقال : " أتشفع في حد من حدود الله ؟ . ثم قام فخطب ، قال : يأيها الناس إنما ضلّ من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ، طبعة الشعب ٦٥٠٢ ، ٦٥٠٣ وانظر نماذج لإيثار الأنصار إخوانهم من المهاجرين في صحيح البخاري ، كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار ٢/٣٠٩ ، ٣١٠ ، والبداية والنهاية ٣/٢٢٦ ، ٢٢٧ .

سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " [1] وكان لعمر بن الخطاب في هذا الباب من إقامة العدل وإقرار الحق وتطبيق الشرع حوادث مشهورة : لعلّ من أشهرها حكمه على ابن عمرو بن العاص – والى مصر – بأن يقتص منه رجل من أهل مصر ، جزاء اعتداء ابن عمرو عليه ، فقد ذهب الرجل يشكو إلى عُمَر قائلا : سابقتُ ابنَ عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ، ويقول : أنا ابن الاكرمين ، فكتب عُمَر إلى عَمْرو يأمره بالحضور وإحضار ابنه ، فلماجاء أعطى السوط للمصري ليضربه قائلا له : " اضرب ابن الألأمين ، قال أنس ، فضرب والله ، لقد ضربه ونحن نحب ضربه ، فما أقلع عنه حتى تمنينا أنه يرفع عنه ، ثم قال للمصري : ضع على صلعة عمرو . فقال : يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربني وقد استقدت منه . فقال عمر لعمرو : مُذْكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ قال : يا أمير المؤمنين : لم أعلم ، ولم يأتنى " [2] .

وهكذا يأتي العدل ليوثق روابط العلاقات في المجتمع ، وليدفع عوامل الظلم التى تخلق الأحقاد والأضعان ، وتمزق الصلات الاجتماعية ، وتجعل المجتمع بعيدا عن الاستقرار والأمن والطمأنينة ، بل تجعله بعيدا عن رحمة الله وعونه ، فقد جاء في سنن ابن ماجه عن جابر أن المهاجرين إلى الحبشة لَمَّا رجعوا إلى المدينة طلب منهم الرسول ﷺ أن يحدثوه عن أعجب ما رأوا في الحبشة ، فذكروا له ما وقع لعجوز كانت تحمل وعاء على رأسها فدفعها شاب فسقطت على ركبتها ، وسقط إناؤها فانكسر ، فلما قامت قالت :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحدود ، باب كراهية الشفاعة في الحدّ ، إذا رفع إلى السلطان ١٧٣/٤ ، وأورده باختلاف في اللفظ في الباب الذى قبله .

(٢) منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، للمتقي الهندى بهامش مسند الإمام أحمد ٤٢٠/٤ .

" سوف تعلم يا غُدَرُ إذا وضع الله الكرسي وجمع الله الأولين والأخرين وتكلمت الايدى والارجل بما كانوا يكسبون فسوف تعلم أمرى وأمرك عنده غدا قال (جابر) فقال رسول الله ﷺ : صدقت صدقت : كيف يُقَدسُ الله أمة ، لا يأخذ ضعيفها حقه من قويها وهو غير مُتَعْتَعَ " [1] ؟ وقد استقر في يقينهم أن الظلم مؤذن بخراب العمران ، كما عبَّر عن ذلك ابن خلدون .

ولا تقف مسئولية الأمة والدولة في الإسلام عند حد إبعاد الظلم ، وإقرار العدل بل ترتفع إلى مستوى رفيع من الرحمة والرعاية للافراد ومعاونتهم في مواجهة مشكلاتهم ، فتساعد الفقراء بتهيئة وسائل الكسب والعيش لهم ، وتساعد الغارمين في قضاء مغارمهم ، وتعاونهم في تدبير ضرورات حياتهم من المأكل والملبس والمسكن ، بل تساعد في تأثيث المسكن بالفرش والأثاث ، وتساعد غير القادرين على الزواج ، ونحو ذلك مما تحدث عنه الفقهاء على أساس من نصوص الشريعة وفقهها ، كما يظهر لدى ابن حزم وغيره [2] ولم يكن شىء من ذلك كله مألوفا ولا معروفا في الزمن القديم، بل إن أكثر الأمم لم تصل إلى مثله حتى ألآن .

ومن المتوقع – في ظل هذه الرعاية – أن يزول أو يضعف على الأقل هذا الصراع بين الفرد والمجتمع كما يظهر في النظم الوضعية ؛ لأن الفرد لا يحس بالضآلة والضياع والقهر إزاء المجتمع ، بل يحس برعاية المجتمع له ، ومن ثم يسعى – من جانبه – لحماية هذا المجتمع والإسهام في أسباب قوته . ولعل ما نعرفه من " اهتداء " المسلمين إلى الأذان في عهد الرسول ﷺ من خير الأمثلة على هذا ، حيث فكر المسلمون في وسيلة لتعريفهم

---

(١) البيان والتعريف في أسباب ورود الحديث الشريف ، لإبراهيم بين محمد كمال الدين ، تحقيق وتعليق د/ حسين هاشم ، دار الكتب الحديثة ٩٨/٢ .

(٢) انظر : د/ فتحي عثمان ، آراء تقدمية من تراث الفكر الإسلامي ، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ٠٣٣ ص ٨-١٢ .

بدخول وقت الصلاة ، وقُدِّمت مقترحات شتى لم تحظ بالقبول ، وانصرفوا إلى بيوتهم ، وهم مشغولون بالمسألة ، حتى لقد رأي بعضهم في منامه أمرًا عرضه على الرسول فأقره عليه ، وجاء عمر بن الخطاب بمثل هذا أيضا [١] ومن الأمثلة كذلك ما فعله تميم الداري الذى كان أول من أسرج المسجد ، وكان هو الذى اقترح على الرسول ﷺ وضع المنبر للخطابة عليه حتى يراه الناس [٢] .

وهكذا كانت وحدة المجتمع أثرا من آثار العقيدة ، لأنها ثمرة من ثمرات الإيمان بعقيدة التوحيد ، فالخالق المعبود واحد وهو الله تعالى ، والناس أمامه سواء لا يتفاضلون إلا بعمل [*] صالح يتقربون به إليه ، ولقد كان المسلم – بمقتضي الإيمان وحده ، ودون شروط اخرى – يكتسب ما يمكن أن نسميه " حق المواطنة " في المجتمع الإسلامي الكبير ، ويكون له بمقتضي هذا أن يتمتع بسائر الحقوق من العون والرعاية ، وتحقيق الفرص للعلم والعمل ، والحركة الطليقة في كل بلاد الإسلام دون قيود أو عقبات . ومن المألوف في تراجم العلماء أن يُولَدَ الرجل في مكان من الأرض الإسلامية، ثم يتعلم في بلد آخر ، ثم يتولي القضاء أو الافتاء أوالإمارة أو الوزارة ونحوها في بلد آخر . وهكذا .

فالمسلمون أمة واحدة ، وقد أسقط الإسلام دعاوي العصبية والجاهلية، وجمع الناس على أساس من العقيدة . وهذا أمر يتميز به الإسلام على ما

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٠٨/١ ، ٥٠٩ والصحابي المذكور في القصة هو عبد الله بن زيد بن ثعلبة .

(٢) انظر : شمس الدين الذهبي ، تاريخ الإسلام ، نشر مكتبة القدسي ١٣٦٨هـ ج١٩١/٢ والأوائل لأبي هلال العسكري ، تحقيق محمد السيد الوكيل ، طبع المدينة ١٣٨٥هـ ص ١٨٥ .

(*) للعمل الصالح مفهوم شامل واسع سنتحدث عنه قريبا .

سبقه من النظم والحضارات التى لم تعرف هذه الوحدة ، بل أقامت بناءها الاجتماعي على أساس طبقية صارمة جامدة ، تتفاوت فيها أقدار الناس تفاوتا صارخا . وقد ظهر ذلك في أقصى الشرق في الهند وفارس [1] ونحوها ، كما يظهر لدى اليونان حتى عند كبار فلاسفتهم كأفلاطون وأرسطو، وظهر ذلك لدى الرومان وغيرهم ،بل ظهر ذلك لدى أتباع بعض الديانات كاليهود الذين يؤمنون بفكرة التمييز العنصري التى يلبسونها ثوبا دينيا يتمثل في قولهم بالشعب المختار ، ومن الغريب أن العالم لا يزال يشهد حتى الآن نماذج تثير الأسى من التفرقة العنصرية القائمة على اللون أو الجنس ، وقد كان بعضها مطبّقا إلى عهد قريب في أمريكا ، ولم يتخلص كثير من الناس فيها من رواسب هذه الفكرة العنصرية حتى الآن .

وقد كان ما أحدثه الإسلام في هذا الشأن يشبه المعجزة ، لأنه ذلك تَمَّ في سرعة ليس لها مثيل في التاريخ ، مع أن ذلك يقتضي في العادة جهودا طويلة وزمنا طويلا ، كما يقول جوستاف لوبون الذى يذكر أن الأمة الفرنسية لم تتمكن من توحيد مشاعرها وأفكارها وايجاد روح خاصة بها إلا بعد عشرة قرون كاملة ، ومع ذلك لا يزال هذا التكوين ناقصا جداً ، وربما كان أهم أثر ترتب على الثورة الفرنسية – في رأيه – هو تعجيل هذا التكوين ؛ لأنها اجهزت على الموانع الناتجة من تعدد الجنسيات الصغيرة في قلب الأمة ، التى جعلت من الوحدة أمرا متعذرا أو صعبا بسبب ما بينها من اختلاف في المشاعر والأفكار [2] ولكن العقيدة جعلت ذلك أمرا مستطاعا دون حاجة إلى هذا الوقت الطويل . ﴿ **وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي**

---

(١) لمزيد من التفصيل يمكن الرجوع إلى كتاب أبي الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الكتاب العربي – بيروت ط٨/١٩٨٤ ص ٤٠،٤١،٤٩ – ٥٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، الخ .

(٢) انظر : لوبون : سر تطور الأمم ١٦ ، ١٧ .

الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ أَلَّفَ بَيْـنَهُمْ ﴾ (الانفـال : ٦٣)

٣- ثم يأتي العلم ليكون عاملا من عوامل قوة الدولة الإسلامية .ولـيس يخفي على كل من له صلة بمصادر الإسلام وتاريخه تلك المكانة التى جعلها الإسلام للعلم على نحو لم يسبقه إليه دين من الأديان ،ولا نظام من الـنظم ، بل إنه يمكن القول بأن العلم – بحسب نظرة الإسلام إليه ، وإلى الخصـائص التى يتميز بها فيه – يتبوأ مكانا ليس له مثيل في تاريخ الحضارة الإنسـانية. ومما يدل على تلك المكانة العليا التى للعلم أن أعظم الآيات والبراهين علـى صدق الرسول ﷺ وإثبات رسالته إنما هي القرآن الكريم ، فلم يكن برهـان صدقه – إذن – مقصورًا على المعجزات الحسية التي أيـد الله بهـا أنبيـاءه السابقين ، بل كانت معجزته العظمي التى ثبتت بها نبوته كتابا خالدا تتجدد به الحجة على البشرية ، لأنه دينها الخالد إلى يوم الدين .

وقد كان من الملائم لهذا البرهان العلمي أن يبدأ بالآيات الآتيـة التـى كانت أول ما نزل على قلب النبي ﷺ ، في غار حراء ، وبها بـدأ الإسـلام ووُضعت أساس دولته وحضارته .

– ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . (العلق : ١-٥) .

والمتأمل لهذه الآيات الكريمة يمكن أن يجد فيها بحارا من المعاني، ومن هذه المعاني ما يلى :

– تبدأ الآية الأولى بالأمر بالقراءة ، وهو أمر غريب ، لأنه نزل علـى نبي ليس له بالقراءة عهد ولا صلة ، فلم يقرأ من قبلُ كتابا ، ولم يتردد علـى معلم ، وهو أمر غريب – أيضا – لأنه يأتي إلى بيئة أمية يقل فيها الاهتمـام بالعلم ، ويندر الاهتمام بالكتابة والكتَّاب ، وهذا الأمر في ذاته برهان على أن هذا الكتاب من وحي الله إلى نبيه ، نزل به الروح الأمين على قلبه ، ولـيس

له فيه إلا التلقي والبلاغ ، والشرح والبيان. وهو إعلان – منذ البداية – تدوّى به جنبات هذه الصحراء لكى تستقبل هذا العلم الذى اختصها الله به ، ولتجعل منه قبسا هاديا ، وضياء متجددا ، ولتعلم أن قيمتها عند الله ، وبين الناس ، على مدار الزمان مرهونة بالقراءة والعلم والمعرفة والكتاب ؛ لأن العلم في الإسلام ، كرامة وسيادة وقوة ، وبه كرّم الله الإنسان ، بل أكرم الله به بعض الحيوان والطير كما تدل على ذلك آيات الكتاب الكريم (انظر مثلا الآية ٣١-٣٢ من السورة البقرة ، ٤ من المائدة ، ١٨ ، ٢٢ – ٢٦ ، ٤٠ من سورة النمل) .

– ثم تأتي القراءة موصولة باسم الرب جل جلاله ، لتكون إيذانا بأن ينشأ العلم وينمو في رحاب الإيمان والتوحيد ، فلا يكون العلم طريقا إلى الغرور والاستعلاء والتكبر على الله ، كما حدث لبعض الأمم التي تحدث عنها القرآن ، والتى اغترت بما أوتيت من العلم بأنعم الله ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون** ﴾ (غافر : ٨٣) لكن العلم في الإسلام يشق طريقه – منذ اللحظة الأولي – ليكون طريقا إلى الهدى ، وسبيلا لاكتشاف ما في الكون من العظمة والاتقان والكمال ، ولذلك جاء في القرآن ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء** ﴾ (فاطر : ٢٨) ولذلك لا يصطرع العلم والإيمان في الإسلام بل يتفقان . (*)

–ويتفق مع هذا المعنى أن يأتي الرب الذى تُستَحْضَرُ عظمته عند القراءة موصوفاً بصفة من أعظم صفاته – وكل صفاته وأسمائه موصوفة بأنها حسنى – وهي صفة الخلق التى تتبدّى آثارها في هذا الوجود بحيث لا تخفي آثارها على ذى عينين ، وبحيث تدفع العقل – الذى يطلب الحق ، ويبرأ من الهوى – إلى أن يري في الخلائق دليلا على وجود الخالق

(*) سيأتي لذلك مزيد من التفصيل إن شاء الله .

الموصوف بالعلم الكامل والإرادة النافذة والقدرة المطلقة ، والحكمة التامة والعناية الشاملة ، والخلقُ كله مجال للنظر ، فالسماء والأرض وما فيهما ، وما بينهما هى من جملة ما خلق الله ، وهو مُطالَبٌ بالنظر فيها جميعا للاهتداء والاعتبار ــ ثم للإنسان – خاصةً – مكانةُ مُتفردة ، بين هذه الخلائق التى خلقها الله تعالى ، ولذلك يأتي تخصيصه بالحديث عنه وحده دلالة على عظم مكانته ، ثم يأتي – في الآية الثانية – ما يشير إلى مرحلة من مراحل خلقه ، وهي خَلْقه مِن عَلَق ، لتكمل في القرآن – من بعد – سائر المراحل ، وليكون الإنسان مدفوعا إلى النظر في الإنسان والكون ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

– ثم تتحدث الآيات الثلاث من الثالثة إلى الخامسة عن ملمح من ملامح العلم والقراءة في الإسلام ، وهو أن العلم أثر من آثار الفضل والكرم الإلهي ، وهو فضل سيق إلى الإنسان منذ آدم الذى علَّمه الله الأسماء كلها ، ثم هو فضل متجدد لكل بني الإنسان ، فقد أمدهم الله بالحواس والفطرة الصادقة ، وزودهم بالعقل الذى تميزوا به عما سواهم ، ليكون طريقا إلى العلم بالمجهول ، وتراكم الخبرة ، واقتناص المعرفة بالتأمل والاعتبار ، ثم كان من فضل الله وكرمه أن أنزل الوحي هداية ونورا يستضئ بها العقل في المجالات التى تقْصر ملكة العقل عن إدراكها فهو نور الله الهادي ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور: ٤٠)

وليس العلم – في الإسلام – إذن مصادمة لقدرة الله تعالى ،ولا تمردا على إرادته ، كما هو الشأن في بعض الحضارات السابقة على الإسلام كالحضارة الإغريقية القديمة التى تتمثل فيها المعرفة على أنها جاءت قهرا

عن إرادة (*)الإلهة. وقد تمّ ذلك على يد بروميثيوس الذى يوصف في الأساطير بأنه سارق النار المقدسة التى لم يكن زيوس كبير آلهتهم قد أنعم بها على البشر ، خشية أن يصبح بنو البشر في غاية المهارة والمعرفة فيظنوا أنفسهم مساوين للآلهة ! ولكن بروميثيوس احتال للأمر حتى اقتبس النار من وهج الشمس ، فتعرض بذلك لغضب زيوس الذى انتقم من البشر جميعا بسبب خديعة أحدهم له ، فابتلاهم بالأمراض والهموم ، ولكنه اختص بروميثيوس بأشد العقاب ، حيث أمر بتقييده بسلاسل من الحديد إلى صخرة عظيمة ، بحيث لم يكن يستطيع أن يحرك يدا أو رجلا ، ثم سلّط عليه نسرا ضخما يأتي إليه كل صباح لينقر جسده ، ويأكل كبده ، الذى ينمو مرة أخرى في المساء ، وتلتئم جراح جسده ، لكى يأتي إليه النسر في الصباح الذى يليه وهكذا تتجدد آلامه وأحزانه كل يوم بسبب سرقته للنار التي هي رمز للعلم والحياة في الاسطورة التى تكشف عن عقوبة الآلهة اليونانية للإنسان عندما حاول أن يكتشف المجهول،ويستقل بالعلم، فى غفلة منها أو رغما عنها [1].

إن العلم في الإسلام ليس من هذا الباب، حيث التحدى والاحتيال والعقوبة القاسية المتجددة ، وإنما هو فضل إلهي من الله الذى علم بالقلم ،

(*) لا يبتعد عن هذا التصور كثيرًا عما جاء في التوراه التي بايدى الناس عن سبب خروج آدم من الجنة ، حيث تذكر أن أكله من شجرة معرفة الخير والشر كان سبب هذا الخروج ، لأنه قد زاحم الربوبية في علمها ، فخشى الرب أن يأكل من شجرة الخلود أيضا " وقال الرب الاله : هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا ، عارفا الخير والشر ، والآن لعلّه يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد ، فأخرجه الرب الإله من جنة عدن .. " سفر التكوين : اصحاح ٣/٢٣،٢٢ فكأن، إخراجه كان عقوبة له على تلك المعرفة التى نالها عندما أكل من الشجرة .

(١) انظر بيترلن : قصص من اليونان القديمة ، ترجمة د/ سمير عبد الحميد ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ ص ١١ -١٥ .

علم الإنسان مالم يعلم ، والذى خلق الإنسان علّمه البيان ، وهو الذى يرفع أهل الإيمان وأهل العلم درجات :

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة : ١١) ومن هذه الدرجات التى ينالونها أنهم :

-أهل الخشية لله ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر : ٢٨)

* أهل العلم بآيات الله ، القادرون على فهم الأمثال ، واستكشاف مواطن العبرة فيما خلقه الله .

- ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٣)

- ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴾ (الروم : ٢٢) .

* أنهم شهداء الله من خلقه على التوحيد ، لا يسبقهم في هذه الشهادة إلا الله تعالى وملائكته ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران : ١٨) .

* أن الله وعد أهل التقوى بمزيد من العلم ، تفضلا منه وكرما ، يتفق مع إخلاصهم العبادة لله تعالى ، وتطهيرهم للقلوب من الخطايا التي تحجب القلب عن الاستزادة من نور الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ (الحديد : ٢٨) .

فالعلم -إذن - فضل من الله ، لا يحجبه الله عن عباده ، بل إن لكل إنسان منه قدرا قليلا أو كثيرا ، وليس على الإنسان حرج يمنعه من الاستزادة منه ، بل إنه مطالب دائما بأن يفعل ذلك ، وليس أكرم على الله من

رسوله ، الذى أمره الله تعالى بقوله : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه : ١٤) .

وهكذا تتحدد بعض ملامح العلم في الإسلام ، منذ الآيات الأولى من القرآن ، وهي بمثابة إعلان مدو عن وضع لبنات دين جديد وحضارة جديدة مؤسسة على العلم ، الذى هو موضع حفاوتها وتقديرها ، لأنه سلاح من أمضى أسلحتها في الدعوة والإقناع بالحجة والبرهان ، ولئن كانت هذه الحضارة قد سلكت – فيما بعد – طريق الجهاد وفتح البلاد ، فإن ذلك لم يكن لقهر الناس على اعتناق الإسلام لأنه ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) .

وإنما كان ذلك لتهيئة الظروف لكى يعرف الناس هذا الدين ، ويعرضوا أصوله على عقولهم لأنه على ثقة من نتيجة الفهم النزيه ، والبحث الأمين عن الحقيقة ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ : ٤٦) ومادام الأمر كذلك فإن من المنطقي أن يكون للعلم والبرهان أعظم مكان في هذا الإسلام ، لأن الحجة الصحيحة كما يقول ابن حزم اقوى في مواجهة الأعداء من السلاح الشاكي والأعداء الكثيرة ؛ لأن الأعداء قد تهزم ، أما الحجة فلا تهزم أبدا [1] .

ولئن كانت أول الآيات نزولا في القرآن تحدد بعض ملامح العلم في الإسلام ، فإن هذه الملامح سوف تزداد تفصيلا وشمولا فيما ينزل – بعدها – من القران [*] ، حيث يتكرر الحديث عن العلم : أمراً به ، ودعوة إليه ، وبيانا لمكانة أهله ، وما يختصون به من فهم الآيات والأمثال .

---

(١) انظر : ابن حزم ، الإحكام في أصول الأحكام : تقديم د / إحسان عباس ، نشر دار الآفاق الجديدة ، بيروت ط٢ /١٩٨٣ ، مجلد ١ ، ج١ /٢٠ .

(*) وفيما جاء في السنة كذلك .

ويمكن أن نشير إلى بعض خصائص العلم – التى جعلته من أسباب القوة للأمة الإسلامية – على النحو التالي :

أ) أن العلم في الإسلام لا يُنْظَر إليه على أنه مجرد حرفة أو مهنة، بل إنه عبادة يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى ، وأنها طريق من الطرق المؤدية إلى طاعته ومرضاته . وليس أدل على ذلك من حديث أبي الدرداء الذى أتي إليه رجل من مدينة الرسول ﷺ وسلم ليأخذ عنه حديثا بلغهُ أنه يُحَدِّث به عن الرسول. فقال أبو الدرداء : " وما جئت لحاجة ؟ قال : لا . قال: ولا لتجارة ؟ قال : لا . قال : ولا جئت إلا لهذا ؟ قال : نعم ، قال : فأني سمعت رسول الله ﷺ وآله وسلم يقول : من سَلَك طريقًا يلتمس فيه علما سَلَك الله به طريقا من طرق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وإنَّ فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض وكل شئ حتى الحيتان في جوف الماء ، وإن العلماء ورثة الأنبياء . إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهما ، وإنما ورَّثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر " (1) .

ومن شأن هذه النظرة أن تعين المتعلم على تحمل مشاق طلب العلم ؛ وأن تمنح النفس طاقة متجددة من الصبر على أعبائه ، بل تجعل النفس فرحة مبتهجة بأنها تسلك طريق الجنة منذ خروجها لطلب العلم إلى أن ترجع، وأنها تكون موضع الحفاوة والتكريم والدعاء والاستغفار من أهل السموات والأرض ،وأنها تأخذ بحظ كريم من ميراث النبوة يرفعها عند الله

---

(1) ابن عبد البر ، جامع بيان العلم وفضله ، دار الأرقم ط٢ /١٩٧٨ ج١ / ٣٦ وانظر ٣٥/١-٣٦ . وقد أخرجه أبو داود في سننه ، نشرة الشيخ محيى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم ٣١٧/٣ وابن ماجة في سننه ، نشرة الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي ، المقدمة ، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ ، والترغيب والترهيب للمنذرى طبع قطر ١٩٨٥ ج١ / ٩٤ .

وعند الناس مقاما عليا. ولا شك أن استحضار هذه المعاني عند التعليم يجدد العزم ، ويقوى الاحتمال، ويحيط عملية التعلم بجو من الأخلاق الرفيعة التي تصون كرامة العلم وتجدد الرغبة في طلبة لدى المتعلم ، وتقوّى الحوافز المعنوية على الاستمرار فيه حتى ولو كانت الحوافز المادية من ورائه قليلة .

ومن أجل هذه النظرة إلى العلم على أنه عبادة وطاعة كان الصحابة ومن بعدهم من التابعين يرحلون في طلب العلم مع ما في الرحلة – قديما – من المشاق والأعباء الجسام ، حتى إن أحدهم ليسير شهرا ذاهبا وشهرا راجعا من أجل حديث أو كلمة حكمة يريد تعلمها [(١)] وإن أحدهم ليتحمل العناء في صبر جميل حتى يظفر بما يريد من العلم ، فابن عباس – رضي الله عنهما – يبلغه أن رجلا سمع من الرسول حديثا فيذهب إليه فيجده مستريحا في وقت القيلولة ، فما كان منه إلا أن جلس أمام بيته ينتظر خروجه بينما الريح تثير الرمال في وجهه ، والحر يلفحه بلهيبه ، فلما خرج الرجل رآه على حالته هذه فقال له : فهلا بعثت إلى حتى آتيك، فقاله له ابن عباس : أنا أحق آن آتيك [(٢)] وقد كان من أقوى الدوافع إلى هذا التحمل نظرتهم هذه إلى العلم؛ بل إنه كان من أفضل العبادات لديهم كما يقول سفيان الثورى " ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صحت فيه النية " [(٣)] وقال أبو هريرة من قبله : لأنْ اجْلِسَ ساعة فأفقه أحب إليَّ من أُحيى ليلة إلى الصباح وكان مما يزيدهم فيه رغبة أن العالم والمتعلم مأجوران أخطآ أم أصابا،ما داما قد بذلا أقصى جهدهما في طلب الحق. فمن أدركه نال أجرين ومن عجز عن الوصول إليه بغير تقصير منه فله أجر عند ربه ، بسبب ما بذله

---

(١) انظر مثلا : جامع بيان العلم وفضله ، باب ذكر الرحلة في طلب العلم ١/٩٢- ٩٥ .

(٢) السابق ١، ٨٥ / ٨٦ .

(٣) السابق ١/٢٥ ، والإحياء للغزالي ، وبهامشه المغني عن حمل الأسفار للحافظ العراقي ، طبع الحلبي ١/١٩ .

من الجهد الذى لايضيع عند الله تعالى ، فإذا يسر الله له علما صحيحا نافعا فأداه إلى الناس فانتفعوا به له كان له أجر زائد، هو أجر الدعوة إلى الخير وهداية الناس إليه ، فالدال على الخير كفاعله ، فإن كتب هذا العلم ثم انتفع به الناس في حياته أو بعد موته فأجره موصول لا ينقطع " إذا مات ابن ادم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو إليه " (١) .

ب) إن العلم في الإسلام ليس ترفا ولا نافلة ، ولكنه يرتفع إلى مقام الفرض الواجب الذى يكون المقصر فيه آثما ، ويستند هذا الحكم إلى ما نسب إلى الرسول ﷺ من قوله : طلب العلم فريضة على كل مسلم (*).

وقد قسم العلماء هذا الفرض إلى قسمين : فرض عين وفرض كفاية ، فالأول هو الذى يجب على صاحبه وجوبا عينيا ، بحيث لا يقوم أحد مقامه فيه ، فإذا أداه نال أجره وأسقط الإثم عن نفسه ، أما إذا قصر فيه فإن عليه الاثم بسبب هذا التقصير ، وأما الثاني فهو الذى يجب على الجماعة

---

(١) الترغيب والترهيب ١/١٠٢ .

(*) اختلف العلماء في إثبات هذا القول ، فبعضهم يجعله حديثا يسنده إلى رسول الله ﷺ كابن ماجه والمنذرى والسيوطي .انظر سنن ابن ماجه طبعة محمد فؤاد عبد الباقي ١/٨١ حديث رقم ٢٢٤ والترغيب والترهيب ١/٩٦ وبعضهم يتعقب أسانيده التى تصل لدى ابن عبد البر مثلا إلى ثلاثة عشر إسنادا ، ولكنه روى عن بعض أئمة الحديث أن طلب العلم واجب ولكن لم يصح فيه الخبر ، وفسر ذلك بأن كل إسناد من أسانيده فيه مقال لأهل العلم بالنقل ،ولكن معناه صحيح عندهم . انظر جامع بيان العلم وفضله ١/٧-٩ ، وانظر كذلك : كشف الخفاء للعجلوني ١/٥٦ ، ٥٧ وهو يذكر عددا من أئمة العلماء الذين لم يثبت لديهم هذا الحديث ، لضعف إسناده كالامام أحمد والبيهقي وابن الجوزي ، وابن الصلاح وغيرهم وكذا ضعفه النووى انظر سنن ابن ماجه في الموضع السابق .

أو المجموع بحيث إذا قام به بعضهم سقط الإثم عن الجميع ، وإذا لم يقم بــه أحد كان الجميع آثمين .

وينقسم كل واحد من القسمين إلى أقسام ، ففرض العين ينقسم إلى أربعة أقسام[1] :

١ – العلم باصول الدين وأركان العقيدة كالايمان بالله وملائكتــه وكتبــه ورسله واليوم الاخر والإيمان بالقدر خيره وشره.فلا بد لكل مسلم من العلم – ولو إجمالا – بهذه الوصول التى لا يقوم الإيمان بغيرها ، ولــيس يلزمـــه أن يعلم هذه الاشياء بأدلتها وبراهينها التفصيلية التى يُلْزَم بها العلماء ،ولكن عليه أن يسعي إلى العلم بها ، وأفضل طريق إلى تعلمها يتأتي عن طريق النظــر أو الاستماع أو الفهم لما جاء عنها في الكتاب والسنة اللــذين منهمـــا تؤخــذ أصول العقيدة كما تؤخذ أصول الأحكام والاخلاق ، وقــد يســر الله تعــالى القرآن للذكر ، وسهل للناس سبيل العلم به تــلاوة وســماعا ، وعلـــى أهــل الاختصاص بيان ذلك للناس بالتعليم والتأليف والدعوة والإعلام حتى لا يقــع منهم تقصير في هذا الأمر الواجب الذى قد يغيب وجوبه عــن كثيــر مــن الناس .

٢ – العلم بشرائع الإسلام ، وخاصة ما يتعلق منها بأركـــان الإســـلام ، وعلى وجه أخص ما تتحقق شروطه فيه كالصــلاة بــأن يعــرف أحكامهـــا وشروطها وما يلزم لها من طهارة وتوجه إلى القبله ونحو ذلك من الأحكام ، ثم عليه أن يعرف ويقر بفرضيه باقي الأركان كالزكاة والصوم والحج ، وإن لم يلزمه العلم بتفصيلات أحكامها إلا إذا كان من أهلها كأن يكــون صــاحب مال فتجب عليه الزكاة ، أو أن يكون قادرا مســتطيعا لأداء الحــج فيجــب

---

(١) انظر : مفتاح دار السعادة لابن قيم الجوزية ، بتصحيح الشيخ محمود حسن ربيــع ، مكتبة حميدو ط٣ /١٩٧٩ ، وانظر : جامع بيان العلم وفضله ١/١٠-١٣ .

عليه ، وعليه – عندئذ – أن يعلم أو أن يسأل عما يجب عليه من الأحكـام حتى لا يقع في مخالفة أومخالفات تبطل عبادته أو تنقص كمالها ، وهكذا .

٣- العلم باصول المحرمات التى حرمها الله في الشرع كتحريم الزنـا والخمر وقتل النفس بغير حق ، ونحو ذلك من المحرمـات كـالغي والظلـم والرشوة وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل وخيانة الأمانة والغـدر بالعهود وما أشبه ذلك من المحرمات . والعلمُ بحكم هذه الأشياء فرض علـى المسلم حتى لا يقع فيها ؛ لأنها من المحرمات التـى حرمهـا الـه تعـالى ، وجعلها من كبائر الذنوب التى جعل لبعضها حدا شرعيا وعقوبـة مُقـدرة ، وجعل لبعضها عذابا عظيما إذا مات المؤمن من غيـر توبـة منهـا، إلا إذا أدركته رحمة من الله .

٤- يتفق المسلمون عامة في العلم بهذه الأمور الثلاثة السابقة. ثم يجب على كل منهم أن يعرف أحكام الإسلام ومـا شـرعه مـن الآداب للمهنـة أو الحرفة التى يحترفها ويتخصص فيها ، كالولاية والإدارة والقضاء والافتاء والتعليم والتجارة والزراعة والصناعة على اختلاف أنواعها ، إلى أخر المهن التى يقوم بها الناس ، فإن وجد المسلم في الشرع أحكاما أو وصايا تفصـلية فعليه أن يبذل الجهد في معرفتها حتى يراعيها في سلوكه ،وخلقه ولئلا يقـع في مخالفة ما شرعه الله تعالى ، وإن لم يجد أحكاما تفصـيلية فعليـه العلـم بالآداب والأخلاق العامة التى شرعها الله ورسوله للمـؤمنين جميعـا ، وأن يطبقها على حرفته ، وأن يعلم أنه – من قبلُ ومن بَعْدُ – تحت عـين الله لا يفلت منه ، وأن الله سائله عن كل فعل يفعله ، ومُحَاسِـبُهُ عليـه ، ومـا دام المسلم يعتقد بما جاء في الإسلام من أن شريعته شاملة جامعة ، فإن لـه أن يتوقع أن يجد في كل باب من أبواب السلوك توجيهات ووصايا ، وإذا خطـر له – أحيانا – أنه ربما لا يجد في الشرع أمرا يتعلق بحرفته ، فإن عليـه أن يعلمَ أن ذلك يدل على مبلغ علمه – أو جهله – بالإسلام ، ولكنه ليس منطبقا على ما يتضمنه الإسلام ذاته وقد جعل الله في شريعته تبيـان كـل شـئ ،

تفصيلا أو تأصيلا كما تدل على ذلك آيات القرآن الكريم وسنة الرسول ﷺ واجتهادات العلماء (*) وأقوال المفسرين .

أما فرض الكفاية فإنه ينقسم – بصفة عامة – إلى قسمين كبيرين أولهما. كل علم يعين على تعريف الناس بالعلوم السابقة أو ما يعين على تحقيقها. فتعلُّم الناس لأحكام الإسلام وعقائده وحلالهوحرامه أمر واجب ، ولكن لا يلزم أن يكون كل واحد من المسلمين قائما بهذا التعليم ولا متخصصا فيه ، وإلا لكان الأمر شاقا على الناس . وشريعةُ الله تقوم على اليسر ورفع الحرج ، ومن هنا جُعل العلم بهذه الأحكام والتفقة فيها واجبا على طائفة من الناس لتقوم – بعد تعلمها – بتعليم الناس أمور دينهم ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة : ١٢٢) والقضاء على سبيل المثال أمر واجب لتوصيل الحقوق إلى أصحابها ، ومنع المظالم ، والأخذ على يد الظالم وردعه ، وليس من الممكن أن يكون كل الناس قضاة ، ولذا يلزم أن يكون في المجتمع من يقوم بهذه الوظيفة لتؤدى هذه الأغراض الشرعية الاجتماعية ، ووظيفة القضاء إذن فرض كفاية.وهى واجبة على سبيل فرض الكفاية، اتباعا لتلك القاعدة التى تقول:إن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وهكذا .

أما القسم الثاني من فروض الكفاية فهو يتضمن العلم بكل ما يؤدى إلى تحقيق مصالح المسلمين – ومن يدخل في عهدهم وذمتهم – بشرط ألا تتعارض هذه المصالح مع شريعة الله تعالى ، وبعض هذه الصالح قد جاءت بها أوامر شرعية كالأمر بإعداد القوة في مثل قوله تعالى ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ

(*) انظر: شيئا من أقوال العلماء والمفسرين في تفسير الآيات : ٣٨ من سورة الأنعام / ١١١ من سورة يوسف ، ٨٩ من سورة النحل ، إلى آيات أخرى .

مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال : ٦٠) فإذا كان اعداد القوة واجبا فإن كل ما يؤدى إلى تحقيق هذا الواجب يعد واجبا ، ويدخل في ذلك علوم الصناعات المدنية والحربية على اختلافها وكثرتها ، ولا بد من أعداد العلماء المتخصصين في هذه الفروع العلمية ، وإلا وقع المسلمون في التقصير الذى يؤدى إلى الإثم ، وينطبق ذلك على أمر الرسول ﷺ بالتداوى ؛ لأن الله تعالى " ما أنزل داء إلا أنزل له دواء " رواه البخاري [١] ولكى يتم تحقيق هذا الأمر يلزم إعداد الاطباء ومن يعاونهم في التمريض والعلاج وإعداد الدواء ونحو ذلك من التخصصات التى يلزم وجودها لتحقيق هذا الأمر النبوي ، وهكذا كل علم يؤدى إلى تحقيق مصالح العباد ، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشريعة ومقاصدها ، فهذه العلوم كلها من فروض الكفايات ، والتقصير فيها طريق إلى الإثم ، وهو - كذلك - طريق إلى الضعف والعجز الذى لا يرضاه الله للمسلمين [٢] وقد نبه بعض علماء الإسلام كالغزالى وغيره إلى هذا من زمن بعيد ، وجعلوا تعلم هذه العلوم من فروض الكفاية لما يترتب عليها من تحقيق مصالح المسلمين [٣]. ولم ير بعضهم - كابن تيمية - بأسا في تعلم هذه العلوم من غير المسلمين ؛ لأن هذا من قبيلالانتفاع بآثار الكافرين والمنافقين في أمور الدنيا ، وهذا جائز كالسكنى في ديارهم ، ولُبْسِ الثياب واستعمال السلاح الذى يأتي من عندهم وقد قَاسَ ذلك كله على ما فعله الرسول ﷺ من نحو استئجار عبد الله بن أريقط في رحلة الهجرة من مكة إلى المدينة ، وكان مشركا ، إلا أنه كان

---

(١) صحيح البخاري ، أول كتاب الطب ٨/٤ ، والحديث عند مسلم بلفظ: لكل داء دواء ، فإذا أصيب دواء الداء برئ بإذن الله ، كتاب السلام ، باب لكل داء دواء ، واستحباب التداوى ٥١/٥ . وفي الباب أحاديث أخري .

(٢) انظر : مفتاح دار السعادة ١٩٧٩ ، وانظر : جامع بيان العلم وفضله ١/١٠-١٣ .

(٣) انظر : مثلا : إحياء علوم الدين للغزالي ٢٧/١ ، ٢٨ ، ٧٥ ، ٧٦ . ومجموع الفتاوي لابن تيمية ، طبع الرياض ١١٤/٤ ، ١١٥ .

ماهرا أمينا ، ثم قال بعد أن ذكر أمثله أخرى من السنة " فأخْذُ علم الطب من كتبهم مثل الاستدلال بالكافر على الطريق واستطبابه (= اتخاذه طبيبا) بل هذا أحسن ؛ لأن كتبهم لم يكتبوها لمعين من المسلمين حتى تدخل فيها الخيانة " (١) .

وهكذا يكلف كل سلم بتعلم قدر من العلوم الواجبة على سبيل فرض العين ، وثم تُكلَّفُ الجماعة بتوفير ما يجب تعليمه وتعلمه على سبيل فرض الكفاية سواء أكان متعلقا بأمور الدين أم متعلقا بما يحقق المصلحة من علوم الدنيا . ويهمنا أن نشير – هنا – إلى ما قاله ابن حزم منذ ما يزيد على تسعمائه عام في ضرورة تهيئة الفرصة للتعلم وخاصة لعلوم فرص العين " ويَجبُر الإمام أزواج النساء وسادات الأرقاء على تعليمهم ما ذكرنا ، إما بأنفسهم ، وإما بالإباحة لهم لقاء من يعلمهم . وَفَرضٌ على الإمام أن يأخذ الناس بذلك ، وأن يُرَتِّب أقواما لتعليم الجهال " (٢) .

والعلم – اذن – لا يصح أن يتجاهله مسلم ، وإن تفاوتت فيه أقدار الناس : قلة وكثرة ، وضيقا واتساعا ، على قدر أفهامهم وأحوالهم ، ولقد كان يساعد على تحقيق ما أوجب الإسلام من كون العلم فريضة أن الدولة والأفراد كانوا يتعاونون في توفير العلم لكل راعب فيه مجانا بلا تكاليف، بل كانت الدولة – في عصر ازدهارها – تمنح الطلاب من المال ما يعاونهم على طلب العلم من غير إثقال على أهليهم ، ولا شغل لهم بطلب القوت ، وكانت توفر لهم المسكن في أحيان كثيرة وكان أهل الخير من المسلمين يوقفون " الأوقاف " للإنفاق منها على التعليم والمتعلمين بحيث ينصرفون إلى طلب العلم دون انشغال بغيره ، وقد كان هذا النظام مطبقا في الأزهر إلى

---

(١) مجموع فتاوي ابن تيمية ، في الموضع السابق .

(٢) ابن حزم : الإحكام في اصول الأحكام مجلد ٣ج١٢٢/٥.

عهد قريب [1] وما تزال توجد صُوَر منه في بعض البلاد الإسلامية ، إدراكا منها لأهمية العلم ، ودوره في النهوض بالأمة ، وتيسير منها على طلاب العلم بإعطائهم بعض ما يَحتاج إليه العلم إنفاق وأعباء .

ج) كان العلم – قبل الإسلام – منحصرا في طائفة من الناس وينطبق ذلك على الحضارات السابقة على الإسلام ، والتى كانت تقوم في بنائها الاجتماعي – غالبا – على أساس طبقي صارم ، وكان العلم من نصيب الطبقة العليا في المجتمع ، بحيث لا يشاركها في التعلم أو المعرفة من دون هذه الطبقة من الطبقات الأخرى ، وينطبق ذلك على الفرس والهند ، كما ينطبق على مصر القديمة التى كان العلم فيها محصورا في طبقة الكهنة الذين كانوا يستأثرون بالعلم ويحتلُّون – بسببه – مكانة عليا في المجتمع ، وينطبق ذلك على اليونان حيث كان الفكر من نصيب الفلاسفة الذين كان لهم – عند اليونان – المكانة العليا – كذلك – بل إن الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا جعلت قراءة الإنجيل وتفسيره حكرا على البابا وكبارا الأساقفة ، ولم يكن من حق أحد أن يجتهد في ذلك ، بل إن على الجميع السمع والطاعة للتفسيرات الرسمية الصادرة عن الكنيسة [2] ، وظل ذلك مستمرا إلى أن قامت الحركة البروتستانتية بمقاومة هذا الأمر عند نشأتها في أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي ، ثم كان لاختراع الطباعة أثر كبير في هذا المجال .

---

(١) انظر : الوقف ودوره في التنمية ، د/ عبد الستار الهيتى ، طبع قطر ط١/١٩٩٨ ص١٢٧ وما بعدها وكذلك الوقف ودوره في تنمية المجتمع الإسلامي ، د / محمد الدسوقي ، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ط١/٢٠٠٠ الجزء الثاني ص ١١ وما بعدها ، ومذاهب فكرية معاصرة ، للأستاذ محمد قطب . دار الشروق ط٤/١٩٨٨ ص ٢٤٥ .

(٢) انظر : د قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والانفعالية. دار الرفاعي ، الرياض ط١/١٩٨٣ ص ٢٧ .

ولقد كانت هذه القلة التى تحتكر العلم تستخدم في كثير من الإحيان لغة خاصة لا يستطيع أن يفهما عامة الناس ، بل إن العبادات – لدى بعض الطوائف الدينية – كانت تُؤدَّى بلغات غير مفهومة للجمهور ولا مستعملة . لكن الإسلام سلك طريقا آخر ، فأسقط احتكار العلم ، وفَتَحَ كل الأبواب المؤدية إلى تحصيله ، ولم يقف في وجه من يطلب العلم بسبب جنسه أو نوعه أو لونه أو مكانته الاجتماعية ، ولقد كان المسلمون يحسون – من قديم – بهذا الفارق المهم الذى يميزهم عن غيرهم من الأمم ، وممن أشار إلى ذلك أبو طالب المكى (٣٨٦ هـ) حيث ذكر أن من خصائص هذه الأمة " أن كل مؤمن من هذه الأمة يُسْأل عن علم الإيمان (وهو أعلى العلوم وينطبق هذا على الأدني من باب أولى) ويُسَمع قوله ، ويُؤّذ من رأيه وعلمه مع حداثة سنه ، ولم يكونوا فيما مضى يسمعون العلم إلا من الأحبار والقسيسين لا غيرُ من الناس " [1] . وأدت هذه السماحة الفكرية والتفتح العقلى إلى تنافس الناس في طلب العلم ، حتى أصبح قيمة عليا يفتخر الناس بها ، ويؤدى حصولهم عليها إلى رفع درجتهم الاجتماعية في المجتمع ،حتى لو كانوا من أوساط اجتماعية متواضعة ، وهكذا رفع الإسلام بالعلم أقواما ما كانوا ليرتفعوا لولا اتصافهم بهذه الصفة ، ومن ثم أقبل الناس على العلم يجدون فيه رفعة ومكانة وشرفا ، وتفتحت في ظل الإسلام مواهب، وأثمرت عقول ما كان لها – قبل الإسلام – أن تسهم في أى ابداع فكري أو انتاج علمى وينطبق ذلك على فئة الموالى الذين لم يكونوا في كثير من الاحيان ذوى نسب عريق ولا شرف تليد . ويتضح الفرق بين موقف الإسلام من هؤلاء وموقف غيره منهم أن أمثال هؤلاء كانوا – في حضارة كالحضارة اليونانية مثلا – في الطبقة الدنيا : طبقة المنتجين من الزراع والصناع

---

(١)أبو طالب المكي : قوت القلوب ، في معاملة المحبوب طبعة الحلبي ١٩٦١ ج١ /٢٨٠ .

ونحوهم ، وليس في إمكان هؤلاء – بحسب التقسيم الاجتماعي لدى فيلسوف كافلاطون – أن يغادروا طبقتهم التي ينتسبون إليها بحسب ولادتهم ، وليس بإمكانهم – كذلك – أن يشغلوا أنفسهم بفن راق أو فكر رفيع ، لأن كل انسان أسير طبقته التى ولد فيها [(١)] وكان أرسطو ينظر إلى هؤلاء على أنهم أدوات انتاج ، لا فرق بينهم وبين الآلات إلاَّ في أن هؤلاء يتنفسون ، ويتصفون بمظهر الحياة، وكان يقول إن العبد آلة متنفسة ، أما الآلةُ فهي عبد غير متنفس أى غير حى ، وأمثال هؤلاء ليسوا جديرين بأن تتجه إليهم نفوس الأحرار بالمودة ، وليس بإمكانهم أن يبدعوا فكرة أو شيئا في العلم ذا قيمة [(٢)] .

أما الاسلام فإنه يكرم الإنسان في ذاته ، ويسقط التفرقة القائمة على تلك المظاهر الشكلية التى اصطنعها البشر أساسا للتمييز فيما بينهم كاللون أو السلالة أو العصبية أو الجاده، ونحو ذلك ، ولذلك اتسع صدر الإسلام لهؤلاء الموالى ، ولم يحرمهم حقهم في الكرامة والرفعة في المجتمع ما داموا جديرين بها ،وجعل الرسول ﷺ لهؤلاء من المنزلة على قدر علمهم وفضلهم، وقد جعل الرسول سالما مولى أبي حذيفة رابع أربعة يؤخذ منهم القرآن ، وكان الصحابة يقدمونه للصلاة ، فكان يؤم المهاجرين وفيهم عمر بن الخطاب وغيره " لأنه كان أكثرهم أخذا للقرآن ، وكان عمر يكثر الثناء عليه حتى قال لَمَّا أوصي عند موته : لو كان سالم حيا ما جعلتها شورى " [(٣)] .

---

(١) انظر : مقدمة د/ فؤاد زكريا لترجمة كتاب الجمهورية لأفلاطون ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٨٧ ، ٨٨ .

(٢) انظر : أرسطو ، الأخلاق ، ترجمة إسحاق بن حنين ، تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى ، طبع وكالة المطبوعات ، الكويت ط١٩٧٩/١ ص ٢٩٧ .

(٣) انظر : عز الدين ابن الأثير : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، طبعة الشعب ، بتحقيق د/ محمد إبراهيم البنا وآخرين ، ٣٠٧/٢ ، ٣٠٨ .

ولم يكن الأمر وقفا على سالم هذا ، وإنما كان موقفا عاما وقفه الإسلام من كل ذى علم ، فوجدنا من أئمة الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغيرهم من ينتسب إلى هؤلاء الموالي ، بل وجدنا كثيرين منهم يتصدرون حلقات الدرس ومجالس العلم ، حتى لقد فزع من ذلك بعض أهل العصبية للعرب كعبد الملك بن مروان الخليفة الأموى الذى نظر فرأى أن مدارس العلم بأكبر البلاد الإسلامية في عهده كلن يتنزعها الموالى. فقال للزهري وهو عربي من أئمة الحديث : " والله لَتَسُودَنَّ الموالى على العرب ، حتى يُخْطَبَ لها على المنابر ، والعرب تحتها ! قال (الزهري) : قلت : يا أمير المؤمنين : إنما هو أمر الله ودينه ، من حفظه ساد ، ومن ضيعه سقط " ثم بيَّنَ الزهري أن هؤلاء الموالى أنما سادوا وتقدموا وشَرُفُوا بالديانة والعلم [1] .

وهكذا لم يكن العلم محتكرا في الإسلام ، بل كان من وصايا الإسلام الدعوة إلى نشر العلم وإذاعته ، وعدم كتمانه ، وقد جاء في القرآن قول الله تعالى ﴿ **وَإِذَ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ...** ﴾ (آل عمران : ١٨٧) وفهم منها العلماء أنها نزلت كما قال الحسن وقتادة " في كل من أوتي علم شيء من الكتاب ، فمن علم شيئا فليعلِّمه ، وإياكم وكتمان العلم فإنه هلكة " [2] وجاءت أحاديث كثيرة في كتمان العلم [3] وقال عمر بن عبد العزيز " ولْتُفْشوا العلم ، ولتجلسوا حتى يعلم من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرا " [4] .

---

(١) انظر : ابن الصلاح : المقدمة في علوم الحديث ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨ ص ١٩٩ .

(٢) تفسير القرطبي في تفسير الآية ١٨٧ من سورة آل عمران ص ١٥٤٦ .

(٣) انظر : جامع بيان العلم وفضله ٣،٤/١ وانظر سنن أبي داود ، كتاب العلم ، باب كراهية منع العلم ، وباب فضل نشر العلم ٣٢١/٣ ، ٣٢٢ ، وسنن ابن ماجة ، المقدمة ، باب من سئل عن علم فكتمه ٩٦/١ -٩٨ .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب كيف يقبض العلم ٣٠/١ .

ولم يكن للعلم في الإسلام لغة سرية لا يعرفها إلا خاصة الخاصة كما كان شأن بعض أهل الأديان قبل الإسلام ، بل إن لغة العلم كانت هى اللغة العربية التى سادت أكثر بلاد الإسلام ، وانتشرت انتشارا مذهلا ، وحببها الله إلى المسلمين من غير العرب، فاستعاضوا بها عن لغاتهم الأصلية ، وكتبوا مؤلفاتهم فيها حتى إن بعض هؤلاء قدموها في مؤلفاتهم على لغاتهم الأصلية؛ بل إن بعض هؤلاء وهو أبو الريحان البيروني دفعه حب اللغة العربية إلى أن يقول : " لأنْ أُهْجَى بالعربية أحبُّ إليَّ من أن أُمْدَحَ بالفارسية " [(١)] .

بل إن سماحة الإسلام ، وذيوع اللغة العربية قد أسهما في أن تكون اللغة العربية هى اللغة التى يكتب بها ويؤلف بها جماعات لم تكن مسلمة ، ولكنها وجدت أن الكتابة بالعربية تؤدى إلى حفظ علمها وإذاعته بين الناس . ويقرر ذلك جورج سارتون أحد كبار مؤرخي العلم في العالم حين وصف علاقة المسلمين بغيرهم بأنها كانت علاقة ودية أو على الأقل لا عدوان فيها " لأن المسلمين عاملوا رعاياهم بكل رحمة وسماحة ، وبعنايتهم وتشجيعهم نشرت بحوث كثيرة ، وأعمال علمية باللغة العربية،ألّفها غير مسلمين ، منهم صابئون ونصاري ويهود وسامريون .. وحتى نهاية القرن الثاني عشر كانت العربية لغة اليهود الفلسفية والعلمية " [(٢)] وقد اختارها كذلك المسيحيون في الأندلس ، حتى كان ذلك موضع الشكوى من أهل العصبية فيهم ، وهذا أحدهم ويسمى الفارو كان يشكو قائلا : " يطرب إخواني المسيحيون لأشعار العرب وقصصهم فهم يدرسون كتب الفقهاء والفلاسفة المحمَّديين لا لتفنيدها ،

---

(١) انظر : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ، طبع الكتب العربي للتربية بالخليج – الرياض ١٩٨٥ ج٢/٣٠ .

(٢) سارتون : تاريخ العلم والإنسية الجديدة ، ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر ، دار النهضة العربية ١٩٦١ ص ١٦١ ، وانظر : روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ، ترجمة د/ صالح العلى ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ط١٩٨٣/٢ ص ٤٦ .

بل للحصول على أسلوب عربي صحيح رشيق ... إن شباب المسيحيين الذين هم أبرز الناس مواهب ، ليسوا على علم بأى أدب ولا لغة غير العربية ، فهم يقرأون كتب العرب ويدرسونها بلهفة وشغف ، وهم يجمعون منها مكتبات كاملة تكلفهم نفقات باهظة ... " (١).

وهكذا انتقل العلم – بسبب الإسلام – نَقْلَةً هائلة لم تحدث من قبل ، وأصبح الحصول عليه سهلا ميسورا ،وأصبحت لغته مألوفة معروفة ، ولم يحدث هذا – قط – قبل الإسلام ، ويزداد هذا الأمر أهمية إذا لاحظنا كثرة الشعوب التى دخلت في الإسلام ، وامتداد الرقعة التى استظلت به، وانتسبت إليه .

د) تطلق كلمة العلم في الإسلام – أول ما تطلق – على العلم بالدين عقيدة وشريعة وأخلاقا وأحكاما ، وهذا العلم قد تضمنه كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وهما – عند أهل الإيمان :

– مصدر العلم بالإسلام وأحكامه ، ولذلك يجب الرجوع إليهما للتعرف على حكم الله تعالى وحكم رسوله ، فهما موطن الاختصاص في هذا ، ولا يصح أن يقدَّم عليهما شئ غيرهما من أفهام العلماء ، ومذاهب المجتهدين ، ويصف البخاري منهج أئمة المسلمين في هذا الصدد فيقول " وكانت الأئمة بعد النبي ﷺ يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ... فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي ﷺ " (٢).

---

(١) جوستاف جرونيباوم : حضارة الإسلام ، ترجمة الاستاذ عبد العزيز جاويد ، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤ ص ٨١،٨٢

وانظر : بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة د/ حسين مؤنس ، مكتبة الثقافة الدينية ٤٨٥ ، ٤٨٦ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ، باب قول الله تعالى : وأمرهم شوري بينهم ٤/٢٧٢ .

– ثم هما المرجع عند الاختلاف والتنازع ، ولذلك أمر الله تعالى بالرجوع إليها في قوله ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥) ، فما حكم به الكتاب والسنة ، وشهدا له بالصحة فهو الحق ، وإلا فهو باطل .

* ولذلك جاءت الآيات والأحاديث الكثيرة الدالة على فضل هذا العلم الذى هو– في المقام الأول– العلم بالإسلام (*) لما لذلك من أثر في تعريف الناس بالدين ،حتى يكون عملهم به قائما على العلم لا على الهوى ، وعلى الاتباع لا الابتداع ، وعلى البصيرة والفهم لا على مجرد التقليد دون بينة ، وقد كان هذا من تعليم الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

ولكننا نجد – بجانب هذا المعنى للعلم – حديثا عن علوم أخرى ، مثل تعلم الأنساب التى قال عنها الرسول ﷺ " تعلَّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم " (١) وتعلم كتاب يهود أى لغتهم ،حيث أمر الرسول زيدَ بن ثابت قائلا " يا زيد تعلَّمْ لى كتاب يهود ، فإني والله ما آمن يهود على كتابي . قال زيد : فتعلمت كتابهم ... وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه ، وأجيب عنه إذا كتب " (٢) .

(*) يمكن الرجوع إلى مادة " علم " في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وإلى كتاب العلم في كتب الحديث النبوي ، كما يمكن الرجوع إلى كتاب جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، وكتاب العلم من إحياء علوم الدين للغزالي الجزء الأول بتخريج الحافظ العراقي ، وكتاب مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية ،وهكذا .

(١) مسند أحمد ٣٧٤/٢ .

(٢) مسند أحمد ١٨٦/٥ .

كما نجد في حديث الرسول تحذيرا من تناول من تناول بعض العلوم والحرف دون تعلم لها ؛ لأن ذلك يؤدى إلى وقوع الناس في الضرر الذى هو محرم في الإسلام ، ومن هذا الباب قوله ﷺ " من تطبَّب ، ولم يعلم منه طِبٌ فَقَتل فهو ضامن " [١] ونجد في القرآن الكريم – كذلك – حديثا عن علم المواقيت وعلم السنين والحساب [٢] .

كما نجد فيه أمرا عاماً بمعرفة التاريخ والاعتبار به واستكشاف سننه وقوانينه ، ثم بالنظر في خلق الإنسان وابتداء وجوده ، وفي طعامه وشرابه ، وفي الوجود من حوله جماداً ونباتاً ، وحيوانا ، وأرضا وسماء وبدءاً وانتهاء، كما تدل على ذلك آيات كثيرة من القرآن الكريم

ويمكن أن نفهم من هذا أن العلم حتى في عصر النبوة كان يتسع ليشمل أنواعا من العلوم التى ينبغي العلم بها ، إلى جانب العلم بالقرآن والسنة .

ثم اتسع نطاق " العلم " على يد الصحابة الذين وُضِعت في عهدهم أسس العلوم الشرعية الإسلامية كعلم الفقه والأحكام ، وعلم السنن والآثار ، وعلم السير والأخبار ، ومسائل من علم أصول الفقه ، وعلم التفسير ، والنحو وغير ذلك من العلوم [٣] التى وُضِعت نواتها في عهد الصحابة ثم أكملها التابعون من بعدهم ، واتسعت كلمة العلم لذلك كله خاصة وان الغاية الدينية كانت واضحة في العلوم الشرعية من حيث الحفظ لمصادر الإسلام أو المعاونة على فهمها والاستنباط منها ، أو من حيث المعاونة على معرفة ضبط اللغة العربية التى بها نزل القرآن ، وجاءت بها السنة ، ومن ثم لم

---

(١) سنن أبي داود : كتاب الديات ، باب فيمن تطبب بغير علم ١٩٥/٤ .

(٢) راجع الآيات : ١٨٩ من سورة البقرة ، ٥ من سورة يونس ، ١٢ من سورة الإسراء .

(٣) انظر : المقدمة ، لابن خلدون ، طبعة الشعب ٤٠٠ ، ٤٠١ ، وقوت القلوب للمكي ٣٣٩/١ .

تكن هنالك غرابة في إطلاق اسم العلم عليها ، والنظر إلى هذه العلوم على أن طلبها يكون عبادة لله تعالى وتقربا إليه ، وأنها داخلة في نطاق العلم الذى ينال الإنسان أجراً من الله عليه ، وأن من أخذ بشئ منها فقد أخذ بحظ وافر كما جاء في الحديث .

*ثم تُرْجم تراث الأمم الأخرى إلى اللغة العربية في حركة الترجمة المشهورة التى شهدت أزهي عصورها في عهد الدولة العباسية وخاصة في عهد المنصور والرشيد والمأمون ، وترتب على هذه الترجمة نقل الفلسفة اليونانية بما تضمنته من طبيعيات ورياضيات وإلهيات كانت تسمى علم ما وراء الطبيعة .

وعلى الرغم من وجود طائفة انتسبت إلى الفلسفة، وتسمت باسمها، ودافعت عنها، وعملت على التوفيق بينها وبين الدين إلا أن الفلسفة وبخاصة في الجانب الإلهي منها قد شهدت معارضة شديدة ، ونظر إليها لدى بعض الفقهاء وغيرهم على أنها نوع من الإلحاد ، وأن الانتساب إليها والعصبية لها خروج على الدين ، وكان مما قيل في ذلك عن الكندى :

أتقرن إلحاداً بدين محمد لقد جئت شيئا يا أخا كندة إدًّا

وقيل عن ابن سينا :

قطعْتُ الأخوة من معشر بهم مرض من كتاب الشفا

فماتوا على دين رسطالس ومتنا على ملة المصطفي[1][*]

---

(١) انظر للبيت الخاص بالكندي : د/ أحمد فؤاد الأهواني : الكندي ، فيلسوف العرب ، سلسلة أعلام العرب ص ٣٨ وللبيتين الخاصَّيْن بابن سينا : السيوطي : صون المنطق والكلام ، تحقيق د/ على النشار ، وسعاد عبد الرازق ، طبع مجمع البحوث الإسلامية ط١٩٧٠ ج١ /٣٧ .

(*) رسطالس هو أرسطو طاليس ، وكتاب الشفا هو كتاب من أشهر كتب ابن سينا .

وإذا كانت النظرة إلى الجانب الإلهي من الفلسفة قد جاءت حاسمة لـــدى هذا الفريق من علماء الشريعة فإن النظرة إلى الجوانب الأخري- التى كانت تندرج تحتها في ذلك الزمان قبل استقلال العلوم عن الفلسفة فيما بعــد – لــم تكن موضع اتفاق ، وينطبق ذلك على العوام التى توصف بأنها علوم تجريبية كعلم الطب والصيدلة وعلوم الحيوان والنبات والفلك ونحوها كما ينطبق على علوم الرياضيات كالهندسة والحساب ونحوها .

فقد أثير التساؤل حول هذه العلوم : هل تدخل في نطاق العلم الشـــرعى الذى يُؤْجَرُ صاحبه عند الله ، بحيث يكون طلب هذه العلوم والانشـــغال بهـــا عبادة أوْلا ؟

وانقسم الرأي حول هذه العلوم ، فذهب بعض العلمـــاء إلـــى أن العلــم ينحصر في العلوم الشرعية وحدها ، ولا ينطبق على سواها . واستدل هؤلاء ببعض الأحاديث النبوية ، ولكن ابن عبد البر الذى روى راى هؤلاء العلمـــاء – دون أن يذكر أسماءهم – يلاحظ أن هذه الأحاديث ضعيفة بســـبب وجــود بعض الرواة الضعفاء فيها ، ثم إن هذه الاحاديث يمكن تفسيرها بـــأن علـــوم الشرع تأتي في الدرجة العليا ، ثم يأتي غيرها فيما دون ذلك من الدرجات ، دون أن يكون الانشغال بها مكروها أو محرما ،بل إن بعــض هــذه العلــوم كالحساب لا يكاد يُستَغْنَى عنه ، بسبب الحاجة إليه في التجارة وغيرها ، وفي معرفة مقادير الزكاة وتقسيم المواريث ونحوها . وكعلم الطــب الــذى يعــد ضروريا لدراسة الأمراض ، ومعرفة طبائع الأبدان ، وما يطرأ عليهـــا مــن الآفات وكيفية علاجها وإعادة الأجسام إلى حال الصحة والســلامة ، وكعلــم الفلك الذى يستعان به في معرفة مواقع الأفلاك ومعرفة الأوقات والأمـــاكن ، ومعرفة الكسوف والخسوف ، وعلاقة الكواكب والنجــوم والريـــاح بنـــزول الأمطار ، والاهتداء بها في ظلمات البر والبحر، ونحو ذلك .

بل أن ما هو أدني (*) درجة من هذه العلوم يحتاج إليه الناس في معاشهم كالضائع والحرف والمهن اليدوية التى تحتاج إلى تـدريب وخبـرة ليتحقـق للناس ما فيها من فائدة (١) .

ويمكن القول بأن الاتجاه الثاني الذى يوسع نطاق العلم الشـرعى الـذى يثاب صاحبه ليشمل هذه العلوم الطبيعية والكونية ونحوها يعد أصـح فهمـا لمدلول النصوص الشرعية ، وأقرب التى تمثل موقف الإسـلام مـن العلـم بصفة عامة ، كما أنه يعد أكثر فهما للواقع الذى لا يتجاهله الإسلام ، بل إنه أمر بالنظر والتفكر فيه ، والاعتبار بما فيه من سنن وقوانين مطردة ، تـدل على حكمة خالقه وعلمه .

ومن الأدلة التى يمكن أن تساق تأييدا لهذا الرأي ما يلي :

١ - أن الإشادة بالعلماء قد جاءت في بعض الآيات القرآنية التى تتحدث عن علوم طبيعية كونية وعلوم تتعلق بالإنسان والحيوان والنبات ، من حيـث كمال الخلق ، ودقة الصنع واطراد النظام .

ومن هذه الآيات قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِـهِ ثَمَـرَاتٍ مُّخْتَلِفًـا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُـودٌ وَمِـنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِـنْ عِبَـادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر : ٢٧ ، ٢٨) .

(*) يقسم ابن عبد البر هذه العلوم إلى علم أعلى وهو علوم الدين ، وإلى علم أوسط وهو علوم الدنيا كعلم الطب والهندسة وعلم أدني وهو علم الحرف والصـناعات. انظـر جامع بيان العلم وفضله ٣٧/٢ وما بعدها .

(١) انظـر : جـامع بيـان العلـم وفضـله ٣٧/٢، ٢٤، ٢٣-٤٠ ، والإحيـاء للغزالـي ٧٦/١، ٧٥، ٢٨، ٢٧ .

ومن الواضح أن الآيتين تتحدثان عن بعض آثار قدرة الله عز وجل في الوجود ، الذى لا تحكمه طبيعة مادية صماء ، أو قانون يعمل في الكون بطريقة آلية ، بل إنه وجود يحكمه علم وإرادة ، ويتجلى فيه قدرة وحكمة ، ولذلك ينزل الماء واحدا من السماء ، ولكن الله يُخْرِج به ثمرات مختلفاً ألوانها كما قال الله تعالى في آيه أخرى ﴿ **يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ** ﴾ (الرعد : ٤) ثم بين القرآن أن هذا الاختلاف – مع وجود ما يؤدى إلى الإنفاق – ليس موجودا في النبات وحده ، بل إنه يوجد في الجبال التى تختلف ألوانها بل تختلف درجات اللون الواحد فيها ، كما يوجد الاختلاف في الناس والدواب والأنعام ، ولا شك أن التعمق في معرفة هذه المجالات المتعلقة بالنبات والجبال والإنسان والحيوان يزيد المرء شعورا بعظمة الخالق جل جلاله فيسجد له ، ويحس تجاهه بالرهبة والخشية والتعظيم ، وعندئذ يكون العلم طريقا إلى الإيمان واليقين ، وتكون الملاحظات والتجارب التى يقوم بها العلماء وسائل لمعرفة شيء مما أودع الله تعالى في هذا الوجود من إحكام وإتقان وأسرار ﴿ **صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ (النمل : ٨٨) .

ومن الآيات كذلك قوله تعالى :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ** ﴾ (الروم : ٢٢) وهى تتحدث عن أن الكون مخلوق ، وأنه ليس أزليا ولا أبديا كما كان يظن ذلك بعض الفلاسفة القدامى وبعض العلماء المحدثين ،، وقد تقدمت أبحاث العلم في شتى فروعه حتى أصبحت تقرر هذه الحقيقة التى أثبتها القرآن ، ورأينا العلماء يتوصلون في مجالات العلم المختلفة إلى ما يثبت أن الكون مخلوق بَعْد أن لم يكن، وأنه محتاج إلى خالق هو الذى خلقه ، وهو الذى يحفظه ويرعاه وأن ما في

الكون من مظاهر الإحكام والاتقان يدل على العلم والإرادة والقدرة والعناية (*).

كما تتحدث الآية عن اختلاف الألسنة والألوان ، ولا شك أن التعمق في الدراسات اللغوية ، وعلوم الجغرافيا البشرية وعلم الإنسان يقدم من الحقائق ما يبرز القدرة في مجال من أعظم مجالاتها ، ولذلك يجعل الله تعالى من هذه النتائج المستخلصة من هذه العلوم آيات للعالمين .

٢- تضمن القرآن الكريم آيات كثيرة تدخل فيما يسمى بالإعجاز العلمي وهي تحتوى على إشارات إلى ظواهر وحقائق لم تكن معروفة لأحد من البشر عند نزول القرآن ، لا عند العرب ولا عند غيرهم من الأمم التي كانت تسبقهم في مجال العلم والحضارة ، وهذا من أعظم الأدلة على أن القرآن كتاب الله تعالى ، وأنه ليس من قول بشر ومن هذه الآيات على سبيل المثال :

- ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات : ٤٧) .

- ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنبياء : ٣٠) .

- ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس : ٤٠) .

- ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الزمر : ٥) .

(*) يمكن الرجوع هنا إلى بعض الكتب العلمية مثل : الله يتجلى في عصر العلم والعلم يدعو للإيمان ، والعلم في منظورة الجديد ، وهو من الكتب الحديثة في هذا الموضوع كما يمكن الرجوع إلى كتاب " الإسلام يتحدى" لوحيد خان .

– ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

– ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الذاريات : ٤٩) .

– ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ ﴾ (الواقعة : ٧١ ، ٧٢) .

– ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (الزمر : ٦) .

وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير ، وهي تحتاج في استخلاص دلالاتها والمعرفة بحقائقها إلى أن يقوم العلماء بجهود كثيرة مخلصة لبيان أوجه الإعجاز فيها ، وإذا استحضر العلماء هذا المعني في دراساتهم فانهم يؤدون للبشرية خدمة جليلة يتحول بها الكون إلى محراب من محاريب العبادة ، حيث تتجلى فيه آيات الحكمة والقدرة والإعجاز ، ومن ثم يكون عملهم وسيلة من وسائل بيان آيات الله في الآفاق والأنفس ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

٣– أن معنى العبادة في الإسلام ليس محصورا في أداء أركان الإسلام كالصلاة والزكاة والصوم والحج كما أنه وليس محصورا في تطبيق الآداب والأخلاق التى أوصي الشرع بامتثالها ، إن ذلك يمثل أهم أركان العبادة والطاعة في الإسلام ، ولكنه لا يمثل العبادة في مجموعها وجملتها ، بل إن مفهوم العبادة – في الإسلام – يتسع حتى يشمل كل عمل صالح يُبْتَغَى به وجه الله تعالى ويؤدى إلى مرضاته ، ويدل على ذلك أحاديث كثيرة منها حديث " الصدقة " المشهور الذى ذهب فيه الفقراء إلى رسول الله ﷺ ليقولوا له إن الأغنياء قد ذهبوا بالأجور دونهم ، لأنهم يشاركون الفقراء في الصلاة والصيام ، ويتميزون عنهم بالصدقات التى يتصدقون بها فقال لهم الرسول: " أولَيْسَ قد جعل لكم ما تتصدقون ، إن بكل تسبيحة صدقة ، وبكل تكبيرة

صدقة وبكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة .. "[1] وجاء في بعض روايات الحديث أنواع أخرى من الصدقات كعزل الأذى عن طريق الناس ، وكعمل الإنسان بيديه لينفع نفسه ويتصدق ، وإعانة ذى الحاجة الملهوف ، والعدل بين الناس ، وإعانة راكب الدابة بحملة عليها ، أو وضع متاعه عليها ، والكلمة الطيبة، ونحو ذلك من الصدقات [2] .

ومن الأحاديث ما جاء من أنه مر على النبي ﷺ رجل فرأى الصحابة عليه علائم القوة والنشاط والجلد، فقالوا يا رسول الله : لو كان هذا في سبيل الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : " إن كان خرج يسعي على ولده صغارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعي على نفسه يعفها فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان " [3] .

وينطبق على العلم بالعلوم الطبيعية والكونية والإنسانية ما ينطبق على غيره من الأعمال التى تكون عبادة إذا قصد بها وجه الله تعالى .

٤- إن بعض هذه العلوم قد جاءت فيها أوامر شرعية كالأمر بالتداوى ، وبعضها يحقق مصلحة شرعية كالعلم بالمواقيت التى تتعلق بها الفرائض كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وأداء النذور ، والعلم بالجهات التي يترتب عليها معرفة اتجاه القبلة ، والعلم بالحساب الذى يحتاج إليه في معرفة نصاب الزكاة ، وتقسيم التركات على الورثة ، ونحو ذلك ، ثم إن بعض هذه العلوم يؤدى إلى تحقيق مصلحة للعالم به ، والمسلمون أولى الناس

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ٤٣/٣ ، ٤٤ .

(٢) صحيح مسلم : في الباب السابق نفسه ٤٤/٣-٤٦ .

(٣) الترغيب والترهيب : ٦٣/٣ وقال المنذرى في تخريجه : رواه الطبراني ، ورجاله رجال الصحيح .

بأن يحققوا هذه المصالح ، فالله تعالى قد ملأ الوجود بالآيات الباهرة التي جعلها آيات لأولي الألباب ، ولأولي النهى ، ولأولي الأبصار ، وجعل منها آيات لقوم يعقلون ، ولقوم يتذكرون ، ولقوم يتفكرون . والمؤمنين هم أَحَقُّ الناس بهذه الصفات المبنية على التفكر والنظر واستكشاف أسرار الوجود ، وهم أولَى بمعرفة ذلك كله من أهل العقائد الباطلة ، وإذا أهمل المسلمون في معرفة هذه العلوم فإنهم سوف يكونون عالة على غيرهم ، وسوف يكون غيرهم في موضع القوة القائمة على احتكار العلم ونتائجه التي تؤدي إلى أن يكونوا في موضع الغلبة والسيادة إزاء المسلمين ، ولن يتمكن المسلمون – عندئذ – من الإفادة من هذه القوة العلمية إلا إذا قدَّموا تنازلات يدفعون ثمنها باهظا من أموالهم ومن كرامتهم ، وهذا موقف ينبغي أن يتنزه عنه المؤمنون الذين أمرهم الله تعالى بأن يستعدوا بكل أسباب القوة التي تليق بكونه مؤمنين بخاتم الأديان وأكملها.

ومن ثم يمكن القول بأن العلم بهذه العلوم إما واجب شرعي صريح أو ضمني يدخل في نطاق مالا يتم الواجب إلا به فهو ، واجب وإما سدُّ للذرائع ، وإما تحقيق للمصالح التي هي مقصد من مقاصد الشريعة وهو مطلوب في كل الأحوال.

ويترتب على ما سبق كله أن يكون الاشتغال بالعلوم التجريبية والرياضية من العلوم الضرورية الواجبة ، التي يتطلبها الإسلام ، وهي جديرة بأن تكون مؤدية إلى مرضاة الله تعالى ، مثلها في ذلك مثل العلوم التي سميت بالعلوم الشرعية ، بشرط أن تلتزم في موضوعاتها ووسائل وغاياتها ومقاصدها بأحكام الإسلام وآدابه . ولعل مما يؤكد ذلك أن كثيرا ممن اشتغلوا بهذه العلوم من العلماء المسلمين كانوا يخصصون بعض جهودهم لمعالجة مسائل تتعلق بالشريعة فالبيروني – مثلا – يكتب عن إيضاح الأدلة على كيفية سمت القبلة ويكتب عن آراء الأئمة في أوقات

الصلاة ، وما يضطر إليه في تحقيقها ، ويكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية فيما يتناوله من موضوعات علمية [1] .

وعبد اللطيف البغدادى الطبيب يكتب رسائل في الفقه وعلم التوحيد وفي الطب من الكتاب والسنة ، وفي غريب الحديث وفي تفسير سورة الإخلاص [2] .

وابن النفيس المتخصص في الطب والتشريح يكتب في اللغة والحديث والسيرة النبوية كما يكتب في الفقه ، ويتولى تدريسه حتى ليترجمِ له السبكيُّ فى طبقات الشافعية [3] .

وابن رشد الذى اشتهر بالفلسفة يكتب في الطب ، ويبرع في الفقه حتى ليتولى القضاء في قرطبة . وهكذا وهكذا .

وقد كان اهتمام هؤلاء بالدراسات الشرعية يلقي على دراساتهم في العلوم مسحة دينية واضحة .

فالعلم الرياضي الطبيعي أبو عبد الله محمد بن سنان البتاني الفلكى المشهور يذكر أن علم النجوم يوصّل الإنسان إلى برهان على وحدانية الله

---

(١) انظر : د/ محمد جمال الفندى ، د/ إمام إبراهيم أحمد : البيروني سلسلة أعلام العرب ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر /١٩٦٨ ص ٣١ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ١٠٢ .

(٢) انظر د/ بول غليونجي : عبد اللطيف البغدادي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ٥١ .

(٣) انظر : د/ بول غليونجي : ابن النفيس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ط١ د.ت ١٠٤ - ١٠٨ .

تعالى وإلى معرفة حكمة الله فيما خلق [١] وابن رشد يقول : " من اشتغل بعلم التشريح ازداد ايمانا بالله " [٢] .

والبغدادى يؤلف رسالة في المعادن وإبطال الكيمياء يقول فيها " ولعل (الله) سبحانه وتعالى يهدى بكتابي واحدًا من الناس فلى ثوابه " [٣] .

وابن الهيثم يكتب في علم الطبيعة ، مستمدا العون من الله في جميع الأمور [٤] .

ثم تأتى الوصية إلى هؤلاء من العلماء بالشريعة بضرورة مراقبة الله تعالى في القيام بوظائفهم ، وانظر إلى ما كتبه أحدهم في الوصية إلى الأطباء البيطريين ، حين يبين وظيفة أن البيطرة أصعب من وظيفة الأطباء البشريين " لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم ، وإنما يُستَدل على عِلَلِهاَ بالجَسِّ والنظر ... فلا يتعاطي البيطرة إلا من له دين يصده عن التهجدم على الدواب بِفَصْدٍ أو قطع أو كَيّ .. فيؤدى إلى هلاك الدابة أو عطبها " [٥] .

---

(١) انظر : روجيه جارودى : الإسلام دين المستقبل ، ترجمة عبد المجيد بارودى ، دار الإيمان ، بيروت ، دمشق ١٩٨٣ ص ٩٤ .

(٢) انظر : ص : د من مقدمة فصل المقال ، المطبوع مع مناهج الأدلة وهما لابن رشد طبعة صبيح ، د.ت .

(٣) انظر :بول غليونجي : عبد اللطيف البغدادي ، مرجع سابق ص ٥٦ .

(٤) انظر : أحمد سعيد الدمرداش : الحسن بن الهيثم ، دار الكاتب العربي ١٩٦٩ ص ٣٧ .

(٥) عبد الرحمن الشيزرى : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشرة السيد الباز العريني ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٦ ص ٨٠ .

ونخلص من هذا كله إلى أن العلم في الإسلام وعند المسلمين لم يكن محصورا في علوم الشريعة ، وإنْ كان لهذه الأولوية ولكن العلم كان عندهم شاملا لعلوم الشريعة والعلوم الأخرى : الطبيعية والرياضية وغيرها ، وإن هذا الشمول للعلم قد دفع بالبحوث العلمية دفعة كبري أحدثت تلك النهضة العلمية الكبري التى شهدها العلم على يد المسلمين . وشملت النهضة تلك العلوم التى تأسست عند المسلمين حول مصادر الإسلام كعلوم القراءات والتفسير ، وعلوم الحديث وما وضعوه فيها من مناهج لتوثيق الأخبار ، ونقد الرجال ، وكعلوم الفقه والأصول ، وهما يبحثان في استنباط الأحكام الشرعية وقواعد هذا الاستنباط ، وكعلوم السيرة والتاريخ ، وما أضيف إلى ذلك كله من علوم مساعدة تبحث في اللغة وقواعد النحو وعلوم البلاغة ونحوها مما كان موضع اهتمامهم بسبب حرصهم على اللغة العربية التى هي لغة القرآن والسنة ، وبسبب رغبتهم في بيان إعجاز القرآن الكريم الذى لا يداني إعجازه بيان .

وشملت النهضة – كذلك – تلك العلوم التى انتقلت إلى اللغة العربية بالترجمة ، كعلوم الطبيعة والكيمياء والفلك والطب ونحوها ، وقام المسلمون في هذا المجال بجهد كبير، شهد لهم به مؤرخو العلم الذين أثبتوا أن تقدم العلم عند المسلمين كان أشبه بالطفرة ومن هؤلاء زيجريد هونكه التي قالت : إن هذه الطفرة العلمية الجبارة التى نهض بها أبناء الصحراء ، من العدم ، من أعجب النهضات العلمية الحقيقية في تاريخ العقل البشري ... وإن الإنسان ليقف حائرا أمام هذه المعجزة العقلية الجبارة التى لا نظير لها ... أن هذه المنزلة التى بلغها العرب ابناء الصحراء لم تبلغها شعوب أخرى كانت أحسن حالا وارفع مكانة " [1] .

---

(١) زيجريد هونكه : شمس الله على الغرب ، ترجمة د/ فؤاد حسنين على دار المعارف ط٢ / ١٩٦٩ ص ٢٣٨ .

ويقول محمد أسد " ان التاريخ يبرهن وراء كل إمكان للريب أنه ما من دين أبدًا حث على التقدم العلمى كما حث الإسلام، وإن التشجيع الذى لقيه العلم والبحث العلمي من الدين الإسلامي انتهى إلى ذلك الإنتاج الثقافي الباهر في أيام الأمويين والعباسيين وأيام دولة العرب (أى المسلمين) في الأندلس ، وإن أوربة تعرف ذلك حق المعرفة؛ لأن ثقافتها – هي نفسها – مدينة للإسلام بتلك النهضة " [1] .

وأدت هذه النهضة إلى نشر العلم والمكتبات على نحو ليس له نظير من حيث عدد المكتبات وكمية الكتب التى تحتويها [2] كما أن العلماء كانوا كثيرين كثرة ملحوظة جعلت ديورانت يقول إن الإسلام قد بلغ ذروة حياته الثقافية في القرن من الثامن إلى نهاية القرن الحادى عشر الميلادي " ولم يكن العلماء في آلاف المساجد المنتشرة في البلاد الإسلامية من قرطبة إلى سمرقند يقلون عن عدد ما فيها من الأعمدة ... وكانت طرقات الدولة لا تخلو من الجغراقيين والمؤرخين وعلماء ، الدين يسعون – كلهم – إلى طلب العلم والحكمة ... ولم يكن أحد يجرؤ على جمع المال دون أن يعين بمَا لِه الأداب والفنون " [3] .

---

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ترجمة د/ عمر فروخ ، دار العلم للملايين ، بيروت ط٩/١٩٧٧ ص ٧٠ .

(٢) هونكه : شمس الله على الغرب ٢٦٦ .

(٣) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة الأستاذ / محمد بدران لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٣/١٩٧٤ ، مجلد ٤ ج٢/١٧١ .

ثم ترتب على ذلك أيضا هذا الإسهام الكبير في نهضة العلوم ووضع مناهجها ، وإضافة أفكار وعلوم جديدة اليها مما يمكن الرجوع إليه في الكتب الخاصة بمناهج العلوم (*).

وهكذا كان العلم عند المسلمين ، عاملا من عوامل قوتهم ، وسببا من أسباب نهضتهم ، حين جمعوا فيه بين عوامل الدين وعلوم الدنيا وجعلوا للاجتهاد والبحث في سائر المجالات نصيبا مفروضا ، فانضم إلى عوامل القوة التى تحدثنا عنها من قبل : قوة العقيدة ، وتقديم الولاء لها على كل ولاء ، ووحدة الأمة المبنية على الإيثار والعدل ، والعلم بهذا المفهوم الذى عرضنا له من كونه عبادة وفريضة ، ومن كونه ذا مفهوم شامل عام ، يشترك في بنائه ونهضته كل من تيسرت له الأسباب من المسلمين ، وغيرهم ممن أظلهم الإسلام بسماحته ، واتسعت لغته لفكرهم وإسهامهم العلمي .

٤- كان المسلمون على وعي بأنهم أمة ذات رسالة عظيمة يجب عليهم نشرها وإبلاغها إلى الناس ؛ لأنها رسالة عالمية جاءت للبشرية جمعاء ، فلم تكن مقصورة عليهم ، ولا خاصة بهم ، وهي ليست محصورة في جنس من

(*) يمكن مراجعة هذه الفكرة في كتب كثيرة منها : أثر العرب في الحضارة الاوروبية للعقاد ، دور العرب في تكوين الفكر ال،روبي د . عبد الرحمن بدوى ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، بارتولد ترجمة حمزة طاهر ، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه د . عبد الحليم منتصر ، عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، د . عمر فروخ ، شمس الله على الغرب ، زيجديد هونكة ترجمة د. فؤاد حسنين ، تجديد التفكير الديني في الإسلام : د . محمد اقبال ، في الفكر الإسلامى د . أبراهيم مدكور ، حضارة العرب ، جوستاف لوبون ، مناهج البحث عند مفكرى الإسلام ، د . على النشار ، مناهج البحث في العلوم الإسلامية ، د . مصطفي حلمي ، منهج البحث العلمى عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية د . جلال موسى ، الخ .

الأجناس ، ولا في لون من الألوان ، ولا في زمن من الأزمنة. وقد تعلم المسلمون ذلك من القرآن الكريم ، منذ عهد الإسلام الأول ، وبشّر به رسول الله ﷺ – وهو وأصحابه في مكة يتعرضون للإيذاء والتنكيل والحصار والمقاطعة . وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف : ١٥٨)

– ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان : ١)

وقد كانت هذه الرسالة التى جاء بها الإسلام رسالة إنسانية أخلاقية تتضمن الدعوة إلى الخير العام ، وتعمل على تحقيق كرامة الإنسان ، وإعلاء شأن العدل ، وتحرير الإنسان من الظلم والعبودية والاستبداد والخضوع لغير الله تعالى ، ومما يدل على ذلك من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُواْ الْخَيْرَاتِ ﴾ (البقرة : ١٤٨) .

– ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

– ﴿ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ (النحل : ٩٠) .

– ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥) .

– ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ... ﴾ (المائدة : ٨) .
إلى آيات كثيرة أخرى .

وقد سلك المسلمون كل سبيل إلى نشر هذه الرسالة ، وإبلاغها إلى الناس في مشارق الأرض ومغاربها ، وقد كان الجهاد إحدى الوسائل التي

سلكوها لإبلاغ هذه الدعوة ، وكان ذلك وسيلة من وسائل تطبيق عالمية الإسلام ، كما كان متفقا مع عقيدة ختم النبوة بمحمد ﷺ .

وقد شُرِع الجهاد في سبيل الله لغايات وأغراض متعددة تتعلق بالظروف التى عاشها المسلمون ، كما تتعلق بالغايات التى يهدف الاسلام إلى تحقيقها . ومن أهم هذه الغايات ما نشير إليه – بإيجاز شديد – فيما يأتي .

أ) دفع الظلم ورفع الأذى عن المسلمين الذين تعرضوا في مكة للظلم والأذى من المشركين حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم إلى الحبشة أولا ثم إلى يثرب التى أصبح اسمها : المدينة ، ولذلك أذن الله لهم في مقاتلة هؤلاء المشركين ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ (الحج : ٣٩ ، ٤٠)

ب) الدفاع عن المظلومين المضطهدين ، الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولا يستطيعون أن يهاجروا من أرض الشرك إلى بلاد الإسلام ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (النساء : ٧٥) ويرتبط بهذا ارتباطا وثيقا حماية المسلمين من القهر والبغي الذى يؤدى إلى الفتنة في الدين ، التى هى أشد من القتل وأكبر منه ، ولذلك يقول الله تعالى ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٣) ويقول : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه ﴾ (الأنفال : ٣٩) ولذلك شرع الله القتال حتى ولو كان في الأشهر الحُرُم التي يحرم فيها القتال ؛ لأن قتل المسلمين وفتنتهم عن الدين ، وإخراجهم من ديارهم أشد إثما وأعظم جرما من القتال في الأشهر الحرم ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ

مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ ﴾ (البقرة : ٢١٧) .

ج) مجاهدة الكافرين وقتالهم إذا بدأوا المسلمين بالقتال ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة : ١٩٠) .

ويرتبط بهذا السبب ارتباطا وثيقا نقض المشركين وغيرهم لعهودهم التى قطعوها على أنفسهم للمؤمنين ﴿ وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ (التوبة : ١٢) (*). فإذا وفوا بالعهود واستقاموا في تعاملهم مع المسلمين فإن المسلمين مكلفون بمعاملتهم بالمثل ﴿ فَمَا اسْتَقَامُواْ لَكُمْ فَاسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة : ٧ وأنظر الآية ٤ أيضا) ﴾

د) بذل الجهد لابلاغ كلمة الله إلى الناس ، وتحقيق عالمية الرسالة ، التى هي من خصائص الإسلام كما سبق القول : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٣) (**)

وبسبب هذه المهام الجليلة التى يقوم بها الجهاد في الدفاع عن الإسلام ، والعمل على نشرة كان للجهاد مكانة عظمي فهو " ذروة سنام الإسلام " كما وصفه الرسول ﷺ [1] وكان القائمون به من المجاهدين والشهداء

(*) اقرأ الآيات بعدها كذلك .

(**) وكذا آية ٢٨ من سورة الفتح وأية ٩ من سورة الصف وأية ١٩٣ من البقرة ، ٣٩ من الأنفال .

(١) مسند أحمد ٢٣١/٥ ، ٢٣٧ .

في الدرجات العلا عند الله تعالى كما تدل على ذلك الآيات والأحاديث الكثيرة . (*)

ولقد كان الرسول يبايع الناس على الإسلام والجهاد ، كما كانت الانصار تقول يوم الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما حيينا أبدا[1]

كما كان الصحابة يتعلمون سورة الأنفال التى كان يسمونها سورة الجهاد ، وكانوا يستحضرونها في المواقف العصيبة لتقوى عزائمهم وتمتلئ قلوبهم بالثقة والسكينة والرجاء في نصر الله تعالى ، فعندما كان المسلمون يتهيأون لخوض معركة القادسية ضد الفرس صلى سعد بن أبي وقاص الظهر بالناس ثم أمر الغلام الذى أرسله إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إليه، وكان من قراء القرآن وحفاظه – أمره بأن يقرأ سورة الجهاد " وكان المسمون يتعلمونها كلهم ، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد ، فقرئت في كل كتيبة ، فهشّت قلوب الناس وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قراءتها " . (۲)

وقد كانت تلك الروح البطولية الفدائية التى تحلى بها المسلمون سببا في ذلك الانتشار السريع الكاسح للاسلام في شرق الأرض وغربها ، وقد تم ذلك على نحو مذهل تحطمت فيه عروش أقوى الدول في ذلك الوقت بحيث ارتفعت راية التوحيد على كثير من بقاع الأرض المعمورة في أقل من قرن من الزمان ، ويهمنا أن نوضح أن تلك الروح البطولية كانت أثر من آثار

(*) راجع كتاب الجهاد والسير في الصحاح كالبخاري ومسلم ونحوهما وهي تفيض بالأحاديث الكثيرة الدالة على تلك المكانة العظمي التى يجعلها الله تعالى للمجاهدين والشهداء .

(۱) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب البيعة في الحرب ألا يفروا ۱٦۳/۲ .

(۲) تاريخ الطبري ۵۳٦/۳ .

العقيدة ونتيجة لها ، وأن هذا الجهاد لم يقصد من ورائـه سـلب ولا نهـب ولا تسلط ، ولا علو في الأرض ولا فساد ، وأن الجهاد الإسلامي يتميز بأنه كان يرمي إلى توصيل الدعوة التحريرية العظمي التى تحملها مبادئـه فـي توحيد الله وتحرير البشر من الطغيان ، وإضفاء طابع الكرامة على الإنسان ، وإسقاط الحواجز التى تحول بينه وبين الدين الصـحيح الـذى جـاء خاتمـا للاديان ، ووارثا للوحي ، ومهيمنا عليه ، ولذلك كان المجاهدون حملة هداية ورحمة تتعلق برسالة نبيهم ﷺ " . وعبَّر عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك بقوله : إن الله بعث رسوله محمـدا ، ﷺ ، هاديـا ، ولـم يبعثـه جابيا " .

- ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَـيْهِمْ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) . ولقد نجد من بين مؤرخى الحضارات مـن يعتـرف بأثر العقيدة فى جهاد المسلمين ، ومن هؤلاء جوستاف لوبون الذى يقـول إن للاعتقاد قوة لا يقابلها إلا قوة اعتقاد مثلها " وكانت شدة إيمان العـرب تزيـد قوتهم العددية عشرة أمثالها ... " (١)

فالعقيدة المستكنة في القلوب كانت هى المحرك الاعظم للجهاد والفـداء والاستشهاد ، ويتضح هذا الأثر للعقيدة في جوانـب متعـددة مـن أبرزهـا جانبان :

أ) أن الإيمان بالآخرة ، وما أعده الله للشهداء في الىخرة مـن عظـيم الثواب والكرامة قد نزع من قلوبهم خوف الموت ، وحبـب الـيهم الشـهادة وجعلهم يتدافعون ، ويتسابقون، إليها حتى لقد كان الذى لا يفـوز بالشـهادة يغبط من فاز بها ، فعندما استشهد زيد بن الخطاب الذى كان يحمـل رايـة

---

(١) سر تطور الأمم ١٤٤ ، ١٤٥ .

المسلمين في موقعه اليمامة في قتال مسيلمة الكذاب قال عمر بن الخطاب : رحم الله زيدا، سبقني أخي إلى الحسنيين : أسلم قلبي ، واستُشْهد قبلي " [١] وكان من لم يدرك الشهادة منهم يتحسر على حرمانه منها ، وكان من هؤلاء خالد بن الوليد الذى قال عندما حضرته الوفاة " لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في بدني موضع إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء ... " [٢] .

ولقد كانوا ينظرون إلى الشهادة على أنها منحة الهية لا ينالها كل أحد فهي ترجع إلى نوع من الاصطفاء الإلهي الذى يختار الله تعالى له من يشاء ، كرما منه وفضلا ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء ﴾ (آل عمران : ١٤٠) [*]

ولكن الصحابة كانوا يتخذون ما في طاقتهم من الأسباب ليفوزوا بهذا الاصطفاء ، وكان بعضهم يُعرض عن المغانم – مع النصر – طلبا للشهادة ، وعندما غنم الرسول المغانم من خيبر قَسَمَ لأحد الصحابة قَسْمًا فقال الرجل لمن حمل إليه نصيبه : ما هذا ؟ قالوا قَسْم قَسَمهُ لك رسول الله ﷺ فقال : ما على هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى هنا، وأشار إلى حلقه – بسهم فأموتَ فأدخل الجنة ، فقال : إنْ تَصْدُقِ الله يصدقك. فدخل المعركة وقتل، فقال الرسول : صدق الله فصدقه " [٣] ولم تكن المسارعة إلى الجهاد والاستشهاد وقفا على الكبار من الرجال بل إن الشباب كانوا يسارعون إلى ميادين الجهاد لينالوا شرف البطولة ، وكرامة التضحية والبذل في سبيل الله ،

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير ٢٨٦/٢ .

(٢) السابق ١١١/٢ .

(*) يقول ابن هشام في تفسيرها : وليكرم من أكرم من أهل الإيمان بالشهادة انظر سيرة ابن هشام ١١٠/٢ .

(٣) البداية والنهاية ١٩٣/٤ .

والفداء لرسوله ﷺ (*) وإن أحدهم ليرغب في الجهاد ويحرص عليه مع أنه لا يطيق حمل السلاح ، وأن أحدهم ليرد عن الجهاد بسبب صغره فيبكي فيؤذن له ، وأن أحدهم ليتوارى عن الرسول حتى لا يرده لصغر سنة ، مع أنه يبتغي الشهادة ، فيرزقه الله اياها وهو ابن ست عشرة سنة [1] .

كذلك طالبت النساء بنصيبهن منه ، فبين لهن الرسول عليه الصلاة والسلام أن طاعة الزوج والقيام بحقه تعدل ذلك ، ولكنهن لم يقنعن بذلك ،بل كن يشتركن في بعض الغزوات ويقمن ببعض الواجبات التي يستطعنها كعلاج المرضي وصنع الطعام وحمل الماء إلى المقاتلين ، ومناولتهم السلاح ، بل شارك بعضهن في القتال الفعلي في أشد المواقف حرجا مثلما قاتلت نسيبة بنت كعب دفاعا عن الرسول ﷺ في غزوة أحد بعدما انهزم المسلمون ، وفي ذلك تقول " فلما انهزم المسلمون ، انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال وأذب عنه بالسيف وأرمي عن القوس حتى خلصت الجراح إليَّ .. " [2] بل إن احداهن – وهي أسماء بنت يزيد – قتلت تسعة يوم اليرموك [3] .

وهكذا كان للعقيدة هذا الأثر الحاسم في غرس تلك الروح البطولية الفذة التي وصفها خالد بن الوليد رضي الله عنه في دعوته أهل فارس إلى الإسلام بأنهم قوم يحبون القتل في سبيل الله كما تحب فارس الخمر ، وبأنهم قوم

(*) انظر ما رواه البخاري عن عبد الرحمن بن عوف فيما حكاه عن غلامين من الأنصار سأله كل منهما عن أبي جهل حيث عزم كل منهما على قتله لأنه بلغهما كان أنه يسب الرسول ﷺ ، فلما رآه دلّهما عليه فاشتركا في قتله. صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير، باب من لم يخمس الاسلاب ٢/١٩٧ طبعة الحلبي .

(١) انظر كنز العمال ٥/٢٧٠ ، وحياة الصحابة للشيخ محمد بن يوسف الكاندهلوي ، طبع دار القلم ، دمشق ط٢/١٩٨٣ ج١/٥٩٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٨١،٨٢ .

(٣) انظر في خروج النساء للجهاد مع الجاهدين : حياة الصحابة ١/٥٩٠ – ٥٩٨ .

يحبون الموت كما يحب أعداؤهم الحياة "[1] وقد وصفهم بذلك أعداؤهم حين وصفوا الصحابة بأن كل واحد منهم يحب أن يموت قبل صاحبه ، أما أعداؤهم فإن كل واحد منهم يود أن يموت صاحبة قبله [2] .

ب) أن تمكن الإيمان من قلوب الصحابة كان يجعلهم ذوى يقين لا يتزعزع بأن ما وعدهم به الله تعالى ورسوله من النصر وفتح البلاد وانتشار الإسلام واقع لا محالة ، لأن وعد الله لا يتخلف ، ولأن رسوله لا ينطق عن الهوى. ولقد كان وعد الرسول لهم – بذلك – يأتي أحيانا في ظروف محنة وشدة كما حدث في غزوة الخندق التى بشرهم الرسول فيها بفتح البلاد في المشرق والمغرب [3] ، واستهزأ المنافقون بهذه البشارات النبوية ، ولكن الصحابة – رضي الله عنهم – كانوا ذوى يقين وتسليم بضرورة تحقق وعد الله تعالى لهم ﴿ وَمَا زَادَهُمْ إِلا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ (الأحزاب : ٢٢) .

وقد رأى الصحابة بأنفسهم تحقق بعض هذه البشارات ، فكان ذلك زيادة ليقينهم ، وتثبيتا لايمانهم بصدق ما وُعدُوا به . ومن هؤلاء عدى بن حاتم الذى تحدث عن دعوة الرسول له إلى الإسلام وألا يصدَّنَّهُ عن الإيمان ما يراه من ضعف المسلمين .وكان مما قاله له : أما أنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام . تقول : إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس ومَنْ لا قوة له ، وقد رمتهم العرب (ثم يقول له الرسول) : أتعرف الحيرة ؟ قلت : لم أرها وقد سمعت بها [*] قال (الرسول) : فو الذى نفسي بيده ليتمَّنَّ الله هذا الأمر حتى

(١) انظر : تاريخ الطبري ٣/٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ .

(٢) انظر : حياة الصحابة ٣/٦٩٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٦١٩ ، وانظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب في تفسيره للآية ٣٣ من سورة التوبة ٤/٧٨ ، ٧٩ .

(*) الحيرة بلد يجنب الكوفة ، ومحلة معروفة بنيسابور . انظر : لسان العرب ، مادة : حير . ولم تكن الحيرة قد فتحت بعد .

تخرج الظعينة (المرأة) من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز بن هرمز ، قلت : كسري بن هرمز ؟ قال : نعم ! كسري بن هرمز ، وليَبْذُلن المال حتى لا يقلبه أحد . قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسري بن هرمز ، والذى نفسي بيده لتكونن الثالثة ، لأنَّ رسول الله ﷺ قد قالها " [1]

وقد كان بعض الصحابة – ثقةً منهم بتحقق وعد الله – يطلب إلى الرسول ﷺ أن يقسم له نصيبا من بلاد لم يتم فتحها بعد ، ومن هؤلاء تميم الداري الذى قال للرسول : " إن الله مظهرك على الأرض كلها فهب لى قريتي من بيت لحم في فلسطين . (ولم تكن قد فتحت بعد) فوهبه الرسول ﷺ إياها ، وكتب له بذلك ، فلما فتحت جاء بالكتاب إلى عمر فأقطعه إياها " [2] – **﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـؤُلاء دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَإِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾** (الأنفال : ٤٩) . وكان هذا اليقين يملأ قلوبهم شجاعة ، وجرأة وإقداما ، ويمدهم بقوة معنوية غلابة كانت تمكنهم من مواجهة الدول العظمى التى كانت تحيط بهم دون خوف ولا تردد ولم تكن هذه الجرأة على من حولهم إلا أثرا من آثار العقيدة التى آمنوا بها ، فلم يكن للعرب بين هذه الدول شأن ولا مكانة ، ولم يكونوا موضع رغبة ولا رهبة ، بسبب ما كانوا عليه من الضعف والتفرق ، وبسبب ما كانت عليه بلادهم من فقر في الموارد وقلة في الخيرات ، وعندما دخل العرب في الإسلام وأسلموا لله نفوسهم ، وطلبوا الجنة وحَرَصُوا على الشهادة ، لم يكونوا قد ازدادوا عددا ، ولا عُدةً مادية ، ولكنهم كانوا قد تزودوا بمدد لا يقهر ، وزاد لا ينفد من التضحية والفداء ، والثقة بالله ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٧٩/٤ .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١٨٩/٢ .

والتوكل عليه ، والرجاء في نصره وتحقيق وعده ، ولذلك انقلبت الموازين ، وأصبح الضعفاء الفقراء يمشون على بساط الملوك في قوة وجرأة ويُنْذرونهم بالهزيمة وانتهاء الملك على نحو يثير الدهشة والاستغراب ، بل يثير – عند غير المؤمنين – السخط والاستنكار. وعندما بعث سعد بن أبي وقاص إلى رستم قائد الفرس عددا من سادات الصحابة ليدعوه قبل القتال إلى الدخول في الإسلام – وقد كان هذا مبدأ علمهم إياه الرسول ﷺ كما فعل مع على بن أبي طالب في يوم خيبر(١) – قال لهم رستم " ما أقدمكم ؟ فقالوا: جئنا لموعود الله إيانا : أخذِ بلادكم ، وسَبْيِ نسائكم وأبنائكم وأخْذِ أموالكم ، فنحن على يقين من ذلك " (٢) .

وفي مرة أخرى دخل عليه ربعي بن عامر بثياب متواضعة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ظل يمشي بها إلى أن داس على طرف بساطه ، ثم نزل وربطها ببعض الوسائد ، ثم أقبل عليه يحمل سلاحه. فقالوا له : ضع سلاحك ، فقال : إني لم آتكم وإنما جئتكم حين دعوتموني ، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت فقال رستم : ائذنوا له ... فقالوا له : ما جاء بكم فقال قولا يدل على وعيه العميق بتلك الغاية التحريرية العظمي التى هى هدف من أهداف الجهاد. قال ربعي : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الإديان إلى عدل الإسلام ... فمن قَبِل ذلك قبلنا منه ، ورجعنا عنه ، ومن أبي قاتلناه، أبدا حتى نفضى إلى موعود الله ، قالوا : وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبي ، والظفر لمن بقي " (٣) .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ١٦١/٢ .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ٤٠/٧ ، ٤١ .

(٣) تاريخ الطبري ٥٢٠/٣ .

وطلب رستم مهلة طويلة للمشاورة ثم ذهب إليه المغيرة بن شعبة ليعرف ما انتهى إليه أمره فحاول أن يغريه ببعض متاع الدنيا ، لقاء انصرافهم عن الحرب فقال له المغيرة " أَبَعْدَ أَنْ أَوْهَنَّا ملككم ، وضعَّفْنا عزكم ... وستصيرون لنا عبيدا على رغمكم " [1] ولم يكن هناك مفر من اللقاء ، ولم يكن لدى أهل الإيمان شك في عاقبته ، وإن كثرت فيه التضحيات ، وكانت العاقبة هى النصر المبين للمؤمنين . ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

وهكذا كان الجهاد من أقوى عوامل القوة للأمة الإسلامية ، وكان سلاحا من أمضي أسلحتها ، وظل يحملها – بفضل الله وعونه – من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح إلى أن دانت لهم البلاد شرقا وغربا ، ورفرفت راية الإسلام خفاقة في العالمين .

على أن من المهم الإشارة – هنا – إلى أن تلك المكانة الكبري التى جعلها الإسلام للجهاد لم تكن تعني أن الجهاد هو الوسيلة الوحيدة لنشر الإسلام أو إبلاغه إلى الناس ، كما أنها لا تعني أن الجهاد كان وسيلة لإكراه الناس على الدخول في الإسلام ،أو قهرهم على اعتناقه ، كما يدَّعى ذلك بعض الدارسين للإسلام من المستشرقين أو من غيرهم .

فلقد كانت الدعوة إلى الإسلام بالكلمة هى الوسيلة الأولي التى بدأت بها هذه الدعوة ، وقد جمع الرسول ﷺ الناس – منذ بدء رسالته في مكة – وخطبهم ، ودعاهم إلى الله ، وذهب إليهم في مجالسهم ومواطن اجتماعهم ، وخرج إلى الطائف داعيا ، والتقي بالقادمين من المدينة . وكان سلاحه الوحيد في هذا كله ، وطوال الفترة المكية ، وفي أوائل عهده بالمدينة هى كلمة الحق التى أمره الله تعالى أن يصدع بها . وقد كتب بها إلى الملوك والحكام في عصره كعنصر وكسري والمقوقس والنجاشي وغيرهم .

---

(١) البداية والنهاية ٤٠،٤١/٧ .

وقد انتشر الإسلام في المدينة المنورة التي هي قاعدة الإسلام ، والعاصمة الأولى له في طريق الدعوة التى حملها إليها مصعب بن عمير وبعض معاونيه ، وفي ذلك يقول ابن قيم الجوزية ان مدينة النبي ﷺ " إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف " (*) وكذلك فتحت اليمن في عهده ﷺ ودخلها الإسلام صلْحًا ، لا حربا .

وعندما ذهب الرسول إلى المدينة ووجد بها ومن حولها طوائف من اليهود لم يكرههم على الإسلام ، بل عقد معهم معاهدة المدينة التى جاء في نصوصها ما يؤكد حرية هؤلاء في البقاء على ما هم عليه من دين ، دون منازعة لهم فيما يعتقدون ، أو إجبار لهم على تركه ، وقد جاء نصاري نجران إلى المدينة لمجادلة الرسول ﷺ فيما خالفهم فيه الإسلام من أصول عقائدهم ، فأذن لهم الرسول أن يقيموا بمسجده ، كما أذن لهم أن يؤدوا صلواتهم فيه ، ثم جادلهم بالبرهان الناصع والحجة البينة ، كما تدل على ذلك الآيات من أوائل سورة آل عمران (الآية ٥٨ وما بعدها) وانتهى أمر المجادلة إلى أن يقبل منهم الرسول ﷺ البقاء على دينهم ، مع إرساله أحد أصحابه ليكون حكما فيما بينهم بناءً على طلبهم.

وتدلنا هذه الشواهد الكثيرة على سماحه الإسلام في نظرته إلى الآخرين ممن لم يؤمنوا به ، ويتأكد هذا الموقف بعدد من المبادئ والأصول الهامة ، ومن بينها :

* أن من أصول الإسلام أنه ، لا إكراه من الدين . وقد تقرر هذا الأصل في آية قرآنية يقول الله تعالى فيها : ﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ ﴾ (البقرة : ٢٥٦) وهذا نص عام محكم ليس بمنسوخ ولا مخصوص ، فلا حاجة للإكراه على الدين بعد أن ظهرت الدلائل ،

(*) زاد المعاد في هدى خير العباد ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، دون تاريخ ج ٤٨/١ .

ووضحت البينات ، وهذا ما قاله المفسرون المحققون كـالطبري والـرازى وابن كثير وأبي حيـان وأمثـالهم . وقـد عبَّـر ابـن تيميـة عـن ذلـك قائلاً : " جمهور السلف على أن الآية ليست بمنسوخة ولا مخصوصة ، وإنما النص عام ، فلا نكره أحدا على الدين ... ولا يقدر أحـد قـط أن ينقـل أن رسول الله ﷺ أكره أحدا على الإسـلام ، لا ممتنعـا ولا مقـدورا عليـه . ولا فائدة من إسلام مثل هذا ، لكن من أسلم قُبِل منه ظـاهر الإسـلام " ثـم أضاف ابن تيمية ، أنه من الثابـت المقـرر أن النبـي ﷺ قـد أسـر مـن المشركين ، فمنهم من فداه ، ومنهم من أطلق سراحه ، ولم يُكْرِه أحدا علـى الإسلام ... والقرآن خيَّر المسلمين – حين يثخنون في الأعداء – بين المـنّ على الأسري أو الفداء " (*).

ولا إكراه – إذن – في الدين . وهذا ما يؤكده بعض الباحثين المنصفين من غير المسلمين الذين يشهدون بأنه لا يوجد في تاريخ المسلمين إكراه على الدين ، بل إن التسامح هو الطابع العام لعلاقة المسلمين بغيـرهم ، ويسـتدل هؤلاء بأن وجود كثيرين جدا من الفرق والجماعات المسيحية وغيرهـا فـي الأقطار التى ظلت قرونا في ظل الحكم الإسلامي لدليل ثابـت علـى ذلـك التسامح الذى نعم به هؤلاء (**) .

* يؤمن الإسلام بعالمية رسالته ، ولكنه يبين أنه سيكون من الناس من لا يستجيب لدعوته ، وسيتسع العالم لمن يؤمنون بديانات أخرى ، بل سيتسع

(*) انظر لهذه الفكرة : د / وهبة الزحيلي : العلاقات الدولية فـي الإسـلام ، مقارنـة بالقانون الدولي الحديث ، مؤسسة الرسـالة ، بيـروت ط١ / ١٩٨١ ص ١٤ ، ١٥ والمصادر المذكورة بها .

(**) انظر : الدعوة إلى الإسلام ، سير توماس ارنولد ، ترجمـة د / حسـين إبـراهيم حسن وآخرين ، مكتبة النهضة المصـرية ط٣ / ١٩٧٠ ص ٤٦١ ، ٤٦٢ ومـا بعدهما .

لمن لا يؤمنون بدين أصلا . ومما يدل على ذلك قولــه الله تعــالى : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَـبِيلِ اللّــهِ ﴾ (الأنعــام : ١١٦) وقوله : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف : ١٠٣) .

وقد دعا الإسلام أتباع الأديان السابقة إلى الدخول فيه ولكنه لم يكــرههم على ذلك ، بل إنه جعل في تشريعه ما يتناسب مع استمرارهم على دياناتهم ، وكان من تشريعه أنه أحلّ أكل طعامهم ، وأباح للمسلمين أن يتزوجوا مــنهم (انظر الآية الخامسة من سورة المائدة) وحرَّم العدوان عليهم وفــي ذلــك يقول الرسول ﷺ : من قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله لم يــرح رائحــة الجنة ، وريحها من مسيرة سبعين عاما " (*) وقد نهي الإسلام عن جــدالهم إلا بالتي هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم (انظــر : العنكبــوت ٤٦) كمــا دعاهم إلى كلمة سواء يتفقون فيها مع المسلمين علــى توحيــد الله وحــده ، وعبادته دون سواه ، وألا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله (انظــر آل عمران : ٦٤) .

بل إنه دعا إلى برِّهم والإقساط إليهم ، إذا لم يحــاربوا المســلمين ولــم يفتنوهم عن دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم (انظر : الممتحنة ٨ ، ٩) .

*وإذا كان الإسلام قد شرع الجهاد بوصفه وسيلة مــن وســائل نشــر الدعوة وإبلاغها إلى الناس فقد ظل للدعوة بالكلمة والتعريف والإعلام دورها الفعال قبل تشريع الجهاد وأثناءه وبعده ، بل كان من آداب تشريع الجهــاد أن يبدأ المسلمون بعرض الإسلام على خصومهم من المحاربين قبل بدء القتال ، وقد كان من هدى الرسول ﷺ أنه كان – إذا بعث أميرا على سرية أو جــيش – يوصيه بتقوى الله في خاصة نفسه ، وبمن معه من المسلمين خيرا ثم يقول

(*) سنن ابن ماجه ، كتاب الديات ، باب مــن قتــل معاهــدا ٨٩٦/٢ وفــي البــاب . أحاديث أخري ، وفي الباب الذى بعده ، وارجع الى مسند أحمد ١٨٦/٢ ، ٢٣٧/٤ ، ٣٦٩/٥ ، ٤٧٤ .

" إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ... فأيتها أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم : ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... " (*) وهكذا يظل للكلمة دورها الفعال ، في نشر الإسلام ؛ لما لها من قدرة على مخاطبة العقل وإقناعه ، ودفع ما قد يتراءى له من شبهات ، ويعبر ابن حزم عن ذلك تعبيرا قويا فيما ذكره من أن الحجة الصحيحة أقوى في مواجهة الأعداء من السلاح الشاكي والأعداء الكثيرة ، لأن الأعداء قد تهزم ، أما الحجة فلا تهزم أبدا " (**)

وبهذا تتكامل وسائل نشر الدعوة ، فالكلمة في موضعها ، والجهاد في موضعه ، وهو – في الإسلام – مقرون بآداب ووصايا وتشريعات إنسانية وأخلاقية ليس لها نظير . وقد كان من وصايا رسول الله ﷺ للمجاهدين : اغزوا باسم الله ، وفي سبيل الله ، اغزوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليدا "

وقوله : " انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله ،ولا تقتلوا شيخا فانيا ، ولا طفلا ولا صغيرا ، ولا امرأة ، ولا تغلوا ، وضموا غنائكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين " (***)

وليس الجهاد – إذن – تخريبا ولا ظلما ولا عدوانا كما يدَّعي ذلك بعض الباحثين من غير المنصفين ، في القديم وفي الحديث .

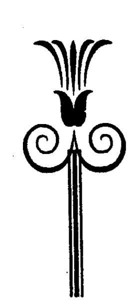
(*) سنن أبي داود ، طبعة الشيخ محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، كتاب الجهاد ، باب في دعاء المشركين ٣٧/٣ وانظر وصية الرسول ﷺ لعلى بن أبي طالب رضي الله عنه في غزوة خيبر ، في صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة خيبر ٦٧/٥ ، ٧٧ .

(**) ابن حزم : الإحكام في أصول الأحكام ، نشرة د / إحسان عباس ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت طبعة ١٩٨٣ مجلد ١ ج١ ص ٢٠ .

(***) سنن أبي داود ، في الموضع السابق ٣٧/٣ ، ٣٨ .

وهكذا تجتمع عوامل الإيمان والدعوة والعلم والجهاد لتكون من عوامل قوة الأمة الإسلامية ونهضتها ، حتى أصبحت من أكثر الأمم ازدهارا وحضارة ، وأصبحت موئل العلم والفكر إلى أن بدأت تخضع – من بعض جوانب حياتها لما خضعت له الأمم والحضارات – من قبلها ومن بعدها – من ضعف وتراجع ، وهذا هو ما سنتناوله بشئ من البيان في القسم التالي .

۞ ۞ ۞



القسم الثانى

عوامل الضعف فى حياة الأمة الإسلامية

من عوامل ضعف الأمة الإسلامية

إلى مشارف العصر الحديث

تمهيد :

شهدت ألأمة الإسلامية – في القرون الأخيرة – حالة ظاهرة من الضعف . تختلف اختلافا كبيرا عما كانت عليه في عصورها الأولى. ولا ينحصر هذا الضعف في جانب واحد من جوانب الحياة فيها . بل إنه ضعف عام وشامل لسائر الجوانب فيها : سياسية وعسكرية واقتصادية وفكرية وعلمية .

أ- ولم يكن هذا الضعف مفاجئا ولا وليد لحظة أو حقبة صغيرة من التاريخ ، ولكنه ضعف بدأ صغيرا ثم نما على مدار السنين ، حتى قاوم عوامل القوة التى كانت مستكنّة في حياة الأمة ، وغالبها حتى غلبها .

ب- ولم يكن هذا الضعف – كذلك – ثمرة عامل واحد أو قصور في جانب من الجوانب فقط ، بل إنه ثمرة لتفاعل عوامل كثيرة متداخلة كان كل منها يسهم – بقدر – في إنهاك وإضعاف هذه الأمة حتى خَرَّت على أقدامها توشك أن تلقى هزيمة كاملة ، وموتا محققا ، لولا بقية من حياة وبصيص من أمل ، ويحاول المصلحون فيها أن يتخذوا منه نقطه انطلاق لحياة جديدة وبعث جديد .

ويمكن القول – بصفة عامة – إن عوامل الضعف التى سنتحدث عنها كانت عكس ما تحدثنا عنه – من قبل – من عوامل القوة ، كما أن من الممكن أن نقسمها إلى قسمين : عوامل داخلية وعوامل خارجية ، ونقصد بالعوامل الداخلية ما يرجع إلى أسباب تتعلق بالمجتمع الإسلامى ذاته ، فهى نابعة من داخله ، وليست موجهة إليه من خارجه، ونقصد بالعوامل الخارجية ما كان موجها إلى المجتمع الإسلامى من خارجه .

ونود أن نلفت النظر إلى أن هذه العوامل متداخلة ،وليس الفصل بينهـا حاسما ، فقد كانت العلاقة بينها – في بعض الأحيان – تشبه علاقـة السـبب بالنتيجة ، وعلى سبيل المثال كان ضعف روح الجهاد التى سادت في عصور كثيرة سابقة ، عاملا من عوامل استعمار العالم الاسـلامى ، وكـان تخلـف الحركة العلمية التى تحدثنا عنها – قبل قليل – سببا في قلة إسهام المسـلمين في حركة العلم العالمية واضطرار المسلمين إلى استيراد وسـائل الحضـارة المادية من الغرب المتقدم ، ثم اضطرارهم – تبعا لذلك – إلى الوقـوع فـي أسر التبعية الفكرية التى وقعت فيها ودعت إليها بعض الفئات فـي المجتمـع الاسلامى .

ويستخلص من هذا المثال أن عوامل القوة كانت تمنح المسلمين حصانة تجعلهم أقوياء على مواجهة عوامل الضعف التى تُصَدَّرُ إليهم، وأن ضـعفهم يجعلهم أشبه بالثمرة الجافة المهيأة للسقوط.

على أن الأمر لم يكن في كل الأحوال راجعا إلى ضعف فيهم بل إنه – أحيانًا – كان ثمرة لعنصر خارجي : مادى أو فكرى ، وعلى سـبيل المثـال كانت الحروب المستمرة الموجهة إلى العالم الاسلامى مـن أقـوى عوامـل ضعفه وإنهاك قوته ، ويكفى أن نتذكر هنا الحروب الصـليبية التـى دامـت قرنين من الزمان ، وحروب التتار التى كانت كالسيل العرم الذى اجتاح مـا واجهه من الدول حتى وصل إلى قلب الخلافة الاسلامية وأسقط بغداد ، ثـم الحروب التى قامت بها أوربا لإخراج المسلمين من الأندلس ، ثـم للقضـاء على الدولة العثمانية التى كانت مصدر تهديد لأوروبا، وهى حروب طويلـة ممتدة منهكة . ومن شأنها – خاصة مع فداحة الخسائر فيها – أن تؤدى إلـى الضعف والفقر والخمود .

وقد كان لها – إلى جانب الآثار العسكرية والسياسـية والاقتصـادية – آثار تتعلق بالفكر والعلم ، لأن ما قام به التتار من إحـراق مكتبـات بغـداد

وإغراق كتبها كان له تأثير غير قليل في ضعف الحركة الفكرية عند المسلمين ، ومن الممكن أن نضيف إلى ذلك ما حدث في الأندلس الإسلامية من إحراق متكرر للكتب العربية الإسلامية التى كانت تبلغ الملايين من المخطوطات ، وأدى ذلك إلى تدميرها واستئصالها على النحو الذى يحدثنا به بعض مؤرخى الحضارة من الأسبان أنفسهم (١) ولا شك أن إحراق هذه الكتب قد أفقد المسلمين ثروة هائلة من الخبرة والمعرفة الإنسانية في منطقة ذات صلة وثيقة بأوروبا ، ومن شأن ذلك أن يكون له تأثير في حركة الفكر عند المسلمين .

وهكذا تداخلت هذه العوامل الداخلية والخارجية وتفاعلت وأثرت وتأثرت ، وكانت حصيلتها تلك الحالة التى وصل إليها العام الإسلامى في قرونه الأخيرة .

أولا : العوامل الداخلية :

ويمكن أن نشير إلى أهم العوامل الداخلية فيما يلى :

١ - كان من أهم أسباب القوة في المجتمع المسلم - كما - سبق القول - أنه كان مجتمعا يقوم على تقديم الولاء للعقيدة على ما سواء من أنواع الولاء ، وكان هذا الموقف مرتبطا بما للقرآن الكريم والسنة النبوية - فى نفوسهم - من تعظيم وهيبة واجلال ، وهى مشاعر كانت تجعل لهما الصدارة والأولوية والتقديم على ما سواهما مما يمكن أن يكون مصدرا للعلم أو وسيلة إليه ، وبخاصة في الأمور التى كان لهما هدى أو تشريع أو توجيه

---

(١) انظر : خوليان ريبيرا : التربة الإسلامية : أصولها المشرقية ، وتأثيراتها الغربية ، ترجمة د/ الطاهر مكى ، طبع دار المعارف ١٩٨١ ص١٧٨ - ١٨١ ، ٢٥١ - ٢٥٤ .

فيها (*) ، وقد كان من مظاهر حرصهم عليهما أنهم كـانوا يتنـاوبون فـي الذهاب إلى الرسول ﷺ حتى لا يفوتهم شئ من العلم بهما (١). وكـان مـن المظاهر - كذلك - أنهم كانوا يتورعون عن القول فيهما بغير علم حتى ولو كان تفسير آية أو كلمة في آية (٢) ولم يكن يُتَصَوَّر - والامر كذلك - أن تقـع منهم معارضة لهما برأى أو هوى ؛لأن موقفهم منهمـا كـان هـو الايمـان والتسليم ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِـدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (الأحزاب : ٣٦) ، وكان هذا الايمان والتسليم يعـود عليهم باليقين والسكينة ، ويجدد في قلوبهم الطاعة لأمر الله ورسوله : علمـا وعملا ، وخلقا وجهادا ، وقوة واتحادا. إى انه كان يؤدى الى قـوتهم وقـوة أمتهم .

لكن تلك المكانة التى كانت للقرآن والسنة لم تظل على حالها - دائما - بل إنها قد تزحزحت عنها عند بعض الطوائف التى ظهـرت فـي المجتمـع

(*) ليس يعنى ذلك أهدارًا للعقل ودوره في المعرفه ، فللعقل دوره - الذى لا ينكره عليه الشرع - في اكتساب المعرفة وتحصيلها والقيام بما تتطلبه من نشاط عقلى يقوم على الاستقراء والاستقصاء والتحليل والتركيب والاستنباط ، ونقد المعرفة والأخبار الـى غير ذلك من أوجه النشاط العقلى . ولكن هذا الدور ليس مطلقا بلا حدود بل إن لـه حدودًا تتعلق بعالم الغيب الذى لا يستطيع العقل معرفة الحق فيه ، ومن ثم يحتاج إلى الوحى الذى يهديه إلى ما لا يستطيع ادراكه . وبذلك يجتمع للعقل المسلم مصـدران متكاملان للمعرفة وليس مصدرا واحدا ، كما شأن غير المؤمنين

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب التناوب في العلم ٢٨/١.

(٢) انظر : تفسير ابن كثير ، طبعـة الشـعب ٣٤٨/٨ فـي تفسـير الآيـة : ٣١ مـن سورة عبس .

الإسلامى لأسباب سياسية أو أسباب فكرية ترجع إلى اختلاف المناهج في فهم الدين ، ، سواء في ذلك ما يتعلق بالعقيدة أو باستنباط الأحكام ، وكان هذا التراجع يرتبط – في أكثر الأحيان – بالتأثر بمناهج أو تيارات أجنبية .

ويمكن أن نشير – في إيجاز – إلى نماذج من هذا التراجع ، الذى بدا واضحا في بعض مجالات الفكر عند المسلمين .

أ- ففى الفلسفة مثلا ظهرت آراء الفارابي(٣٣٩هـ) في النبوة ، وهى تؤدى إلى تفضيل الفيلسوف على النبى ، وتقديم العقل على الوحى ، لأن فكر الفيلسوف ثمرة لفيض العقل الفعال على عقله ، أما الوحى فهو ثمرة لفيض العقل الفعال على القوة الخيالية لدى الأنبياء ، ولا شك أن الجانب العقلى أعلى وأسمى من قوة الخيال (*) .

وفي الفلسفة – كذلك – ظهر الاتجاه إلى تقديم العقل على النقل ،واخضاع النصوص الشرعية للتأويل الذى يؤدى – في مواطن كثيرة – إلى إنكار ظواهرها ، وينطبق ذلك – مثلا – على حديث ابن سينا في بعض رسائله – التى كتبها للخاصة – عن عقيدة البعث والمعاد ، حيث انتهى إلى أن المعاد روحانى ، وان النعيم أو العذاب معنوى ، وأنه لا مجال للحديث عن نعيم حِسّىأو عذاب حسى ، وقد دفعه ذلك إلى تأويل النصوص الشرعية المتعلقة بهذا النوع من الثواب أو العقاب ، بل إنه ذهب إلى أن ظاهر الشرع ليس حُجَّة في هذا الباب ؛ لأن الأمور الواردة فيه عن الثواب والعقاب يلزم عنها – إذا بقيت على ظواهرها – أمور محالة أو شنيعة ، ومن

(*) كان هذا من أسباب الهجوم على الفارابي حتى من بعض الفلاسفة كابن طفيل كماجاء في قصته حى بن يقظان انظر مثلا ص ٥٧ وكان من أسباب الهجوم عليه أن رأيه هنا يؤدى إلى القول بأن النبوة مكتسبة بالفكر والتأمل والمجاهدة وليست اصطفاء من الله تعالى ، انظر دراسة مفصلة لآرائه في النبوة في كتاب الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور : في الفسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ٦٨/١ – ١١٨ طبع دار المعارف .

ثم يجب أن تؤخذ على أنها تشبيهات أو أمور مجازية لتقريب الأمر على العقول ، وخاصة عقول البدو والأعراب الذين نزل عليهم القرآن ، والذين لم يكن بامكانهم فهم الجزاء المعنوى المجرد من علائق المادة والحسيات. وقد وصل به الأمر إلى إن قال أن الأنبياء قد أخبروا عن الله وملائكته واليوم الآخر بما لا حقيقة له في نفسه ، وقد فعلوا ذلك بغرض أن يَفهَمَ العوام أقوالهم ، لأن من المصلحة أن يخاطبَ هؤلاء بما يفهمون ، لأن دعوتهم غير ممكنة إلا بهذه الطريقة ، فكأنَّ الأمر لم يكن إلا نوعا من التحايل الذى لا حقيقة وراءه ، وهو تحايل مقبول – من وجهه نظرة – لأن المقصود به مصلحة هؤلاء العوام وجذْبُهم الى مجال الايمان [1] وقد كان لهذا الرأى رد فعل مضاد عند المفكرين الاسلاميين الذين وصفوا ابن سينا بالكفر بسبب رأيه هذا وآراء أخرى ، وظهر ذلك – مثلا – لدى الغزالى في تهافت الفلاسفة ، ولدى ابن تيمية في بعض كتبه [2] .

ب–ولم ينج علم الكلام – الذى نشأ أصلا للدفاع عن العقيدة الاسلامية ضد خصومها – من ترديد لفكرة تقديم العقل على النقل التى قال بها الفارابي وابن سينا ، وظهر هذا الاتجاه لدى المعتزلة وكثير من متأخرى الأشاعرة ، وكان من أهم من دافعوا عن هذا الاتجاه – من الأشاعرة – فخر الدين

---

(١) انظر : رسالة أضحوية في أمر المعاد لابن سينا ، تحقيق د/ سليمان دنيا ، دار الفكر العربي ، ط ١٩٤٩/١ ص ٢٥ وما بعدها .

(٢) انظر : تهافت الفلاسفة للإمام الغزالي ، تحقيق د / سليمان دنيا ، دار المعارف ، ط٢ / ١٩٥٥ ص ٢٦٨ وما بعدها ، ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، تحقيق د/ محمد رشاد سالم ، طبع الرياض ط ١ / ١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ ، ١/٨–١١ ، وقارن كتاب الهداية لابن سينا تحقيق د/ محمد إسماعيل عبده ، مكتبة القاهرة الحديثة ط٢/ ١٩٧٠ ص ٣٠٨ – ٣١١ حيث لا يتفق المحقق مع رأي الغزالي في تكفير ابن سينا ، مستندإلى نصوص أخرى لابن سينا .

الرازى الذى ذكر أن من الممكن أن يقع التعارض بين العقـل والنقـل (*) ، وأنه لا بد – عندئذ – من تقديم العقل على النقل ، لأن العقل هو أساس قبول الشرع ، وأن تقديم الشرع أو النقل عليه ، يؤدى إلى الطعن في العقل وفـي الشرع جميعا ، ويقول الرازى إن النصوص الشرعية تنقسم إلى قسـمين : نصوص قطعية الثبوت ، وهذه يمكن تأويلها لتتفـق مـع الأدلـة العقليـة ، أو يمكن السكوت عنها وتفويض العلم بها إلى الله تعـالى ، أمـا النصـوص الأخرى التى ليست قطعية الثبوت كأحاديث الآحـاد مثلا فإنه لا مانع مـن رفضهـا إذا تعارضت مع الأدلة العقلية (١) .

ولقد تضاءل – تَبَعًا لذلك – دور النصوص الشرعية في نصرة العقيـدة عند علماء الكلام ، مع أن النصوص الشرعية هى صاحبة الاختصاص فـي هذا الشأن ، لأنها كلام الله تعالى ، وكلام رسوله ﷺ ، وهما مصدر العقيـدة ومرجعها ، ولذلك كانا هما الأولى في الاعتماد عليهما ، خاصة وأن الأدلـة الشرعية أكثر وضوحا ، وأيسر فهما ، وأوثق حجة ، وأدعى إلـى تحصـيل اليقين ، ولكن علماء الكلام قلَّ اعتمادهم عليها ، واستعانتهم بهـا ، حتـى إن من كتبهم ما يكاد يخلو منها ، فالآيات قليلة ، والأحاديث نادرة ، ثـم إن مـا يساق في هذه الكتب منهما قد يساق للاستئناس لا للاسـتنباط والاسـتدلال ، فالفكرة تتقرَّر سَلَفا ، ثم تأتي الآيات والأحاديث لتأييدها ، والأصل أن تكـون النصوص الشرعية هى مصدر الدليل وأساسه لا أن تكون ظلاً له ، وترتَّـب

(*) ينبغى أن يكون معلوما أن التعارض لا يقع بين النصـوص الشـرعية الصـحيحة والعقل الصحيح ، وأنه إذا كانت النصوص صحيحة ، وفهمها صحيحا ، وكـان رأىُ العقل صحيحا فلا مجال للتعارض كما أوضح ابن تيمية ، في كتابه : درء تعـارض العقل والنقل .

(١) انظر : فخر الدين الرازي : أسـاس التقـديس ، طبـع الحلبـي ١٩٣٥ ص ١٧٢، ١٧٣ .

على ذلك – عندهم – أن النصوص إذا تعارضت مع أصولهم تأولوا النصوص تتقمعها . وهذا أمر يدعو إلى الغرابة بل إلى الاستنكار .

ج-وإذا كان الأمر – على هذا النحو – فى علم الكلام فإن الأمر يزداد غرابة عند بعض الفقهاء الذين يقوم عملهم على استنباط الأحكام من النصوص الشرعية أو ما يتأسس عليها: إجماعا وقياسا ، وقد صرح الأئمة المجتهدون بضرورة عرض اجتهادهم على الكتاب والسنة ، فإن وَجِد في آرائهم ما يخالفهما فقد صرحوا بأنه لا قيمة له ، وأنه يستحق أن يضرب به عُرضَ الحائط ، وقال بعضهم : إذا صح الحديث فهو مذهبي ، وقال الاخر: إذا وجدتمونى أخالف الحديث مع علمى به فاعلموا أنى قد جُننت . (١)

وعلى الرعم من ذلك وجدنا بعض الفقهاء يبلغ به التعصب لمذهبه إلى الحد الذى يقدمه على النصوص الشرعية ونجد ذلك لدى أبي الحسن عبيد الله الكرخى من فقهاء الحنفية (ت ٣٤٠هـ) ، وقد ذكر في الأصل الثامن والعشرين من الأصول التى ينبنى مذهبه عليها " الأصل أن كل آية تخالف قول اصحبابنا فانها تَحْمَل على النسخ أو على الترجيح ، والأولَى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق " . (٢)

د-وإذا كان بعض من الفلاسفة وعلماء الكلام والفقهاء قد رجعوا بالقرآن والسنة عما كان لهما من الأولية والتقديم ، فإن بعض النحاة قد شاركوهم في ذلك ، فوجدنا من هؤلاء من يستخلص الحكم أو القاعدة النحوية مما ثبت لديه من شعر العرب ونثرهم. فإذا جاء في القرآن ما يخالف

---

(١) انظر : مجموعة فتاوى ابن تيمية ١٠/٢٠، ٢١١ ، وإعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية ، نشرة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ط١٩٧٧/٢ ج٢ /٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ١٦٧ ، ٢٧١ .

(٢) أصول الكرخي ، المطبعة الأدبية ط١ ص ٨٤ ، نقلاً عن : الفكر الأصولي ، د/ عبد الوهاب أبو سليمان ، دار الشروق ط١٩٨٤/٢ ص ١٢٢ .

هذا الحكم أو تلك القاعدة فإنه يلجأ إلى التأويل لكى يوافق الرأى الذى انتهى إليه ، وفي هذا من الجرأة على القرآن ما فيه ، لأن القرآن قد بلغ الغاية التى لا تدرك: بلاغة وفصاحة ونظما ، فإذا جاز إثبات اللغة كما يقول فخر الدين الرازى بشعر مجهول فإن إثباتها بالقرآن العظيم أولى [1] ، ولذلك استحق هؤلاء تقريع ابن حزم لهم حيث يقول " ولا عجب أعجب ممَّن إنْ وَجَد لا مرئ القيس أو لزهير أو لجرير أو الحطيئة أو لأعرابي ... لفظا في شعر أو نثر جعله في اللغة وَقَطع به ولم يعترض فيه ، ثم إذا وجَد لله تعالى خالق اللغات وأهلها كلاما لم يلتفت إليه ولا جعله حُجَّة ، وجعل يَصْرفه عن وَجْهِه ، ويتحيَّل في إحالته عَمَّا أوقعه الله عليه " . [2]

وإذا كان هذا هو موقفهم مع القرآن الكريم الثابت بالتواتر جيلا بعد جيل فإنهم اتخذوا الموقف نفسه – من باب أولى – مع الحديث الشريف حيث جرى جمهورهم على عدم الاحتجاج به في تقرير أحكام اللغة العربية لأسباب متعددة، منها روايته بالمعنى ، ووجود بعض المولدين من غير العرب ضمن الرواة [3] ، وقد فات هؤلاء أن الحديث قد بُدِئَ في تدوينه منذ عهد الرسول ﷺ ، وأن كثيرا منه قد دون قبل منتصف القرن الثاني للهجرة ، وهى الفترة التى حددها النحويون واللغويون لعصر الاحتجاج .ويمكن القول بأن تدوين السنة كان سابقا على تدوين الشعر لأن الحاجة إلى الحديث في استنباط الأحكام أسبق من الحاجة إلى الشعر لاستخلاص القواعد النحوية .وقد فاتهم كذلك أن الرواية بالمعنى لم تكن مقبولة عند كل المحدثين لأن بعضهم كان يرفض الأخذ عمن عرف عنه أنه يروى بالمعنى ، وقد ذكر الخطيب

---

(١) انظر : القياس في اللغة العربية ،للشيخ محمد الخضر حسين طبع المكتبة السلفية ١٣٥٣ هـ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) السابق: نفس الصفحات.

(٣) السابق : ٣٢ ، ٣٣ .

البغدادى أن كثيرا من السلف وأهل التحرى في الحديث قالوا إنــه لا تجــوز الرواية على المعنى ، بل يجب تأدية اللفظ بعينه ، من غير تقديم ولا تــأخير ولا زيادة ولا حذف ، ولم يفرقوا في ها الحكم بين العــالم بمعنــى الكــلام وموضوعه وما ينوب بعضه مناب بعض ، وما لا ينوب منابه ، وبين غيــر العالم بذلك .وقد ذهب بعضهم إلى أنه لا يجوز إبدال كلمة بكلمــة،ولا تقــديم كلمة على كلمة ولا زيادة حرف واحد ولا نقصانه وإن كان لا يغير المعنــى. وكان منهم من يقول: كان هذا العلم عند أقوام كان أحــدهم لأنْ يَخِــرَّ مــن السماء أحب إليه من أن يزيد فيه واوا أو ألفا أو دالا ، بل كــان بعضــهم لا يجيز تخفيف حرف مثقّل أو تثقيل حرف مخفف وإن كــان المعنــى واحــدا وهكذا [1] .

وقد أجاز بعض العلماء بل كثير منهم الرواية بالمعنى، ولكنهم وضعوا من الشروط والضوابط ما يكاد يلغيها من الناحية العلمية ، ومن الشــروط أن يَعْلم الراوى المعنى وأن يتحققّه، وأن يعرف معانى الألفاظ وما يقــوم منهــا مقام غيره وما لا يقوم ، وإن يكون عالما بمواقع الخطاب ، وألا يكــون مــا يأتى به من الالفاظ زائدا في معناه على لفظ الحــديث ولا ناقصــا عنــه ولا محتملا لمعنًى أكثر من معناه ، وأن يكون الســامع للفــظ النبــي ﷺ عالمــا بموضوع ذلك اللفظ في اللسان العربي ، وبأن رسول الله يريد بــه مــا هــو موضوع له ، فإن كان في اللفظ مجاز أو استعارة فإنــه لا يجــوز روايتــه بالمعنى خشية الخطأ فيه ، بل يجب نقله بلفظــه . ثــم إذا جــاءت الروايــة بالمعنى فيجب أن يشير إلى ذلك بما يدل علــى روايتــه بــالمعنى [2] وقــال

---

(١) انظر : الكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ، تصوير المكتبة العلميــة بالمدينــة المنورة ، عن طبعة حيدر أباد الدكن ص : ١٧١- ١٨١ ثم ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) السابق : ١٩٨ ، ١٩٩ ثم ٢٠٣- ٢١١ . وانظر : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث ، للحافظ ابن كثير ، دار الفكر ، بيروت ، د . ت ص ٧٤ .

أصحاب هذا الرأى إن الرواية بالمعنى جائزة بهذه الشروط إذا كان الـراوى يروى من حفظه، فأما إذا كان يروى من كتـاب فـلا تصـح لـه الروايـة بالمعنى [1] ثم قد فاتهم – بعد هذا كله – أن الحديث دين، وأن مـن يرويـه مطالب بأن يرويه على وجهه وكما سمعه حتى ينال بركة دعوة الرسـول ﷺ لمن سمع منه كلمة أو حديثا فرواها كما سمعها ، ثم حتى يبرأ مـن الكـذب الذى يؤدى بصاحبه إلى النار، وعلى الرغم من هذا كله لم يَنَل الحديث حَظّه من الاستشهاد به عند جمهرة النحاة [2] شأنهم في ذلـك شـأن إمثـالهم مـن الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء الذين لم يجعلوا للقرآن والسنة مكانهمـا الـذى ينبغي لهما من التقديم [*].

وإذا كانت الأمة الإسلامية – في أصل نشأتها – قد قامت على الدين فإن زحزحة مصادر هذا الدين عن مكان الصدارة تعنى إبعاد الأمة عـن أسـاس وجودها ، ومصدر قوتها ونهضتها ، ثم تعنى – كـذلك – أن تغيـب هـذه المصادر عما ينبغي أن يكون لها من حضور دائم أمـام الفكـر والضـمير والسلوك . وبذلك تُحْرِمُ النفس من استقبال ما يصدر عنهما من إشعاع يضئ عقل المؤمن وقلبه ، ويملأ حياته نورا وسكينة ، وإن للإيمان لنورا وسـكينة وأن كره الكارهون ولعلنا لا نستبق الحوادث إذا قلنا إن هذه الظـاهرة التـى

(١) جلال الدين السيوطي : تدريب الراوى ، في شرح تقريب النواوى ، تحقيـق الشـيخ عبد الوهاب عبد اللطيف ، دار إحياء السنة النبوية ، تصوير دار الكتـب العلميـة ، بيروت ط٢ / ١٩٧٩ ، ج٢ / ١٠٢ .

(٢) انظر : القياس في اللغة العربية ، مرجع سابق : ٣٢ – ٣٥ ، وكـذلك د/ إبـراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، الانجلو المصرية ط٣ / ١٩٦٥ ص ٤٩ – ٥١ .

(*) ويشاركهم فى ذلك طوائف أخرى الصوفية الذين قالوا بتقديم الذوق الصـوفى علـى النص الشرعى أو قالوا بتقديم الأولياء على الأنبياء ، وهكذا.

لاحظناها عند بعض العلماء والمفكرين فيما مضى قد وجدت شبيها لها فيما ظهر عند بعض المفكرين المحدثين الذين ذهبوا إلى الفصل بين الدين والحياة ، واستبعدوا أو استنكروا أن يحدث للأمة تقدم عن طريق الإسلام ، ودعوا إلى الانتماء والاتباع لحضارات أخرى ، وليس الشبه بين هؤلاء المحدثين وأولئك القدامى – ولو في بعض الجوانب – ببعيد ، وإن يكن المحدثون أشد جرأة وغرورا ،وأكثر بُعْدا واستعلاء ونفورا .

٢- كان من خصائص المجتمع الإسلامي – وخاصة في العهد الأول – أنه لم يكن هناك انفصال بين العلم والعمل ، ولا بين الاعتقاد والسلوك ، بل كان هناك تلازم بينهما عند الجمهور الأعظم منهم ، وكان من أوصافهم المسابقة إلى الخيرات ، والمسارعة فيها ، ويوضح هذا المسلك عندهم قول أبي عبد الرحمن السلمي : " حَدَّثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها (= يتركوها) حتى يعملوا بها يهل من العمل ، فتعلَّمنا القرآن والعملَ جميعا " [1] كما يوضحه قول أبي ذر رضي الله عنه " لَوْ وضعتم الصمصامة (= السيف) على هذه – وأشار إلى قفاه – ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي ﷺ قبل أن تجيزوا عليَّ لأنفذتها " [2]

وقد كان بعض الصحابة لا يكتفون بأداء ما أُمروا به ، بل يبتغون أن يزيدوا عليه ، ولكن الرسول ﷺ كان يترفق بهم ، ويوصيهم بالاعتدال ، وينهاهم عن الغلو ، ويبين لهم أنه جاء بالحنيفية السمحة وأنه لن يُشَادَّ الدين أحدُ إلا غلبه ، وأن الله إن طالبهم بحقه ، فإنه جعل عليهم حقوقا أخرى ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١٣/١ .

(٢) صحيح البخاري : كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل ٢٣/١.

فَلِلبَدنِ حقٌ ، وللأهل حق ، وللضيف حق ،وهكذا ، وقد جاءت في هذه المعاني أحاديث كثيرة . [1]

وقد كان لهذا التلازم بين الإيمان والعمل أثره الحاسم في قوة الأمة ، وتماسك بنيانها ، وظهور خصائصها المميزة لها عن سواها من الامم . وقد حققوا بذلك شرطا من الشروط التى تقوم عليها الحضارات لأن " حضارة من الحضارات لا تنشأ عن مجرد الوجود الذهنى والنظرى لتصوراتها الأساسية ، بل تنشأ عن السلوك العملى التابع لها ، وبه تنمو وتزكو ، ولئن انعدم هذا السلوك العملى ماتت الحضارة موتا طبيعيا ، ولم يمكن أن يبقى وجودها النظرى إلى بعيد " [2].

ثم حدث الانفصال القاتل بين العلم والعمل ، وبين المبادئ والتطبيق ، واتخذ هذا الفصل شكلا مذهبيا ، أى أنه وجد من يدعون إليه ، ويقيمون له الأدلة ، ويساندونه بالبرهان ، وبدا وَكَأنهَّم يدعون الناس إلى تأصيل تلك القطيعة بين الإيمان والعمل ، وكان لفرقة المرجئة أكبر نصيب في هذا المجال .

والمرجئة فرق : منها فرقة تقول إن الإيمان هو مجرد تصديق القلب وعلمه ، ومن أصحاب هذا الرأى من يدخل في الإيمان أعمال القلوب كالمحبة لله والرضا بأمره والتوكل عليه ، والخشية له ونحو ذلك ، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان مجهم بن صفوان مؤسس فرقة الجهمية ، والفرقة الثانية

---

(١) انظر مثلا : صحيح البخاري : كتاب الإيمان ، باب الدين يسر ١٦/١ ، وكتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح ٢٣٧/٣ وصحيح مسلم : كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح ٥٤٩/٣ – ٥٥١ ، وجامع الأصول لابن الأثير ٢٠٥/١ ، ٢١٦ .

(٢) أبو الأعلى المودودي : نحن والحضارة الغربية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٩٨ .

تقول أن الإيمان هو مجرد نطق اللسان ، وهذا رأى فرقة الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستانى . [1]

وواضح أن أقول هؤلاء تُخْرِج العمل فلا تجعله جزءا من الإيمان، ولا ثمرة لازمة له ، ويترتب على رأيهم هذا نتائج غير مقبولة منها :

أ- أن رأيهم يخالف الآيات القرآنية الكثيرة التى جعلت الأعمال من الإيمان أو وصفا لأهل الايمان ،ومنها – مثلا – قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ ... الخ الآيات (المؤمنون : ١-١١)

- ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ... ﴾ (الأنفال : ٢ – ٤) .

وهذه الآيات وما أشبهها* تتضمن كثيرا من إعمال الإيمان بحيث لا يكون الإيمان صحيحا إلا بها .

---

(١) انظر : مجموع فتاوى ابن تيمية (كتاب الإيمان) ١٩٥/٧ وما بعدها . وقد ذهب بعض الأئمة إلى القول بأن الإيمان هو تصديق القلب ونطق اللسان ، ولم يجعل العمل ركناً من الأركان ، حذراً من الوقوع في رأي شبيه برأي الخوارج الذين كفروا مرتكب الكبيرة ، لكن هؤلاء الأئمة جعلوا العمل ثمرة لازمة للإيمان وشرطا ضروريا من شروطه. ولذلك قيل : إن الخلاف بين هذا الرأي ورأي أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول واعتقاد عمل هو خلاف لفظي .

(*) انظر مثلا الآية : ٦٢ من سورة النور ، والآية ١٥ من سورة الحجرات والآيات ٢ ، ٣ ، ١٧٧ من سورة البقرة ، والآيات ١٣٣ – ١٣٥ من سورة آل عمران والآيات ١٩-٢٢ من سورة الرعد ، إلى آيات أخرى كثيرة .

ثم إن رأيهم يخالف الأحاديث الصحيحة التى يرتبط العمل فيها بالإيمان ارتباطا وثيقا لا ينفصم، ولو رجعنا – على سبيل المثال – إلى كتاب الإيمان من صحيح البخارى فسنجد عددا كبيرا من الأحاديث التى توضح كثيرا من الأعمال التى تدخل في صميم الإسلام والإيمان. وقد ذكرها بعد أن ساق الحديث الذى يتحدث عن شعب الإيمان التى هى – بحسب روايته – بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة منها ، وقد ذكر بعد ذلك أنواعا كثيرة من الأعمال كاطعام الطعام ، وإلقاء السلام ، ومحبة المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ومحبته للرسول ﷺ وللأنصار ، ومحبته للناس في الله وكراهة العودة إلى الكفر بعد الدخول فى الإيمان وقيام ليلة القدر ، وصوم رمضان والصلاة والزكاة واتباع الجنائز والنصيحة لكل مسلم، إلى غير ذلك من الأعمال والأخلاق كالصدق في الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ونحوها . (١)

ب– أن مثل هذا الرأى الذى يهدر الأعمال الصالحة يأتى وكأنه يَدْفَعُ الناس إلى إهمالها ، ويجعلهم أكثر جرأة على التساهل والتفريط فيها ، فما دام مجردُ التصديق بالقلب أو نطق اللسان يدخلهم إلى الجنة وينجيهم من غضب الله وعذابه فما الذى يدفعهم إلى القيام بالإعمال وما فيها من مشقة وجهد ومصابرة؟! ولا شك أن شيوع مثل هذه الاقوال يجعل الإيمان دعوى بلا بينة ، ورمزا بلا مضمون ، كما يجعله كالشجرة العقيم التى لا فائدة فيها ولا ثمرة لها ، وليس هذا هو الإيمان الذى جاهد الرسول ﷺ لتثبيته فى القلوب واستحضاره في شئون الحياة والأخلاق ، ولكنه إيمان أهل الاهواء الذين لم يستطيعوا محاربة الإيمان وجها لوجه ، فلجأوا إلى الكيد والمراوغة ، فسهلوا للناس أمر المعاصى ، ويسروا لهم أبواب التقصير ، وعلموهم الحجج للجدال العقيم ،وأرادوا من وراء ذلك القضاء الفعلى على الإيمان بتحويله إلى شكل هزيل ، وصورة جوفاء لا مضمون لها ولا تأثير .

---

(١) راجع : صحيح البخاري : كتاب الإيمان ١/١٠-٢١ .

ومن أسف أن هذه الفكرة الخاطئة عن الإيمان ما تزال حية – بشكل أو بآخر – في المجتمعات الإسلامية المعاصرة ، وهي تؤدى دورها الخبيث في إضعافها ، وتوهين عروة استمساكها بدينها .وهى تبدو عندبعضهم في صورة دعوات إلى الإيمان بالدين عقيدة لا شريعة ، بحيث يُتْرك أمـر التشـريع – حتى فيما فيه نص – إلى الناس ، بدعوى التطور وملاءمة ظروف العصر ، وتبدو عند بعض آخر منهم في صورة الولاء لنوع من الاسلام بوصفه مجرد ثقافة أو حضارة ، وقد تُلْقَى المحاضرات ، وتعقد الندوات ، وتؤلـف الكتـب للحديث عن هذا الفهم للإسلام لكن هؤلاء لا يقلبون الإسـلام دينـا شـاملا يحكم– بتوجيهاته السمحه الشاملة – حياة الإنسان فردا وجماعة ، دينا ودنيا ، عبادة ومعاملات . بل إنهم يسخرون ويناوئون من يـدعو إلـى هـذا الفهـم الشامل للاسلام . ثم تبدو هذه الصورة الخاطئة للإيمان عند فريق من عـوام الناس الذين يهملون في أداء فرائض الله بـدعوى أن الله رب قلـوب ، وأن الدين أخلاق ومعاملة ، وهما كلمتا حق يتوصل الناس منهمـا إلـى تقصـير فاحش ، لأن الله رب قلوب فعلا ، ولكنها تلك القلوب الخاشعة المنيبـة التـى لا يسكن خوفها إلا بطاعته ، ولا يهدأ بالها إلا إذا تباعدت عن معصيته .

والدين – كذلك – أخلاق ومعاملة ، ولهما فيه أرفع مقـام ولكـن هـذا المقام، لا يتأتي إلا بعد إقامة الأصل ، الذى تتأسس الأخلاق والمعاملة عليه ، وهو أداء أعمال الإيمان التى شرعها الله تعالى ، وليست المعاملة معاملة مع الناس فحسب بل إنها معاملة مع الله أولا. فهذا هو الأصل الذى تتفرع عنـه سائر الفروع ، وليست معاملة الناس نفسها سبيلا من سـبل الطاعـة إلا إذا كانت على وفق ما شرع الله تعالى ، وهكذا كان الفصل بين الإيمان والعمل– وما يزال – عاملا من عوامل ضعف المسلمين فليس هناك جدال فى أهميـة المبادئ والقيم الأخلاقية ، ولكن الالتزام بها من الوجهـة العلميـة ضـعيف محدود ، ولا جدال حول أهمية احترام قيمة الوقت ، وإتقان العمل ، والحفاظ على النظام ، وأمثالها من القيم الإيجابية ، ولكن شـتان مـا بـين الاقتنـاع

الفقهاء بمقتضاه ، ويدعون ما سواه من الاجتهـادات كاجتهـاد أبـي حنيفـة والأوزاعى والثورى وابن عيينة وغيرهم من المجتهدين ، ولكن الإمام مالكا اعتذر عن ذلك قائلا : " يا أمير المـؤمنين : لا تفعـل ، فـإن النـاس قـد سبقت لهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، وعملوا به ، ودانوا به من اختلاف النـاس أصـحاب رسـول الله ﷺ وغيرهم ، وإنَّ ردَّهم عما اعتقدوه شديد . فدع الناس وما هم عليـه ، ومـا اختار كل بلد لأنفسهم " (١)

وقد بلغ إكبار هؤلاء الأئمة للحرية الفكرية أنهم نهـوا تلاميـذهم عـن تقليدهم ، ورُوِيتْ في ذلك أقوال عن أئمة الفقهاء ومنهم الامام أحمد الذى كان يقول : " لا تقلدنى ، ولا تقلد مالكا ولا الثورى ولا الأوزاعى ، وخـذ مـن حيث أخذوا " (٢) .

وأحدثت هذه الحرية أثرها في ازدهار الأفكار ، ونمو العلم ، وتمحيص الاراء ، والدفاع عنها بالحجة والبرهان ، فما دامت لا توجـد سـلطة تقهـر الناس على اتباع رأى معين ، فليس من سبيل أمام الفكر ليثبت وجوده إلا أن يتسلح بعوامل القوة الذاتية القائمة على قوة الحجة ونصاعة الدليل .

*وقام العلماء في مجال العلوم الطبيعية والرياضية – بعد الترجمـة – ببحوثهم وتجاربهم وملاحظاتهم ، لا يصدَّهم عنها شىء ، ولا يحـول بيـنهم وبينها حائل ، ولم يحسوا بقوة ضاغطة ، ولا سلطة قاهرة مثلما كـان يلقـى أمثالهم من العلماء – بعدهم بقرون – في ظل الحضارة الغربية ،التى كانـت تمثل الكنيسة فيها موقف السلطة الوحيدة التى تحتكر التفسير والتأويل ، وكان لا بد من موافقتها على النتائج العلمية التى يتوصل إليها العلماء ، فـإن لـم

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١٣٢/١ وانظر : حيلة الأولياء ٣٣١/٦ ، ٣٣٢ .

(٢) إعلام الموقعين ١٨١/٢ ، ١٨٢ وانظر الإحكام لابن حزم ١٨/٦ .

توافق عليها فليس في الإمكان نشرها أو إذاعتها ، بل إن على صـــاحبها أن يُعَدّلها أو يتراجع عنها وإلا كان نصيبه الاذى الشديد الذى كان يصل أحيانـــا إلى حد الإعدام حرقا (١) .

لكن هذا الموقف الذى ظل سائدا عدة قـــرون بـــين المســـلمين أصـــابه الضعف الذى أصاب جوانب كثيرة من حياة الامة الإســـلامية ، ويمكـــن أن نشير إلى أهم مظاهر هذا الضعف فيما يلى :

أولا : أن علم المسلمين الذى كان يتصف بالشـــمول للعلـــوم الشـــرعية والكونية والرياضية قد انحسر نطاقه ، وضاق مجاله فاصبح الجهد الاعظـــم متجها إلى الاهتمام بالعلوم الشرعية دون سواها ، وكان مـــن أســـباب هـــذا الانحسار والتضييق عوامل متعددة ،منها :

١- أن عصور الازدهار شهدت تشجيع الخلفـــاء والأمـــراء والحكـــام لهذه العلوم وكان العلماء يقومون ببعض البحوث أحيانا بتوجيه مـــن بعـــض الحكام . ويأتى الخليفة المأمون على رأس القائمين بتشجيع هـــؤلاء العلمـــاء. فقد استخدم جماعة من الفلكيين ليرصـــدوا الاجـــرام الســـماوية ، ويســـجلوا نتيجة هذه الأرصاد وليحققـــوا عمليـــا ماســـبق إليـــه بطليمـــوس الفلكـــى ، كما كَوَّن مجموعة من العلماء تبلغ تسعة وثلاثين عالمـــا لوضـــع موســـوعة جغرافية " (٢) .

---

(١) انظر : برتراند رسل : حكمه الغرب ، ترجمة د / فـــؤاد زكريـــا ، طبـــع الكويـــت ١٩٨٣ ، ج٢ / ٢٣ ، ٢٤ ، ٥٠ - ٥٦ ، وفجر العلم الحديث ، تـــأليف : تـــوبي أ . هاف ، ترجمة د / أحمد محمود صبحي ، طبع الكويت ١٩٩٧ ج٢ / ١٧٧ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ - ٢١٢ .

(٢) ديورانت : قصة الحضارة مجلد ٤ ج٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ .

كما أمر محمدَ بن موسى الخوارزمى بالانشغال بعلم الجبر والمقابلة وأثمر ذلك تأليفه لهذا الكتاب [1] وقام البيرونى بكتابة كتاب في علم الفلك أهداه إلى السلطان مسعود الغزنوى وسماه باسمه فأطلق عليه اسم القانون المسعودى في الهيئة والنجوم . [2]

وعلى الرغم من المآخذ التى تؤخذ على حكام الدولة الفاطمية التى حكمت مصر فإن بعضهم كان له اهتمام بالعلم وتشجيع لأهله وإنفاق عليهم، وقد أنشأوا دار الحكمة وأقاموا المراصد للقيام بالملاحظات العلمية والدراسات الفلكية ، واستقدموا العلماء، ويسروا لهم سبيل القيام ببحوثهم مثلما حدث لابن الهيثم الذى فكر منذ ما يقارب الالف من الاعوام في إقامة سدٍّ يحمى مصر من غوائل الفياضانات العالية فاستقدمه الحاكم بأمر الله لكى ينفذ هذه الفكرة . [3]

ولم يكن الحكام – دائما – على هذا النحو من تشجيع العلم والعلماء .

٢– لم تكن بحوث العلماء بحوثا نظرية يكتفون فيها بالتلقى عن العلماء أو القراءة في الكتب ،بل كانت في مجالات علمية تحتاج إلى انفاقمالىٍّ لشراء الآلات والمواد التى تجرى عليها التجارب والملاحظات ، وشراء الكتب والمراجع ، زيادة على ما تحتاجه ظروف الحياة المعيشية من نقات . وهذه الأمور كلها تحتاج إلى نفقات ليست مستطاعة لكثير من العلماء ، الذين كانوا

---

(١) السابق ١٨١/٢/٤ و د / عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ، دار العلم للملايين ، بيروت ط٤ / ١٩٨٣ ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) انظر : على الشحات : ابو الريحان البيروني ، دار المعارف ١٩٦٨ ص ٧٨ .

(٣) انظر : أحمد سعيد الدمرداش ، الحسن بن الهيثم ، سلسلة أعلام العرب ، ١٩٦٩ ص ١٧ – ١٩ .

فقراء غالبا حتى كان بعضهم يحصل على رزقه من نسخ الكتب كابن الهيثم (١) وقد كان هذا عاملا ثانيا من عوامل تدهور العلم وتأخره . (٢) .

٣- كانت البحوث العلمية – فيما يبدو – تتم بطريقة فردية ولا تتم عن طريق جهود متكاملة ، وهذه الطريقة الفردية قد تؤدى إلى وجود بعض العباقرة في بعض المجالات العلمية ولكنها – مع ذلك – ليست هى الطريقة المثلى لتراكم المعرفة واتصال الخبرة الانسانية ، لأن كل ما يتوصل إليه العالم الفرد من نتائج يظل مرهونا باستمراره في بحوثه ، فإذا مات او انقطع عن مباشرة بحوثه لأى سبب من الاسباب فإن بحوثه تذهب معه ، لكن العمل الجماعى أو في فريق عمل كما يسمى الآن يكون – في أغلب الاحوال – عاملا من عوامل التقدم والازدهار واتصال البحوث وتكاملها .

وقد أخفق العلماء التجريبيون والرياضيون في أن يكوّنوا مدارس علمية كتلك التى تكونت في مجال الفقه والأصول وعلم الكلام والنحو وغيرها ، وقد كان من الآثار الحسنة لهذه المدارس – وان لم تخل من جوانب سيئة

---

(١) السابق : ٢١ ، أبو الريحان البيروني ص ٥٥ .

(٢) عندما جاء أحمد باشا إلى مصر ، بعد تعيينه واليا عليها ، التقى بعلماء الأزهر وشيوخه ، وسألهم عن العلوم الرياضية التى كان يرى أنها معدن العلوم والمعارف ،ولم يجد في إجاباتهم ما يدل على عنايتهم بها ، وقد اعتذر له شيخ الأزهر آنذاك ، الشيخ عبد الله الشبراوى عن ذلك بأسباب كثيرة كان من بينها قوله : " وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية ... " ثم ذكر له أن أكثر هذه الشروط واللوازم غير متوفرة لطلاب الأزهر الذين كان غالبهم من الفقراء . انظر : د / على بركات : رؤية الجبرتي لأزمة الحياة الفكرية . الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ ص ٥٣ – ٥٥ . وانظر :كتاب : الفلاكة والمفلكون ، لأحمد بن على الدلجى ، سلسلة الذخائر ١٠٥ ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠٠٣ ، تقديم د/ زينب الخضيرى ص ٤١ وما بعدها .

أيضا – أنها عملت على المحافظة على علـوم أصـحابها وآرائهـم أحقابـا متطاولة بل قرونا عديدة أحيانا ويلاحظ أن الباحثين المعاصرين قد تخلصـوا بنسبة كبيرة من هذه النزعة الفردية التي لا تلائم مقتضيات البحـث العلمـي بظواهره المركّبة ، التي تحتاج إلى تكامل جهود العلماء . وعلى الرغم مـن ذلك فإنهم ما يزالون بحاجة مستمرة إلى تأكيد الطابع الجماعي لبحوثهم ، كما أنهم بحاجة مستمرة إلى تأكيد الطابع الجماعي لبحوثهم ، كما أنهم بحاجة إلى تنسيق الجهود على مستوى الوطن الواحد ، ثم على مستوى أقطـار العـالم العربي والإسلامي ليتسنىً لهم أن يتبوّأوا مكاناً يليق بما كان لأمتهم قديمًا من إسهامات وأمجاد ، ولتمكنون من تحقيق نوع مـن الاعتمـاد الـذاتي علـى النفس ، يرفع عنهم وعن أمتهم هوان الحاجة إلى الآخرين ، بما يصحبها من مطالب وشروط.

٤- يمكن القول بأن الخمود والجمود العلمي الذي أصاب الحياة الفكرية بوجه عام- عندما أُطلقت دعاوى تحـريم الاجتهـاد – أصـاب الدراسـات الطبيعية التجريبية أيضا بنوع من هذا الخمود والجمود . وأدى ذلك إلـى أن تنحرف بعض العلوم عن مجراها الصحيح وعلى سبيل المثال تحول الاهتمام بالفلك إلى نوع من الاهتمام بالتنجيم ومعرفة البروج لمعرفة الطوالع والحـظ والتنبؤ بالغيب المستور ، وهذا يجعل مثل هذا العلـم أقـرب إلـى الـدجل والخرافات أكثر من كونه علما كان علماؤه الحقيقيون يتوصلـون فيـه إلـى نتائج علمية تدعو إلى الفخر في بعض الأحيان .

*ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى انحسار العلوم الطبيعيـة الكونيـة والرياضية فإنها قد دخلت في طور من الجمود والتخلـف الـذي أدى إلـى مطاردة هذه العلوم ومقاومتها . وعندما اتجهت النية إلـى إعـادة تدريسـها والاهتمام بها من جديد في المعاهد العلمية الكبرى -وفي مقـدمتها الأزهـر

الشريف- وقف أهل الجمود في وجهها وأصدروا الأحكام والفتاوى ضـدها . وكان من أقوالهم " إن القول بدوران الأرض كفر بواح ، وأن مُعَلِّم الجغرافية مسخر من أعداء الدين ليعلم أبناء المسلمين أنها كـرة مسـتديرة دوارة فـي الفضاء . وأكفر منه من يعلمهم الطبيعيات ، لأن القول بالطبيعة إنكار لوجود الله ، وإثبات لوجود المخلوقات بطبيعتها دون وجود الخالق " [١].

ثانيا : لم تكن العلوم الشرعية الدينية التى أصبحت تستحوذ على اهتمام المسلمين أحسن حظا من العلوم الدنيوية التى أقصيت عن مجال الاهتمام .

ذلك أن العلوم الشرعية لم تتابع التقاليد العظيمة التى وضعها علماؤهـا في عصور الازدهار من حيث حرية الفكر ، وحرية الاجتهاد علـى ضـوء القواعد المنضبطة التى دعوا اليها لصيانة الاجتهاد من العبـث والفوضـى ، ومن حيث الكراهة للتقليد ، والالتزام بمنهج البحث والاجتهاد وطلب الدليل .

إن كثير من المنشغلين بهذه العلوم الشرعية ، وخاصة في علم الفقه وما يتصل به من الأصول قد ابتعدوا عن هذه التقاليد بعدا كبيرا، وخضـعوا لمـا يسمى في تاريخ الفقه والتشريع باغلاق باب الاجتهاد ، وأى ذلك الى آ ثـار غير محمودة كان منها :

١- التقليد للائمة السابقين . ويرجع ذلك إلى أسباب متعـددة منهـا أن الحياة كانت تمضى رتيبة مستقرة ، لا يكاد يحدث فيها جديد مـن الظـواهر أو الأحوال الاجتماعية الطارئة التى تتطلب اجتهادا جديدا ، فالحيـاة - فـي جملتها - تكاد تكون صورة من تلك الحياة التى عـاش فـي ظلهـا الائمـة المجتهدون والتى اجتهدوا في معرفة الأحكـام اللازمـة لهـا ، ومـن ثـم

---

(١) الأستاذ عباس العقاد : محمد عبده ، سلسلة أعلام العـرب ، العـدد الأول ص ١٨٧ وانظر :الأستاذ/ أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، مكتبة النهضـة المصرية ، ١٩٤٩ ص ٢٨٩ .

كانت اجتهاداتهم – في الجملة – صالحة للتطبيق على كثير من العصور بعدها ، خاصة وأن هؤلاء الأئمة قد بلغوا من قوة العلم والفهم والاجتهاد مبلغا عظيما ، وأن اجتهاداتهم تضمنت قدرا كبيرا من التنوع والخصوبة والثراء والقدرة على التصور والتخيل وأفتراض المسائل بحيث يمكن البحث في ثناياها عن إجابات لكثير من الأحوال الطارئة بعدهم . ومنها أن الاجتهاد ليس بالأمر الهيّن ، وإنما هو عمل علمي يقتضى شروطا كثيرة تحتاج – في تحصيلها – إلى جهد كبير ووقت طويل ، كما يحتاج إلى قدر كبير من الأصاله ، والقدرة على تمحيص الآراء السابقة ونقدها ، والجرأة على التصريح بمخالفتها إذا كان ثَمَّ ما يدعو إلى المخالفة ، كما يقتضى الأمر قدرا من الرغبة في ارتياد المجالات الجديدة ، والعزوف عن السير في الطرق المطروقة والموضوعات التى قُتِلت بحثا ، ولا يتسير هذا كله لكل سائر في طريق العلم ، بل إنه لا يتسير إلا للقلة منهم ، ومن ثم يستسهل الكثيرون طريق المتابعة والتقليد ، وهكذا تحول العلم إلى حفظ ورواية لآراء السابقين ، ثم قصرت الهمم فاختصرت الكتب القديمة ، وتعقدت اللغة التى كتبت بها ، وفقدت اللغة طلاقتها وحيويتها ، كما فقدت " الموضوعات " صلتها بالواقع ، وأصبحت أقرب إلى التاريخ وألصق به .

٢– ثم تحول التقليد إلى تعصب شديد لأئمة المذاهب (*)، وأصبح كل عالم يتعصب لشيخ مذهبه ، ويرى الحق محصورا في اجتهاده ، وأن الخطأ لازم لاجتهادات الآخرين حتى قال بعض المشايخ " إن الامام – لمن التزم

(*) كان بعض العلماء يهاجمون هذا التقليد وهذا التعصب ، ومنهم ابن حزم وابن عبد البر القرطبي ، وعز الدين بن عبد السلام وابن تيمية والسيوطى وغيرهم ، ولكن التقليد كان هو السمة الغالبة .

تقليد مذهبه – كالنبي عليه السلام مع أمته لا يحل لـه مخالفته " [1] وحتى وصل الأمر إلى حد أن أتباع المذاهب الفقهية الأربعة المشهورة كانوا يمتنعون عن الصلاة إلا وراء إمام منهم ، وقد جاء وقت كانت صلاة الجماعة في المسجد الحرام بمكة تقام أربع مرات بحيث يكون لكل مذهب صلاة منفردة [2] .

٣– وأدى التقليد والتعصب(*) – كلاهما – إلى الجمود ومعارضة التجديد حتى ما كان منه يسيرا ، ومن الأمثلة الدالة على ذلك أن الشيخ السنوسى الليبى كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول

---

(١) القاضي عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق د/ أحمد بكير محمود ، دار المكتبة الحياة ، بيروت ، دار مكتبة الفكر ، ليبيا ١٩٦٧ ج١ /٧٨ .

(٢) انظر : التعليق المغني على سنن الدار قطنى لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادى ، طبع لاهور باكستان ، د. ت ٢٢٦/٤ ، ٢٢٧ .

(*) لم يكن التقليد والتعصب وقفا على بعض اتباع المذاهب الفقهية ، بل إنه كان يوجد – كذلك – لدى اتباع المذاهب الكلامية ، وقد كان منهم من يجعل الحق والصواب محصورين في شيخ مذهبه ، ووصل الأمر كما يقول الغزالى إلى حد تكفير الخصوم والمخالفين ، فالحنبلى يكفّر الأشعرى والاشعرى يكفر الحنبلى ، والمعتزلىَ ، والمعتزلىُ يكفر الأشعرى وهكذا بل وصل الأمر بالتعصب إلى أن يكفر اتباع المذهب الواحد بعضهم بعضا ، حتى أصبح المنتسب للاشعرى يكفر الباقلاني – وهو منتسب إلى الأشعرى كذلك – في بعض آرائه ، وأصبح بعض معتزلة بغداد يكفرون معتزلة البصرة مع أن الجميع معتزلة . راجع : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة : ١٤٤–١٥٠ ضمن كتاب القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى طبع مكتبة الجندى .

ويوجد التعصب – كذلك – بين أتباع المدارس النحوية كمدرسة البصرة والكوفة . وهكذا .

المالكية الذين ينتسب إليهم ، كما كتب كتابا آخر دعا فيه إلى العودة إلى استنباط الأحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وإن أدى ذلك إلى مخالفة بعض المجتهدين ، وكان الرجل بمصر – حينئذ – فعلم بذلك الشيخ عليش أحد مشايخ المالكية : فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسى ليطعنه بها ، لأنه خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين " !! ولولا لطف الله بالسنوسى ، وفراره من مصر إلى ليبيا ، لقضى عليه الشيخ عليش (١) .

ولقد كان الجمود – على مستوى الحياة العامة – على هذا المستوى من التصلب والتشدد ، حتى قال بعض العلماء في تركيا في أوائل القرن التاسع عشر إن تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في حكم اللادينية ، وأن الزى الذى يلبسه الجنود في حكم التشبه بغير المسلمين ، وأن التطوع في الجندية مفسدة للإيمان (٢) .

وفي مثل هذه الظروف كان إنشاء مطبعة حديثة في استانبول محتاجا إلى فتوى من شيخ الإسلام ، وتطلب ذلك تدخُّلَ السلطان العثمانى شخصيا لإصدار مثل هذه الفتوى التى جاءت مشروطة بعدم طبع القرآن وكتب التفسير والحديث على هذه المطبعة ، لأنها كتب دينية ويُخْشَى عليها من التحريف (٣) .

وقد ترتب على هذا كله أن تأخر الاجتهاد الفقهى عن فهم الواقع وملاحقته والبحث عن الحكم الشرعي المناسب له ، وكان الامر يزداد تعقيدا

---

(١) الشيخ محمد عبده : الإسلام بين العلم والمدينة ، دار الهلال ١٩٦٠ ص ١٦٠ ، وانظر : د/ عبد الحميد متولي : أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٨٥/٣ ص ١٢٨ ، وهامش ٢بها .

(٢) انظر : أبو الأعلى المودودى : نحن والحضارة الغربية ، ١١١، ١١٢ .

(٣) انظر : عبد المتعال الصعيدى : المجددون في الإسلام ، طبعة القاهرة ١٩٦٢ ص ٤١٦ ، ٤١٧ وانظر : د / على بركات : رؤية الجبرتي ... ص ٣٨ .

وخطرا كلما وقعت في حياة الناس وقائع جديدة ليس لها في الكتب القديمة حكم مُدَوَّن ، ولن يكفى – عندئذ – ترديد المحفوظ من الآراء ، أو الاعتماد على ما يمكن أن يسمى " فقه الرواية " وإنما المطلوب هو فقه " الدراية والاجتهاد " .

وقد كان من أخطار هذا العجز عن الاجتهاد أنه يوقع الناس في الحرج ويفتح الباب للظن بأن الشريعة قاصرة عن الوفاء بحاجات الناس وتطور الحياة مع أن العجز – في الحقيقة – ليس في الشريعة التى جاءت شاملة كاملة متضمنة للأحكام تفصيلا أو تأصيلا كما يقول القرطبي أو نصا أو فحوى كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا [1] ولكنها تحتاج إلى جهد متجدد لتطبيق النص على الواقع ، وتوسيع مظلة الأحكام والنصوص الشرعية لتندرج تحتها الوقائعُ المتجددة ، والعجزَ – إذن – ليس في الشريعة وإنما هو في أمثال هؤلاء الخائفين من ممارسة الاجتهاد أو العاجزين عنه .

وكان من أخطار هذا العجز والجمود أنه يفتح الباب أمام القوانين والتشريعات المستوردة من هنا ومن هناك ، مثلما حدث في عهد الخديوى إسماعيل الذى أراد ان توضع لمصر مجموعات تشريعية تُقْتبس من أحكام الشريعة ومذاهب الفقه الإسلامى المختلفة ، ولكن العلماء في عصره لم يتمكنوا من ذلك بسبب التعصب المذهبي الذى حال دون اتفاقهم وتعاونهم لتحقيق ما طلب إليهم [2] وكانت هذه ثغرة نفذ منها القانون الغربي إلى مصر .

---

(١) انظر : تفسير القرطبي ، طبعة الشعب ص ٢٤١٧ في تفسير الآية ٣٨ من سورة الأنعام ، وتفسير المنار للشيخ رشيد رضا ، طبع الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٣ ، مجلد ٣٣٠/٧ .

(٢) انظر : أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث : ١٢٧ ، ١٢٨ .

ولم يكن هذا حال مصر وحدها بل إنه أصبح حال أكثر البلاد الإسلامية في هذا القرن الأخير حيث دخلت إليها قوانين مدنية وتجارية وجنائية وكـان ذلك على حساب الشريعة الإسلامية [1] .

وكان من أشد أخطار هذا العجز والجمود أنه كان يشل فكـر العلمـاء ويقيد حركتهم ، ويضعف قوة العالم الإسلامى كله [*] على حين كانت أوربا على أبواب نهضة حضارية علمية صناعية كانت تزداد بها قوة ، وتتطلع – من ورائها – لكى تمارس دورة جديدة من دورات حضـارتها ، وتسـتأنف حلقة من حلقات علاقتها بالإسلام ، وقد كان هذا التلاقـي يزيـد المسـلمين إحساسا بالعجز ، وينال من قدرتهم على المواجهة في مجال الصراع الفكرى والعسكرى الذى فرضته أوربا علـى العـالم الإسـلامى دون تهيـؤ منـه أو استعداد .

٤- كان الجهاد لنشر الدين الإسلامى بين الأمم من أقوى الدعائم التـى قامت عليها الدولة الإسلامية ، وقد كان الجهاد تطبيقا لعالمية الإسلام وكونـه الدين الخاتم الذى لا يأتي بعده دين ، وقد انطلق المسلمون في سائر أرجـاء

---

(١) د/ فيليب حتى : الإسلام منهج حياة ، ترجمة د/ عمر فروخ ، دار العلـم للملايـين ط١٩٨٣/٣ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(*) قامت في بعض بلاد العالم الإسلامى دعوات لتجديد الفكر الإسـلامى ونبـذ التقليـد والجمود ، وإحياء الاجتهاد في فهم الشريعة وتطبيقها ، ومن أهم هذه الدعوات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد ، ودعوة محمد ابن على الشوكانى فـي الـيمن ودعوة شاه ولى الله الدهلوى في الهند ، ولكن صعوبة الاتصال بين البلاد الإسـلامية في الماضى وصعوبة طباعة الكتب وانتقالها ، كذا محاربة بعـض هـذه الـدعوات كدعوة ابن عبد الوهاب التى قاومت الدولة العثمانية وبعض ولاياتها بمحاربتهـا ثـم شيوع التقليد وتحريم الاجتهاد كل ذلك جعل تأثير هذه الدعوات محدودا بحيـث لـم يظهر إلا بعد وقت طويل .

الأرض لاداء تلك المهمة المقدسة . وامتلأت حياتهم بتلك الروح القوية الوثابة ، التى تغلغلت في قلوبهم : رجالا ونساء ، شيبا وشبانا على النحو الذى أوضحناه من قبل .

ولكن تلك الروح قد أصيبت بالضعف والوهن الذى حذر الرسول ﷺ المسلمين منه في قوله " يوشك الأمم أن تداعى الأمم عليكم ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : و من قلة نحن – يومئذ – قال : بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل(*) ، ولينزعن الله من صدور أعدائكم المهابة منكم وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت " (١) وقد كان هذا الضعف ثمرة لعوامل كثيرة . نفسية وتربوية ، اقتصادية واجتماعية ، سياسية وعسكرية ، مذهبية وفلسفية . ويمكن أن نشير الى بعض هذه العوامل فيما يأتى :

أ) كانت الحياة قد انتقلت مما كانت عليه – في أول الإسلام – من بساطة في العيش ، وزهد في مظاهر النعيم ، وصلابة أمام الشهوات – مع ما فتح الله على المسلمين من النعمة والغنى واتساع الخيرات – انتقلت الحياة الى حياة مترفة تنعمت بها طوائف كثيرة في ظل عدد من الدول ،وبخاصة الدولة العباسية التى اتسعت رقعتها ، وكثرت أموالها ، ثم تسلت إليها تقاليد الحياة الفارسية التى كانت تتفنن في تحقيق أنواع من المتعة والبهجة لم يكن للناس بها عهد . وكان كثير من الناس ، وخاصة من يتولون أمور الوظائف الكبرى ينعمون بملكيات فاحشة تثير الدهشة والعجب ، بل تفوق التصور في

(*) يتضمن هذا التشبيه أوصافا كثيرة ، فهو يدل على الضعف الشديد ، والاندفاع القوى في اتجاه السقوط ، وعدم القدرة على التحكم وتحديد الاتجاه ، وافتقاد الإرادة ، والعجز عن معاودة الصعود مرة ثانية .

(١) سنن أبي داود : كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الإسلام ١١١/٤ ، ومسند أحمد مع اختلاف يسير في اللفظ ٢٧٨/٥ .

طويلا ، ونفقات باهظة ، كما أن بقاءها في العاصمة والمدن الهامة كان يفقدها المرونة وروح القتال ، ويصيبها بالضعف والاسترخاء .

ج) واجه العالم الإسلامى ظروفا داخلية عصيبة كانت تؤدى إلى إضعافه ، ومن أول هذه الظروف ظاهرة الانقسام والتفتت التى أحاطت بالعالم الإسلامى – منذ وقت بعيد –ويصور ابن الأثير هذه الظاهرة تأثيرا مجسما حين يذكر في أحداث سنة ٣٢٤ هـ أنه قد " بطلت الدواوين ... وتغلب أصحاب الأطراف ،وزالت عنهم الطاعة ، ولم يبق غير بغداد وأعمالها ... وأما في الأطراف فكانت البصرة في يد ابن رائق ، وخوزستان في يد البريدى ، وفارس في يد عماد الدولة ابن بويه ، وكرمان في يد أبي على بن الياس ، والرى وأصبهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد وشكمير أخى مرداويج يتنازعان عليها ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بنى حمدان ، ومصر والشام في يد محمد بن طغج ، والمغرب وافريقية في يد أبي القائم بأمر الله العلوى ...والأندلس في يد عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصرى الأموى ، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد السامانى ، وطبرستان وجرجان في يد الديلم ، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطى " (1) .وليس من قبيل الاستطراد الحديث عما يعانية العالم العربى والإسلامى من تقسيم وتجزئة ، وقد كان للقضاء على الدولة العثمانية (١٩٢٤) – بتأثير القوى الاستعمارية الأوروبية ، والمؤامرات اليهودية – أكبر الأثر فى هذا الوضع ، حيث قامت بريطانيا وفرنسا خاصة باستعمار أكثر بلاد العالم العربى بعد معاهدة سايكس/ بيكو وإعلان وعد بلفور (١٩١٧م) . وقد وصل الأمر بالدول العربية والإسلامية إلى محاربة بعضها بعضا . ومن شأن هذا كله أن يضعف من قوى الأمة ،

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣٢٣/٨ ، ٣٢٤ ويقتبس ابن كثير هذا النص في البداية والنهاية ٨٤/١١ .

وأن يجعلها نهبًا للطامعين فـي أرضـها وثرواتهـا بـالاحتلال المباشـر ، أو بالهيمنة السياسية والعسكرية ، التـي تلقـي بهـا فـي هاويـة التبعيـة والهوان .

وإذا كانت بغداد قد بقيت لخلفاء بنى العباس فإنهم لم يكونـوا أصـحاب نفوذ أو سلطة فيها ، وإنما كانت السلطة الحقيقية بها في أيدى المتسلطين من أتراك وبويهيين ، وقد قتل بعضهم كالمقتدر بالله ، وخلع بعضهم ، وصـحب الخلعَ مظاهرُ من الاهانة البالغة كالسجن واذهاب البصر ، وكـان بعضـهم يضطر إلى التسول أو بيع ثيابه كما وقع للمطيـع بـالله والقـاهر والمتقـي والمستكفي [1] .

وشهدت الحياة الاجتماعية والدينية ألوانا من الصـراع العرقـي الـذى برزت فيه العصبية التى سعى الاسلام إلى إخمادها كالصراع بـين القيسـية واليمانية [2] والصراع بين البويهيين والأتراك [3] والصراع الدينى بين السـنة والشيعة ،وقد كان يأخذ شـكل المنـاظرات أحيانـا ،ولكنـه كـان يتحـول في أحيان كثيرة إلى صراع دموى تزهق فيـه الأرواح ، وتنهـب الأمـوال والبيوت [4] . كما شهدت الحياة السياسية أنواعا من الصراع السياسـى بـين أمراء الجند وقوادهم وبين الخلفاء كانت تنتهى بقتل الخلفاء أحيانا [5] وكانـت الصراعات تقع أحيانا بين الخلفاء وأمراء الأقاليم كالصراع الذى جرى بـين

---

(١) انظر : تجارب الأمم لمسكويه ، الجزء السادس ، بعناية أمد روزمطبعـة الكـردى ١٩١٥ ص ٣٠٧ ، والكامل ٢٤٢/٨ ، ٢٣٥ ، ٦١٩ ، والبداية والنهايـة ١٦٨/١١ ، ١٦٩ ، ودول الإسلام للذهبي ٢٠٥/١ ، ٢٠٧ ، ٢١١ .

(٢) دول الإسلام ١١٤/١ ، ١١٥ .

(٣)انظر : تجارب الأمم ٣٠٥/٦، ٣٠٦ والكامل ٤٩/٩ ، ٦٣، ٦٤ ، ١١٢ ، ١١٤ .

(٤)انظر الكامل ٥٤٢/٨ ، ٥٤٣ .

(٥) انظر : دول الإسلام ١٥١/١ .

يعقوب بن الليث الصفار ودولة الخلافة والصراع الذى جرى بين خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر وبين دولة الخلافة ، وقد حدثت فيه معارك كموقعة الطواحين بالرملة التى " كانت وقعة لم يسمع بمثلها حتى جرت الدماء كالأنهار " . (١)

ولم تخل الحياة – زيادة على هذا البلاء كله – من فتن عارمة كفتنة الزنج التى بدأت بالبصرة ابتداء من ٢٥٥ هـ واستمرت خمس عشرة سنة وقعت فيها معارك ضارية أدت إلى مقتل مئات الالوف من المسلمين ، بل إن الذهبي يحكى قولا بأنه قد قتل فيها من المسلمين ما يصل إلى مليون ونصف (٢) ومثل فتنة القرامطة التى بدأت ٢٨٦ هـ وهَزَمت جيوش الخلافة وازداد بأسهم حتى دخلوا مكة يوم التروية (الثامن من ذى الحجة) وقتلوا من الحجاج وأهل مكة ثلاثين ألفا ثم اقتلعوا الحجر الاسود في عام ٣١٧ هـ ولم يعيدوه إليها الا بعد اثنتين وعشرين سنة (٣) !!.

وليس من الغريب – في ظل هذه الفتن الداخلية المضطرمة – أن يتوقف الجهاد ، بل ليس من الغريب أ، ينهزم المسلمون أمام الروم ، سواء في ذلك جيوش الخلافة أو جيوش بنى حمدان الذين كانوا يقومون بدور بارز في محاربة الروم، وسقطت في هذه الحروب بلاد كثيرة (٤) .

ولا شك أن تأمل هذه الصورة الكئيبة القاتمة التى تردت إليها أحوال المسلمين طوال عصور كثيرة يصيب النفس بالأسى ويجعل المفارقة واضحة بين ما كانوا عليه في أول عهدهم وبين ما صارت إليه أحوالهم ، ولا شك أن

---

(١) السابق ١٦٥/١ وقد انتهت المعركة بهزيمة جند دولة الخلافة .

(٢) السابق ١٥٣/١ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) انظر : الكامل ٢٠٧/٨ ، ٢٠٨ ، ٤٨٦ والبداية والنهاية ١٦٠/١١ ، ١٦١ ، ٣٢٣ ، ودول الإسلام ١٩٢/١ ، ٢١٠ .

(٤) انظر : دول الإسلام ٢١٤/١ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ .

الخلفاء كان لهم دور بالغ في تلك الظروف البائسة التى عاشها الناس ، وقد كان ابن الأثير يحكى ما وقع للمسلمين على أيدى التتار الذين كانوا يمثلون محنة من أكبر المحن التى وواجهها المسلمون ، وكان يتوقف بين الحين والحين ليُطلق الزفرات الحَرّى على ما آلت إليه أحوال المسلمين ، وكان يُحَمّل الخلفاء والحكام الوزر الأكبر والنصيب الأعظم ، وعندما كان يورد أحداث عام ٦٢٨ قال " فالله تعالى ينصر الإسلام والمسلمين نصرا من عنده ، فما نرى في ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدين ، بل كُلٌ منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته ، وهذا أخوف عندى من العدو ، قال تعالى ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [1] . (الأنفال : ٢٥) .

وكان يذكر هذا قبل أن تسقط دولة الخلافة ببغداد ٦٥٦ هـ وقد ذكر من أهوال الحروب وآثارها ما لا يكاد يصدق [2] .

وعلى حين كانت روح الإيمان والنصر تدفع جند الصحابة – رضوان الله عليهم – إلى أن يطأوا بأقدامهم مجالس الكبراء والقادة من خصومهم ، ويحطموا بسلاحهم عروش الأكاسرة والقياصرة ، واثقين من نصر الله لهم ، معتزين بتلك العزة التى أودعها الإسلام في قلوبهم إذا بنا نرى تلك الروح المعنوية المصاحبة للهزائم والانكسارات والمتأثرة بها تنحدر إلى مستوى من الهوان والتخاذل والانكسار الذليل ، ويصور لنا ابن الاثير مشاهد من هذه الذلة التى تظهر المفارقة – كذلك – بين حال وحال . ويذكر في أحداث سنة ٦١٨ أن واحدًا من بعض أهل مدينة مراغة (من آذربيجان التي كانت تقع في الاتحاد السوفيتى) ذكر له " أن رجلا من التتار دخل دربا فيه مائة

(١) الكامل لابن الأثير طبع المطبعة الكبري ، بولاق ١٢٩٠ هـ ٢٠٥/١٢ .

(٢) السابق ١٤٧/١٢ وما بعدها .

رجل ، فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم ، ولم يمد أحد يده إليه بسوء ، وَوُضعت الذلة على الناس ، فلا يدفعون عن نفوسهم قليلا ولا كثيرا " (١)

ثم يقول " ولقد بلغنى أن إنسانا منهم أخذ رجلا ، ولم يكن مع التترى ما يقتله به ، فقال له : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح ، فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى فأحضر سيفا قتله به " (٢) بل ربما يأمر الواحد منهم الجماعة بأن يقيد بعضهم بعضا ليقتلهم فيمتثلون لأمره . (٣)

د) وصحب هذا التقهقر والهزيمة تراجعُ لمعنى الجهاد نفسه ، ووقع ذلك على يد بعض (*)الصوفية ، الذين قسموا الجهاد إلى جهاد أكبر وجهاد أصغر ، وقد جعلوا الجهاد الأصغر هو جهاد الأعداء ومحاربتهم ، وجعلوا الجهاد الأكبر هو جهاد النفس ، واستندوا في هذا التقسيم إلى ما نسبوه إلى الرسول ﷺ من أنه قال حين رجع من إحدى الغزوات : " رجعنا من الجهاد

---

(١) ١٥٦/١٢ ، ١٥٧ ، وانظر ١٥٨/١٢ .

(٢) السابق ٢٠٧/١٢ .

(٣) السابق ٢٠٧/١٢ .

(*) يختص هذا الفهم ببعض الصوفية لا بجميعهم ، فكثير منهم يفهم الجهاد فهما إيجابيا يتعلق بالجهاد ضد أعداء الإسلام وبعضهم شارك بنفسك مشاركة ايجابية في بعض المعارك الحربية ، وكان بعضهم يرابط بالثغور ومن هؤلاء - على سبيل المثال - شقيق البلخى وحاتم الأصم وإبراهيم بن أدهم ، ونظر مثلا : الرسالة القشيرية ٧٩/١ ، ٩٠ وهى من تحقيق د . عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف طبع دار الكتب الحديثة ج ١ /١٦٦ وقد شارك بعضهم في الحروب الصليبية وغيرها انظر مقدمة د . عبد الحليم محمود لتحقيق كتاب : المنقذ من الضلال ٨-١٣ ط ١٩٧٢/٧ وكان بعضهم يدعو المريدين إلى الاشتراك فيها انظر مثلا : قوت القلوب لأبي طالب المكى ٥٠١/١ .

الأصغر إلى الجهاد الأكبر : جهاد النفس " (*)واستند بعضهم إلى بعض أقوال نسبوها إلى الإمام على بن أبي طالب في تعظيم قدر المجاهدة للنفس على ما سواها من الجهاد حتى جهاد المشـــركين ، ومـــن هـــذه الأقـــوال المنســـوبة إليه " وأعمالُ البر كلها إلى جنب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كَتَفْلَـــةٍ إلى جنب البحر ، وهذان إلى جنب الجهاد في سبيل الله تعالى كتفله في جنب بحر . والجهاد في سبيل الله تعالى إلى (جنب) مجاهدة النفس عـــن هواهـــا . كتفلة في جنب بحر لُجّيّ " [1] . وقد ذهب بعض الصوفية إلى تطبيـــق هـــذه الفكرة ، تفضيل جهاد النفس على جهاد الأعداء تطبيقـــا عمليـــا ، ورَفْـــض المشاركة فى معارك الجهاد ، مع قدرته عليه ، وتوفر شروطه فيه ، بســـبب اقتناعه بهذه الفكرة . ويقدّم لنا السهروردى ، صـــاحب عـــوارف المعـــارف نموذجا لهؤلاء ، فيما حكاه من أنه قيل : إن بعض الصالحين كتـــب إلـــى أخ يستدعيه للغزو ، فكتب إليه بما يدل على رفضه الاستجابه لدعوته ، وقـــال " يا أخى كل الثغور مجتمعةٌ لي في بيت واحد ،والبابُ عليَّ مردود (يقصـــد بيت الخلوة الذى يتعبد فيه) فكتب إليه أخوه : لو كان الناس كلهم لزموا مـــا لزمته (من الخلوة وترك الجهاد) لاختلت أمور المسلمين ،وغلّب الكفـــار ،

(*) يورده الغزالى على أنه حديث وذكر الحافظ العراقـــي فـــي تخريجـــه : إن البيهقـــي أخرجه في الزهد من حديث جابر وقال: في إسناده ضـــعف. انظـــر الاحيـــاء ١٠/٣ وهامش ٢ بها وكذا ٨٤/٣ هامش ٣ ، وقد ذهب الغزالى في كتاب آخر إلى أنه مـــن قول بعض الصحابة انظر ميزان العمل : ٥٢ طبع مكتبة الجندى ، وانكر ابن تيميـــة أن يكون حديثا ، وشاركه في ذلك ابن حجر الذى ذكر أنه من كلام إبراهيم بن عيلـــة انظر : الفرقان بـــين أوليـــاء الـــرحمن وأوليـــاء الشـــيطان لابـــن تيميـــة ص ٦٠ والهوامش الموجودة بها ، وهو من تحقيق الشيخ محمود فايـــد ، مطبعـــة صـــبيح ط ١٩٥٨/٢ .

(١) قوت القلوب للمكى ٣٨١/١.

فلا بد من الغزو والجهاد . فكتب إليه : أخي ، لو لزم الناس ما أنا عليه ، وقالوا في زواياهم على سجاداتهم: الله أكبر انهدم سور قسطنطينية " [1] .

ولا شك أن الداعيَ منهما إلى الجهاد صاحبُ فهم سليم ، أما هذا الجالس في الزاوية معتقدا أن ترديد عبارة : الله أكبر يهدم سور القسطنطينية ، فهو ذوفهم سقيم متخاذل ؛ لأن الله تعالى جعل للنصر أسبابا معنوية ومادية يجب الأخذُ بها ليتحقق وعده بنصر المؤمنين ومعونتهم ، فإذا فرطوا فيها فليس لهم أن ينتظروا من الله عونا ولا مددا ، وقد انهزم المسلمون في بعض الوقائع على عهد الرسول ﷺ ، وبيَّن لهم القرآن أن ذلك يرجع إلى أن الشيطان استزلهم ببعض ما كسبوا ، ثم ذكر القرآن أن ذلك يرجع إليهم ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) [*]وقد حاول الصحابة أنفسهم غزو الفلسطنطينية وتمكنوا من حصارها ولكن لم يتمكنوا من فتحها لأن ما وضعه الله من الأسباب لتحقيق هذا الفتح لم يتحقق لهم في ذلك الوقت ، ولم يكتفوا بالدعاء مع أن الدعاء من مثلهم يستجاب ؛لأنهم أقوى يقينا وأطهر قلوبا وأشد إخلاصا ، وقد أثنى الله عليهم وشهد بالفضل لهم ، وقد ظلت هذه المدينة مستعصية على الفتح حتى فتحها الله على يد محمد الفاتح العثمانى بعد ذلك بقرون (١٤٥٣ م) ولم تكن تلك الدعوة المتخاذلة لِتُواجِهَ حروبَ الروم والصليبيين والتتار ولكن هذه الحروب كانت تحتاج إلى حشد وقوة وإعداد وتخطيط ووحدة وتضحيات إلى غير ذلك من أسباب النصر التى تجرى بها سنن الله على الخلق جميعا . وقد وقع شيء من ذلك بين عبدالله المبارك الذى كان يحج عاما ويجاهد عاما ، والفضيل بن عياض الذى كان من الزهاد الحريصين على ملازمة الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة ، ولعله كان

---

(١) عوارف المعارف (وهو ملحق بالإحياء) ١١٦/٥ .

(*) وراجع الآيات : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ من سورة آل عمران .

يرى أن الاعتكاف بهما خير من الجهاد فى سبيل الله ، وقد أرسل إليـــه ابـــن المبارك بهذه الأبيات .

يا عابد الحرمين لـــو أبصـــرتنا	لعلمت أنك فى العبـــادة تلعـــب
من كان يخضب خدّه بدموعـــه	فنحورنـــا بـــدمائنا تتخضّـــب
أو كان يتعب خيله فـــى باطـــل	فخيولنا يوم الصـــبيحة تتعـــب
ولقد أتانـــا مـــن مقـــال نبينـــا	قول صحيح صـــادق لا يكـــذب
لا يستوى وغبار خيل الله فـــى	أنف امرئ ودخان نـــار تلتهـــب
هـــذا كتـــاب الله ينطـــق بيننـــا	ليس الشهيد بميت لا يكـــذب(*)

ويمثل هذا الفهم لابن المبارك الفهم الصحيح لمكانه الجهاد الذى هو من أفضل العبادات والقربات عند الله تعالى.

ولكن ظروف الهزيمة والضعف التى أحاطت بالمسلمين كانت ذات أثـــر في تحريف المفاهيم ، وكان يؤدى إلى هذا التحريف – كذلك – مـــا أصـــاب الحركة العلمية من توقف وتقليد وجمود ، وقد ظل هذا الفهم المحرّف للجهاد مستمرا حتى مشارف العصر الحديث فعندما أراد مراد بك – أحـــد زعمـــاء المماليك الذين كانوا يحكمون مصر قبل الحملة الفرنسية – أن يتوجه لحـــرب نابليون عند غَزْوِه لمصر ١٧٩٨ م كان الصوفية يجتمعـــون فـــي الأزهـــر كل يوم لقراءة البخارى وغيره ، ومن بيـــنهم مشـــايخ فقـــراء (صـــوفية) الاحمدية والسعدية والرفاعية وغيرهم من طوائف الفقراء وأربـــاب الأشـــاير (الرايات) ، وكانوا يذهبون كل يوم للأزهر فيجلسون للأذكـــار ، وتجتمـــع أطفال الكتاتيب للدعـــاء وتـــلاوة اسم لله تعالى : اللطيف [1] .ظنًّا مـــنهم أن هذا يكفى – دون أخذ بالأسباب – لتحقيق النصر على جنود نابليون .

(*) راجع تفسير ابن كثير فى تفسير الآية الأخيرة من سورة آل عمران .

(١) انظر / العقاد : محمد عبده ص ٤٢ .

وعندما ذهب الخديوى اسماعيل إلى الحرب في الحبشة ، وانهزمت جيوشه بها أمر العلماء بقراءة البخارى ، فلم يتغير من الموقف شئ فغضب عليهم وصاح فيهم : إمَّا انكم لا تقرأون البخارى ، وإمَّا انكم لستم بعلماء [1] : ثم قال لهم إنكم لستم من السلف الصالح؛ لأن الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا ، ولكن أحد العلماء أجابه إجابة مفحمة ، بأن من شروط قبول الدعاء : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فإن لم يتحقق ذلك سلط الله على الناس شرارهم ، فيدعو خِيارهم فلا يستجاب لهم ، وعندها تصاغر الخديوى وانكسر؛ لأنه ووجه بما أحدثه في مصر من إنشاء المحاكم المختلطة التى تؤدى إلى ظلم المصريين لحساب الجانب ، والتى يكون الحكم فيها بغير شرع الله تعالى ، ثم ما سمح به من شرب الخمر وغيره من المنكرات [2] .

هـ) وإذا كان مفهوم الجهاد قد انحرف على يد بعض الصوفية الذين جعلوا الجهاد الأكبر هو جهاد النفس وانشغلوا به عن سواه فإن بعض المفكرين في العصر الحديث قد دعوا إلى اسقاط فريضة الجهاد من أساسها ، حتى في تلك الحالات التى قال الفقهاء إن الجهاد فيها يجب على سبيل فرض العين أى يجب على كل قادر عليه، وذلك عندما يجتاج عدو المسلمين ارضهم وبلادهم ، وممن ظهر لديهم هذه الأفكار الانهزامية السيد : أحمد خان (ت ١٨٩٨) الذى كان من قادة الاصلاح في الهند بعد احتلالها والقضاء على الحكم الإسلامى فيها على أيدى الانجليز ١٨٥٧ م ، وقد دعا

(١) السابق : ٤٤ .

(٢) انظر : د/ محمد رجب البيومي : علماء في وجه الطغيان ، الدار القومية للطباعة والنشر ، د.ت ص ١١٥ .

الى اتباع النمط الغربي في الحضارة ، كما دعا إلى محاكـاتهم فـي طـرق معيشتهم ، وكان من أخطر ما قاله إنه حاول فهم الإسلام نفسه بطريقة غربية لكى يتقرب بذلك إلى الانجليز ، الذين فرضوا سيادتهم على الهند ، وأرسـلوا إليها المبشرين الذين بذلوا أقصى جهودهم لإخراج المسـلمين مـن ديـنهم ، ويسروا للهندوك غير المسلمين سُبلَ التعليم وتقلُّد الوظائف والمناصـب فـي الدولة ، ومع ذلك وجدوا من أحمد خان نصيرا يصدر الفتاوى بـأن الجهـاد غير مطلوب بدعوى أن المسلمين يتمتعون بحماية الانجليز ، ولا يتعرضـون للقهر على أيديهم، وأنهم لا يصدونهم عن فريضة من فرائض ديـنهم. وقـد ترتب على هذا الفهم أنه اسقط فريضة الجهاد مع ما كان يناله المسلمون من قهر على أيديهم أو على أيدى الهندوس بل إنه دعا إلى موالاة الإمبراطوريـة البريطانية ومسالمة الإنجليز .

وقد أوضح أنه يقصد بما تحدث به من إسـقاط فريضـة الجهـاد إلـى هدفين :

١- أن يعرف الجاهلون بالنصوصِ الشروطَ التـى وضـعها الاسـلام للجهاد هذه الشروط وأنها لا تنطبق على الانجليز ، ومن ثـم لا يُعَرِّضـون أنفسهم للفتنة والانتقام .

٢- أن تعلم الحكومة التى يعيش المحمديون (*)(أى المسلمون) فـي كنَفِها أن المحمديين لا يعتقدون بمشروعية القتال ضـدهم، وسـوف تكـون

(*) يقوم الاسلام على التوحيد الخالص ، والمسلم ينتسب إلـى الاسـلام ويتصـف بـه فيوصف بأنه مسلم ، ولا يوصف بأنه محمدى ، وإنما ذلك تقليد لبعض أتباع الاديـان الاخرى الذين ينتسبون إلى انبيائهم ، وقد سمى الله تعالى أتباع الرسول " المسـلمين " قوله تعالى ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِـن قَبْـلُ وَفِـي هَـذَا ... ﴾ (الحج : ٧٨) .

النتيجة التى تنجم عن هذين الهدفين أن تتوثق عرى الوفاق بين الحكام والمحكومين ، وبين الرعايا البريطانيين عامة والمحمديين حتى يستقر الأمن والسلام دائما في هذه البلاد [1] .

وكان ممن دعا إلى هذا الرأى – في الهند أيضا – ميرزا غلام أحمد القاديانى (ت ١٩٠٨ م) وقد ألف كتابا أسماه كتاب " براهين أحمدية " ضمنه أفكاره حول الجهاد ، وقد حث فيه العلماء والجمعيات الاسلامية على إقناع الحكومة الانجليزية بأن المسلمين أمة هادئة مسالمة للانجليز ، كمادعاهم إلى إعلان حُرْمة الجهاد [2] ، وكان مما قاله " لقد ظللت منذ حداثة سنى ، وقد ناهزت اليوم الستين أُجاهِدُ بلسانى وقلمى لا صرفَ قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية والنصح لها والعطف عليها ، **وألغى فكرة الجهاد** التى يدين بها بعض جُهَّالهم والتى تمنعهم من الاخلاص لهذه الحكومة . وأرى أن كتاباتي قد أثرت في قلوب المسلمين وأحدثت تحولا فى مئات آلاف منهم " [3] .

---

(١) انظر : رود لف بيترز : الإسلام والاستعمار : عقيدة الجهاد في التاريخ الحديث ، دار شهدى للنشر ١٩٨٥ ص ١٦٠ ، ١٦١ ، وكذلك ٦٨ ، ٦٩ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، وانظر : د/ محمد البهي : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، مكتبة وهبة ط١٩٧٥/٨ ، ٤٢ ، ١٦٣ – ١٦٦ . والاستاذ أحمد أمين : زعماء الإصلاح ص ١٢١ وما بعدها .

(٢) انظر : أبو الحسن الندوى : القادياني والقاديانية ، الدار السعودية ط١٩٨٣/٥ ص ٤٣ .

(٣) السابق : ٩٩، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ .

ولم تكن هذه هى الزلة الوحيدة له ، بل إنه انتهى الى آراء مضادة للعقيدة الإسلامية ، حيث ادعى أنه المسيح المنتظر ، وأعلن حاجة الناس إلى وحى جديد ونبوة جديدة، ثم تطورت آراؤه فأعلن أنه نبي مرسل من عند الله وأن الإيمان به واجب [1] . وهى آراء تتضاءل إلى جانبها آراؤه عن اسقاط الجهاد ، وقد تصدى للرد عليه عدد كبير من مفكرى المسلمين يأتي على رأسهم الدكتور محمد إقبال والسيد / أبو الحسن الندوى وفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين .

ويهمنا الآن الإشارة إلى أن اسقاط فريضة الجهاد قد أصبح مبدأ أو فلسفة لدى بعض المفكرين ، وقد كان هذا أسوأ ما تردت إليه فكرة الجهاد التى كانت في عصور مجد الإسلام عاملا من عوامل قوة الإسلام والمسلمين .

ثم نشير – قبل أن ننتقل إلى فكرة أخرى – أن حركة الجهاد كانت تحيا في بعض الأحيان ، على الرغم من عوامل الضعف التى كانت تتتابها نتيجة لتلك الأسباب الكثيرة التى ذكرناها ، وحدث هنا أحيانا بسبب انضمام عناصر جديدة إلى الإسلام كالعنصر التركى الذى تمثل في الدولة السلجوقية ثم في الدولة العثمانية ،وكلتاهما أضافت إلى أرض الإسلام بلادا جديدة . فالدولة السلجوقية اتجهت جهودها الكبري نحو الهند ، والدولة العثمانية اتجهت بثقلها

---

(1) السابق ٤٩، ٥٩ وما بعدها ، ٧١ وما بعدها ، وكذا الشيخ محمد الخضير حسين : القاديانية ، طبع مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠ ص ٦٦ وما بعدها .

نحو شرق أوربا وكان من أثار ذلك أن دانت بلاد كثيرة منها بالإسلام . ثـم حدث هذا أحيانا في مواجهة الغزو الصليبى الـذى حـاول اجتيـاح الأرض الإسلامية على مدى قرنين من الزمان ، ثم حدث كذلك في مواجهـة الـدول الاستعمارية التى اتجهت إلى استعمار بلاد الإسلام في العصـر الحـديث ، مثلما حدث في الهند وفي الجزائر بقيادة الأمير عبـد القـادر الجزائـرى ، ومثلما حدث في بقاع أخرى قديما وحديثا .

ولكن على الرغم من ذلك كله كان الطابع العام الذى يمكن أن نصف به فكرة الجهاد هو طابع التدهور والضعف والتحريف الذى انتهى صراحة عند بعض المفكرين إلى إسقاط فريضة الجهـاد ، وقـد أدى ذلـك – فيمـا أدى إلى وقوع أكثر العالم الإسلامى تحت بـراثن الاسـتعمار الأوروبـي الـذى لم تتحرر البلاد الإسلامية من مظـاهره العسـكرية إلا منـذ وقـت غيـر بعيد .

وما تزال فكرة الجهـاد تعـانى مـن سـوء الفهـم ، والقصـد إلـى التحريف على أيدى بعض المفكرين والسياسيين الغربيين مـن الأوروبيـين والأمريكيين ، مستندين إلى بعض الحوادث التى وقعت فى العالم الإسـلامى أو فى خارجه ، وكان ذلك – عندهم – سببا فى تشويه فكـرة الجهـاد التـى يسعى أصحابها إلى الدفاع عن أوطـانهم ، وتحريرهـا مـن المسـتعمرين الغاصبين . وقد وُصِف هذا الجهاد عندهم بأنه إرهـاب ، دون تفريـق بـين الجهاد المشروع ، والإرهاب الغاشم الذى لا يستند إلى حق ، ولا يدافع عـن قضية عادلة ؛ بل إن بعض هؤلاء قد تجاوز الحد فوصف الإسلام نفسه بأنـه

إرهاب ، وأن نصوصه التى تحدثت عن تشريع الجهاد وقتال المشركين تسوغ هذا الإرهاب وتدعوا إليه . وليس هناك ما هو أبعد عن الحق من مثل هذا القول الذى يجد من يروّجه وينشره ، ويتخذ منه ذريعة وسببا للعدوان على المسلمين.

ولعل ما أسلفناه من حديث عن انتشار الإسلام بالدعوة السليمة وما وضعه الإسلام من ضواط وآداب ومقاصد للجهاد يكفى لتنفيذ مثل هذه الاتهامات الجائرة ، ويشير إلى البواعث المستترة من ورائها ، كما تدل عليها تلك النظريات الغربية التى تتحدث عن صدام الحضارات ونهاية التاريخ ، وهى نظريات تحتاج إلى مناقشات لا يتسع لها المقام[١] .

ويمكن الإشارة – أخيرا – إلى أن هذه العوامل الداخلية التى أدت إلى ضعف العالم الإسلامى لم تكن – وحدها – التى تنخر فى عظام العالم الإسلامى ، وإنما كانت مصحوبة بعوامل خارجية موجهة إليه بطرق ووسائل شتى لتحقيق أهداف كثيرة .

وسنحدث عن بعض هذه العوامل الخارجية ، بادئين بالحديث عن : الاستشراق .

ثانيا : من عوامل الضعف الخارجية :

---

(١) انظر : مثالا لهذه المناقشات ، في بحث للمؤلف ، بعنوان : الإسلام والغرب في ظل العولمة ، وقد نشر ضمن أعمال المؤتمر الدولى الرابع للفلسفة الإسلامية ، الذى عقد بكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، طبع الهاني ١٩٩٩ ص ٤١٣ – ٤٥٢ .

١-الاستشراق

تمهيد :

يتضمن الحديث عن الاستشراق موضوعات عديـدة، يتعلـق بعضـها بتعريفه وتاريخ نشأته، كما يتعلق بعضها بأهدافه ووسـائله، وتقـديم بعـض النماذج لما جرى فيه من دراسات ، مع تقويمها وتحديد موقـف موضـوعى منها، إلى غير ذلك مما يتسع له مجال الاستشراق من موضوعات.

ولن نتوقف – طويلاً – عند التعريف وتاريخ النشـأة، ولكننـا سنشـير إليهما في إيجاز يقتضيه المقام .

أولاً : التعريف :

عُرِّف الاستشراق بأنه علم يختص بدراسـة فقـه اللغـة خاصـة [١] ، ويلاحظ على هذا التعريف عدة ملاحظات، منها: أنه يحصر الاستشراق فـي الدراسات المتعلقة بفقه اللغة خاصة، وهذه لا تمثل النشاط الاستشراقى كلـه، وإن مثلت جانباً مهماً منه، فقد قام الاستشراق بدراسات عن الأديان والأفكار والتاريخ والنظم والعادات والجوانب الاجتماعية، فضلا عن الدراسات اللغوية والأدبية . والتعريف – إذن – قاصر عن الإحاطة بما يقوم به الاستشراق من الناحية التاريخية والواقعية .

ويقترب من هذا التعريف ما قالته موسوعة لاروس الفرنسية في تعريفها للمستشرق بأنه " العالم المتمكن من معرفة الشرق ولغاتـه وآدابـه " وهـو تعريف يركز على بعض الجوانب دون بعض، كسابقه . ولعل أهم التعريفات التى قدمت للاستشراق في العقود الأخيرة هو تعريف إدوارد سـعيد ، وهـو يذكر أن الاستشراق له ثلاثة معان :

---

(١) وقد عرفه هذا التعريف المستشرق الألمانى : رودى بارت، انظر كتابه: الدراسـات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة : د . مصطفى مـاهر، طبـع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٧، ص ١١ ، ١٢.

المعنى الأول منها ذو طابع أكاديمي، وهو ينطبق على دراسة الشرق أو الكتابة عنه أو البحث فيه، **في أى مجال من المجالات**، دون تخصيص بمجال معين .

أما المعنى الثانى فهو أوسع دائرة؛ لأنه لا ينحصر في الدراسات الجامعية الأكاديمية المنضبطة بما تستخدمه من منهج، وما تخضع له من معايير، بل إنه يتسع لكل فكر أو إبداع، أو وصف للشرق، أيا كانت وسيلته: بحثاً أو رواية، أو شعراً، أو رأياً فلسفياً، أو تنظيراً سياسياً، أو رأياً اقتصادياً يتعلق بالشرق، بل إنه يتسع لأدب الرحلات ،والفنون المتعلقة بالشرق أيضاً . وهذا كله يقدم صورة عن الشرق، تصلح – مع عمومها وعدم دقتها أحياناً – لكى يفيد منها الاستشراق بالمعنى الأكاديمى السابق .

والاستشراق – **بالمعنى الثالث** عنده– ذو طابع سياسى أو أيديولوجي يتحول فيه البحث الاستشراقى من بحث علمى خالص، كما ينبغى أن يكون، إلى أن يكون أسلوباً غربيًّا للسيطرة على الشرق والسيادة عليه. ومعنى ذلك أن يقوم الاستشراق ببناء صورة أخرى للشرق على النحو الذى يتفق مع العقلية الغربية حتى وإن كانت هذه الصورة لا تتفق مع صورة الشرق من الناحية الواقعية، بل إن الاستشراق لا يكتفى بذلك؛ بل إنه يسهم في تكوين فكرة الشرق عن نفسه بما يتفق مع الفكرة الغربية عنه . ويربط الكاتب بين الاستشراق – بهذا المعنى الثالث – وبين اتجاه الغرب إلى استعمار الشرق منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وما بعده . وينطبق ذلك –بصفة خاصة – على الاستشراق البريطانى والفرنسى، ثم الاستشراق الأمريكى الذى سار على خطاهما [1] .

---

(١) انظر : الاستشراق لإدوارد سعيد، مرجع سابق ص ٣٨ ، ٣٩ .

ويمكن تعريف الاستشراق – زيادة على ما سبق– بأنه البحث لعلمى الذى يكتبه باحثون غربيون، غير مسلمين عن الإسلام والشرق الإسلامى، ويتسع مثل هذا التعريف ليشمل كل جوانب الدراسات الاستشراقية المتعلقة باللغة والأدب والحضارة والتاريخ والعقيدة والشريعة وعلومها، إلى غير ذلك من التخصصات التى يتسع لها الشرق الإسلامى أو يتسع لها الإسلام [١] .

ثانياً : تاريخ نشأة الاستشراق :

يختلف الدارسون في تحديد التاريخ الذى ظهرت فيه البدايات الأولى للاستشراق .

ومن هؤلاء من يعود بهذه النشأة إلى أواخر القرن العاشر، وأوائل القرن الحادى عشر للميلاد، وتقترن النشأة لديهم – بصفة خاصة – بشخصية سلفستر الثانى (٩٩٩-١٠٠٣ م) بابا الكنيسة الكاثوليكية بروما، وهو راهب فرنسى، ذهب إلى أسبانيا التى كانت ما تزال تحت حكم الإسلام في ذلك الوقت، وتعلم فيها، ثم ارتقى في المناصب الكنسية حتى أصبح راعى الكنيسة الكاثوليكية في روما، وقد أمر بإنشاء مدرستين عربيتين إحداهما بروما والثانية في فرنسا [٢] .

---

(١) ويلاحظ أن هذا التعريف يُخرِج من نطاق الاستشراق الباحثين الذين يرجعون إلى أصول شرقية كاللبنانيين أو السوريين أو المصريين مثلا لأن هؤلاء شرقيون لا مستشرقون، ثم هو يشترط أن يكون الباحثون الغربيون غير مسلمين، لأن الباحثين الغربيين المسلمين يوصفون – بعد إسلامهم – بوصف الإسلام لا بوصف الاستشراق . انظر: نظرات في حركة الاستشراق، لكاتب هذا البحث، دار الثقافة العربية ١٩٩٠ ص ١٥ – ١٧ .

(٢) انظر : المستشرقون، نجيب العقيقى، دار المعارف ط ٤ / ١٩٨١ ج ١/ ١١٠ ويمكن القول بأن الجهود التى وُجدت فى ذلك الوقت كانت تتركز على الترجمة من اللغة العربية التى كانت لغة العلم الأولى آنذاك إلى اللغة للاتينية أو غيرها ، وأن نصيب البحث والدراسة كان قليلاً ، ومن ثم لم يكن للاستشراق بمعناه الاصطلاحى نصيب ملحوظ .

ومنهم من يعود بنشأة الاستشراق إلى القرن الثانى عشر للميلاد وما بعده، حيث ظهرت شخصيات كان لها إسهام قوى في وجوده وتحديد وظائفه، وبروز ملامحه وظهور تأثيره . ومن أهم هذه الشخصيات :

أ-روجر بيكون الإنجليزى (١٢٩٤ م) الذى اشتهر بجهوده في إرساء قواعد المنهج التجريبى في أوروبا، وقد نهل من معين الثقافة العربية، ودعا إلى ترجمة كتبها والإفادة مما فيها من علوم ومعارف وفلسفات . وكانت له مكانة علمية كبيرة في تاريخ الثقافة الأوروبية، وكان يوصف بأنه أمير الفكر في العصور الوسطى، ولم تقتصر جهود بيكون على هذا الجانب، بل إنه كان من أهم الذين أسهموا في بناء علم الاستشراق .

وقد ظهر ذلك في تلك الوثيقة التى عرضها على البابا في روما ، وتحدث فيها عن وضع المسيحية في العالم، وعن مقترحاته لإصلاح أحوالها، والمنهج الذى ينبغى اتباعه لتنفيذ تلك المقترحات .

وجاء في هذه الوثيقة أن عدد المسيحيين في العالم قليل، بالنسبة لغيرهم من أتباع الأديان الأخرى، ويرجع ذلك – في رأيه- إلى تقصير المسيحيين في التبشير بدينهم . وقد ذكر أن الحروب العسكرية ليست هى الوسيلة المثلى لنشر المسيحية، بل إن الدعوة السلمية أعظم منها فائدة وأكثر جدوى. ولكى يتحقق ذلك فلابد من المعرفة بلغات الشعوب التى يراد التبشير بينها، ثم معرفة عقائدها، مع وضع المناهج الصحيحة للتأثير فيها.

وقد دعا إلى ضرورة إنشاء علم جديد يحقق هذه المطالب، ويعمل على استخدام الفلسفة الدينية أو اللاهوتية في مواجهة أعداء المسيحية وخاصة الإسلام، الذى وصف مواجهته بأنها أصعب المواجهات . وقد بدأ هو نفسه، فأورد – في وثيقته التى بلغت أكثر من ألف صفحة- عدداً كبيراً ومتنوعاً من

الحجج والبراهين التى رآها كفيلة – من وجهة نظره – بمواجهة الإسلام ونقضه [1] .

وليس هذا العلم الجديد الذى دعا بيكون إلى إنشائه إلا علم **الاستشراق** ، الذى كان يحمل منذ اللحظات الأولى لميلاده هذه الغاية التبشيرية الواضحة . وفي ذلك يقول المستشرق الألمانى بارت : " وكان الهدف من هذه الجهود فى ذلك العصر (= القرن الثانى عشر وما بعده) وفى القرون التالية هو التبشير، وهو إقناع المسلمين – بلغتهم – ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحى " [2] .

ب- ريموند ليل الأسبانى (ت ١٣١٦ م) ، وقد كان من أكثر معاصريه حمية ونشاطاً لنصرة المسيحية، وكنت أمنيته الكبرى هى إدخال المسلمين فيها، وقد انشغل بالتبشير بين المسلمين، وقام بالوعظ المباشر في شمال إفريقيا وخاصة في تونس [3] ، وكتب عددا من الكتب في الرد على الإسلام، ومجادلة المسلمين .

وقد كان من أهم جهوده في نشأة الاستشراق، أنه قدم اقتراحاً في عام (١٣١١ م) إلى المجمع الكنسى الذى عقد في فينا، يطلب فيه إدخال الدراسات الشرقية في عدد من الجامعات الأوروبية، وقوبل اقتراحه بالقبول والموافقة . وكان من بين اللغات التى ووفق على دراستها : اللغة العربية التى عين لها أستاذان لدراستها في عدد من الجامعات الأوروبية في فرنسا وبولونيا وإيطاليا وأسبانيا، وكان من مهامهم ترجمة بعض النصوص العربية

---

(١) انظر : صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، لريتشارد سوذرن، ترجمة د . رضوان السيد، مجلة الفكر العربى، عدد ٣٢ ، ص ٣٢ – ٣٦ ، ١٩٨٣.

(٢) الدراسات العربية الإسلامية .. بارت ، مرجع سابق ، ص ٩.

(٣) وقد قام المسلمون في تونس برجمه حتى الموت بسبب تطاوله الصارخ على الرسول ﷺ.

للرد على منتقدى الدين . ومنذ صدور قرار مجمع فينا (١٣١٢م) بمشـورة ريموند ليل أصبح إسهام الكنيسة الغربية الكاثوليكية فـي دعـم الاستشـراق إسهاماً رسمياً منظماً، حيث ظل هذا القرار أصلاً من أصول القانون الكنسـى أكثر من خمسمائة عام [١] .أى إلى مشارف العصر الحديث .

وشاركت الجامعات الأوروبية في هذا الشأن، وخاصة منذ أواسط القرن التاسع عشر، حيث أصبح لكل جامعة مهمة في أوروبا منهج متكامـل فـي واحد ، على الأقل ، من فروع الدراسات الشرقية، وكان ذلك يعنـى الـدعم المادى والمعنوى للدراسات الاستشراقية التى كانت تنشر دون عقبات.

ولم تتأخر الدول الأوروبية عن القيام بدورها في الدعم والمعاونة .وكان لفرنسا وإنجلترا خاصة – ثم أمريكا فيما بعد – القسـط الأكبـر فـي هـذا المجال [٢] .

ثالثاً : أهداف الاستشراق :

الاستشراق نشاط ذو تاريخ طويل قديم، يصل – عند بعض الدارسين – إلى نحو عشرة قرون، وقد ظهر في بلاده وثقافـات متعـددة، وأسـهم فـي نشاطه – على امتداد القرون – أشخاص ومؤسسات دينية ومالية وحكومـات ودول . ومن المتوقع – إذن – أن تكون له أهداف كثيرة متعددة . ومن هـذه الأهداف ما يلى :

أ-الهدف العلمى :

وهو يتضمن مجالات متعددة، من بينها :

---

(١) انظر : المستشرقون للعقيقى (١ / ١٢٢) .

(٢) انظر : الاستشراق، لإدوارد سعيد (٢٠٣) ويلاحظ أن بعض المستشـرقين أخـذوا ينفرون من هذا الاسم، وأصبحوا يفضلوا عليه اسم مستعرب، أو خبير إقليمى ولكـن الاسم القديم مازال له أنصاره .

أ-الوصول إلى فهم أفضل للحضارة الغربية وأصولها، وذلك عن طريق فهم الشرق الذى شهد بعث الديانة المسيحية النصرانية، التى انتقلت على يد بعض تلاميذ المسيح عليه السلام إلى أوروبا ،وأصبحت أصلاً من أصول حضارتها، منذ القرن الرابع للميلاد ، منذ أن آمنت الإمبراطورية الرومانية بالمسيحية.

ولما كانت المسيحية تعتمد على التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام فإن فهم المسيحية أصبح لا يقتصر على دراسة الأناجيل وغيرها من كتب العهد الجديد، بل إن ذلك لا يكتمل إلا بدراسة التوراة وكتب العد القديم التى نزلت على أنبياء بنى إسرائيل قبل عيسى عليه السلام . وكان ذلك يتطلب دراسة لغتها وتاريخها وتشريعاتها وشروحها، وهكذا كان العلم بأصول الحضارة الغربية يقتضى فهم أصولها الدينية ذات الأصول الشرقية .

ثم كان فهم أصول الحضارة الغربية يتطلب – كذلك – فهم روافدها العربية التى انتقلت –عن طريق الترجمة – إلى اللغة اللاتينية التى كانت لغة أوروبا كلها في عصورها الوسطى، وقد كان لهذه الترجمة – التى كانت من أهم حركات الترجمة في التاريخ – أثر كبير في ثقافة أوروبا وعلومها وفلسفتها وفكرها . وكان من أهم آثارها في مجال الحركة العلمية أن تحول المنهج المستخدم في دراسة العلوم الطبيعية من المنهج الأرسطى القديم – الذى سبق المسلمون إلى نقده ،وبيان بعض أوْجُه القصور فيه – إلى المنهج التجريبى المتبع حتى الآن ، والذى يعد أصلاً للتقدم العلمى في أوروبا .

وكان من أهم آثار حركة الترجمة هذه في مجال الفلسفة أن ظهرت في أوروبا تيارات فلسفية تنتمى إلى ابن سينا وابن رشد، وكان العلم بهذه التيارات الفلسفية يقتضى الرجوع إلى أصولها العربية الإسلامية. وهكذا كان

الشرق – من زوايا متعددة – وسيلة وضرورة لفهم الغرب وأصول حضارته .

ب- فهم الشرق ذاته، بوصفة غاية لا مجرد وسيلة لفهم الغرب؛ لأن اتصال أوروبا بالشرق –عن طريق التجارة والحروب والترجمة والاستعمار – كشف لها عن حضارته المتميزة وعراقته التاريخية، وبدأ ذلك في مجال الدراسات اللغوية، التى أحس علماؤها بأن الشرق هو مهد الحضارات، سواء أكان ذلك الشرق هو الهند أم مصر، وأدى ذلك من الناحية العلمية " إلى ضرورة الشرق فكرياً للباحث الغربى في اللغات والثقافات والأديان " [١] .

وقد اتجهت عناية المستشرقين إلى فهم الشرق الإسلامى – بصفة خاصة –لأسباب عديدة، منها قربه الشديد من أوروبا، وعلاقته المتوترة معها منذ أن اتسع – قديماً– على حساب مستعمراتها وأراضيها، ثم لمعرفة الإسلام الذى أسس الحضارة الإسلامية السائدة في الشرق، وكان هذا كله يدعو إلى الاهتمام بالعالم الإسلامى وحضارته، لاكتشاف مصادر قوته، وتحديد أسباب تماسكه، ومعرفة أسباب الخطر الكامنة فيه .

ولكي يتحقق هذا الفهم لكل شيء يتعلق بالإسلام وفكره وحضارته، جاء الاهتمام باللغة العربية ونصوصها وأدبها وما ظهر فيها من كتب ومخطوطات، وأعلام وشخصيات، للاستعانة به فى دراسة الإسلام وعلومه وثقافته .

وقد شغل الاهتمام باللغة وأدبها حيزاً كبيراً من جهود المستشرقين وأنجزوا في هذا المجال إنجازات كثيرة، من حيث التعريف بالمخطوطات وأماكن وجودها، ومن حيث تحقيقها، ووضع الفهارس العلمية الدقيقة لها ،

---

(١) الاستشراق : إدوارد سعيد، ص ١٥٦ ، ١٥٧.

على نحو ييسر لقارئها سرعة الوصول إلى ما يريده منها دون عناء . وقد زخر كتاب مثل كتاب " المستشرقون " لنجيب العقيقى بذكر كثير من هذه الأعمال، ويكفى أن عناوينها – فقط – تملأ العشرات والعشرات من الصفحات .

وقد أضافوا إلى ذلك وضع المعاجم اللغوية (١) ، كما وضعوا الكتب في تعلم الغربيين للغة العربية، والتعريف بقواعد النحو العربى والفارسى و اللغة التركية (٢) . كما وضعوا المعاجم المفهرسة التى تساعدهم على معرفة مواضع آيات القرآن وحديث الرسول ﷺ، ومن أشهرها: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى (٣) .

وقد ترجموا كثيراً من الكتب العربية في فنون وفروع مختلفة من فروع الثقافة العربية والإسلامية .

وربما كان أصحاب هذا الهدف العلمى أقل عدداً من سواهم من ذوى الأهداف الأخرى (٤) ، وربما وقعوا في بعض الأخطاء (٥) ، بسبب عجزهم

---

(١) انظر مثلاً : طبقات المستشرقين للدكتور عبد الحميد صالح حمدان، نشر مكتبة مدبولى : د . ت ، ١٦ ، ١٨، ٣٢، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٧١، ٧٢ – ٧٤ ومواطن أخرى .

(٢) السابق ، ص ١٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٦٥ ، ٧٠، ٧١ ، ٩٢ ، ومواطن أخرى .

(٣) وانظر كذلك، المرجع السابق، ص ٦٣ ، ومن الحق أنهم وضعوها لأنفسهم ، ولكن المسلمين ينتفعون بها كذلك .

(٤) انظر : الاستشراق والخليفة الفكرية للصراع الحضارى، د . محمود حمدى زقزوق . كتاب الأمة، قطر ، ط ١ / ١٤٠٤ هـ ، ص ٧٤ .

(٥) انظر : نماذج منها في : المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامى، للدكتور عبد العظيم الديب، كتاب الأمة، قطر ١٤١١ هـ ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، والمراجع الموجودة بهما .

عن فهم أسرار اللغة العربية التى لم تكن لغتهم الأصلية ، وهى تستعلى بما فيها من الدقائق والأسرار عليهم، بل على بعض أهلها ، واللوم لا يكون على العجز بل على الإدعاء والتعمد وسوء القصد، ولعل العاملين في حقل العلم - بقصد العلم - كانوا أقرب من سواهم إلى الإنصاف وأبعد من العصبية، ولعل اللغة العربية قد ملكت على بعض منهم قلوبهم ، وأسَرَتهم بما فيها من دقة وسعة وجمال ، فصانتهم من كثير مما وقع فيه سواهم من ذوى الغايات والمقاصد الأخرى، وليس من خلق الإسلام أن نسوى بين ذوى الغايات والمقاصد المختلفة أو أن نضعهم - جميعاً - في كفة واحدة، والله تعالى يقول : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾(المائدة:٨) .

٢-الهدف الدينى :

ويمكن اعتباره أهم الأهداف التى قام الاستشراق لتحقيقها، حيث أصبح الاستشراق أداة ووسيلة من الوسائل التى استعانت بها النصرانية والكنيسة الغربية في صراعها مع الإسلام بقصد إضعافه ، واختراق حصونه ، وتحقيق هزيمته والانتصار عليه .

وقد اتجه الاستشراق هذه الوجهة، متأثراً بالظروف التى نشأ فيها، فقد نشأ في عصر الحروب الصليبية، ووصل إلى درجة كبيرة من الاستقرار والتنظيم في أواخرها وفي أعقابها.

وقد كان من أهداف الحروب الصليبية الهيمنة على العالم الإسلامى وكسر شوكته، وسعت أوروبا سعياً حثيثاً - بكل ما تملك من قوة - إلى تحقيق أهدافها، طوال قرنين من الزمان، جندت فيهما جيوشاً جرارة، ودفعت نفقات باهظة، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً وارتدت على أعقابها، وأدى ذلك إلى شعورها بالمرارة والكره العميق للإسلام ، وكانت هذه الحروب " هى التى عينت - في المقام الأول والمقام الأهم موقف أوروبا من الإسلام لبضعة

قرون " [1] وحاولت أوروبا أن تحقق أهدافها بوسائل أخرى غير الحروب العسكرية التى انهزمت فيها، ومن ثم لجأت إلى التنصير " [2] ، كما لجأت إلى الاستشراق، فكلاهما – عند هذا الفريق من المستشرقين – يهدف إلى تحقيق نفس الأهداف والغايات .

ومما يؤكد الترابط بينهما – خاصة في المراحل الأولى للاستشراق – أن أكبر الدعاة إلى تأسيس الاستشراق كانوا من أكبر الدعاة إلى التنصير أيضاً، ولذا نجد جهود هذه الأسماء موزعة بين النشاطين. فبطرس المحترم وروجر بيكون وريموند ليل .. وأمثالهم كان لهم هذا الدور المشترك في المجالين معاً . وإذا كان ريموند ليل هو الذى دعا إلى إنشاء كراسى في الجامعات الغربية لدراسة اللغات الشرقية ومنها اللغة العربية فإنه – هو نفسه– قد تولى مهمة التنصير بين المسلمين في الأندلس وفي شمال إفريقيا . وقد كتب المبشرون في العصر الحديث كتباً عنه معترفين له فيها بالفضل ومقرين له بالريادة والسبق [3] .

ومما يدل على الترابط والتكامل بينهما كذلك أن من ضمن المناهج الدراسية في بعض الكليات المعنية بالتنصير : الردود على الإسلام بدراسة كتب المستشرقين [4] .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، لمحمد أسد (ليوبولد فايس) ترجمة د . عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١ ، ص ٥٥ ، وانظر ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) انظر ما كتب عن التنصير وأسبابه فيما سبق .

(٣) انظر الاستشراق للدكتور السامرائى ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ومقالة رودنسون في تراث الإسلام (مرجع سابق) (١ / ٥٠، ٥١) .

(٤) انظر : المستشرقون والمبشرون لإبراهيم خليل أحمد، مرجع سابق، ص ١٤ وانظر كذلك قائمة المراجع المختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين، ففيها عدد غير قليل من كتب المستشرقين . انظر التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامي، ص ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨٥ ، الخ .

وورث الاستشراق هذا الشعور بالمرارة والكراهية للإسلام ، كما ورث الدوافع الدينية الوافدة إليه من الكنيسة والتنصير .

وزادت حدة هذه الدوافع بسبب ما انتشر في أوروبا من مخاوف جديدة بعد الفشل الذى حل بها في الحروب الصليبية، فقد أتاحت هذه الحروب لأوروبا أن تعرف الشرق الإسلامى عن كثب، وأن ترى فيه حضارة مزدهرة، وحركة علمية متفوقة، وكانت هذه الصورة تتفق - في مضمونها - مع الصورة الأخرى التى قدمتها حركة الترجمة التى قامت في الأندلس وصقلية لترجمة علوم المسلمين، وهى تكشف عن تقدم علمى وحضارى لم تكن أوروبا قد بلغته؛ وقد سرت في أوصال قادة أوروبا وزعمائها مخاوف من أن تُعْجَبَ الشعوب الأوربية بالإسلام، وأن تتخلى عن النصرانية، بعد أن التقت بالإسلام وجهاً لوجه، ويعبر مكسيم رودونسون عن ذلك بقوله " لقد كان المسلمون خطراً على الغرب قبل أن يصبحوا مشكلته، كما كانوا في نفس الوقت عامل اهتزاز شديد في بنيان الوحدة الروحية للغرب، وأنموذجاً حضارياً يمتاز بتنافسه، وبحركته الإبداعية المتسارعة، وقدرته الهائلة على الانفتاح والاستيعاب؛ إذ أنه - وفي مواجهة تقدم هذا النموذج .. عبر مثقفو- الغرب عن شعور عام بالاندهاش أمام الإسلام، وبدا ذلك لهم وكأنه خطر على المسيحية " (١) .

وأدى ذلك الاندهاش و الشعور بالخطر إلى نتيجتين هامتين لدى الأوروبين : **أولاهما** : السعى نحو وحدة أيديولوجية متكاملة في مواجهة فكر الإسلام وحضارته، **وأخراهما** : أن الكنيسة الأوروبية قد عملت على تشويه المنتجات الحضارية للإسلام (٢) وتولى القيام بهذه المهمة طلائع المستشرقين،

---

(١) انظر : مقالة، د . على الشامى، بعنوان : الحركة الصليبية وأثرها في الاستشراق الغربى، مجلة الفكر العربى، عدد ٣١ - بيروت ١٩٨٣ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣.

(٢) السابق : الموضع نفسه .

الذين كانوا مبشرين في الوقت نفسه، وتولى هؤلاء تكوين هذه الصورة المشوهة التى اصطنعوها من تعاليم الإسلام وتاريخه بحيث تكون حائلاً يحول بين أوروبا والإسلام، مطبقين بعملهم هذا صورة من صور الالتواء العقلى " [١] .

وكان هذا يعنى أن الأهداف العلمية التى سبقت الإشارة إليها لم تكن هى الأهداف الوحيدة التى دعت إلى تأسيس الاستشراق وأسهمت في تطوره؛ بل كان الهدف الدينى عاملاً قوياً، إن لم يكن أقوى العوامل في قيام الاستشراق ونشاطه . ومن هنا يستطيع " كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الهدف الدينى كان وراء نشأة الاستشراق . وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية " [٢] .

وهكذا تراجعت الأغراض العلمية تحت وطأة الصراعات التاريخية والأحقاد الدفينة، والإحساس بالمرارة والخوف، وألقت هذه الظروف كلها بظلها على البحوث العلمية التى اتسمت بالالتواء العقلى كما يقول محمد أسد [٣] ، وكانت الثمرة الطبيعية لذلك أن تسللت روح العداوة التى أذكتها الحروب الصليبية إلى البحث العلمى في مجمله . وفي هذا يقول محمد أسد : " إن الشر الذي بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح، ولكنه كان قبل كل شيء، وفي مقدمة كل شيء، **شراً ثقافياً** . لقد نشأ تسميم العقل الأوروبى، عما شوهه قادة الأوروبيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا، أمام الجموع الجاهلة في الغرب " [٤] .

---

(١) انظر : الإسلام على مفترق الطرق، ص ٦٠ .

(٢) الاستشراق : إدوارد سعيد ، ص ٢٦٥ .

(٣) انظر : الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٦٠.

(٤) السابق : ص ٥٨ .

وظهرت آثار هذا الشر الثقافى، أو هذا العمل الذى كان يعد نوعاً من كفاح ضد الإسلام والعروبة كما يقول المستشرق الألمانى يوهان فوك [1] في مجالات كثيرة وجوانب متعددة من أعمال المستشرقين :

أ-ففى حديثهم عن القرآن الكريم أنكروا – قاطبة-أنه وحى إلهى كما يعتقد المسلمون، ونظروا إليه على أنه يرجع إلى الرسول ﷺ ، وأنه أثر من آثار عبقريته، أو أنه نتيجة لما كان كامناً في شعوره، كما يقول علماء النفس في تفسيرهم للأحلام [2]، وقال فريق منهم إن الرسول قد تأثر فيه بما تعلمه من اليهود والنصارى، وبما استبقاه من تقاليد الوثنية العربية، وبما عرفه من وثنية فارس [3] .

وما دام القرآن – بحسب زعمهم – راجعاً إلى مصادر متعددة، فإنه ليس بمستغرب أن يكون مليئاً بالتناقض؛ لأن النبى – كما يّدعون – لم يسر في تشريعه على نظام مقرر؛ بل كان يصدر الأوامر، حسبما تمليه عليه الظروف، فإذا تغيرت الظروف فإنه يقوم بتغيير التشريع، وإذا أدى هذا إلى شيء من التناقض أزاله بوحى جديد، ينسخ القديم . وممن قال بذلك ول ديورانت وجولد زيهر وآخرون [4] .

---

(١) انظر : مقدمة د .مصطفى ماهر لكتاب: الدراسات الإسلامية في ألمانيا، ص ٤.

(٢) انظر : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، لمونتجمرى وات، ترجمة د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ص ٢٠٥ - ٢١٤ .

(٣) انظر مثلا :العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد زهير، ترجمة د . محمد يوسف موسى وآخرين ، نشر دار الكتب الحديثة ، مصر، ومكتبة المثنى ببغداد ، د . ت ص ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤١ وصفحات أخرى . وانظر كذلك : علم الأديان وبنية الفكر الإسلامى، جب ، ترجمة د . عادل عوا، طبع عويدات (ط ١٩٧٧/١) ص ٩٢، ٩٣ ، ٩٥ وما بعدها .

(٤) انظر : العقيدة والشريعة، مرجع سابق، وقصة الحضارة ترجمة محمد بدران، لجنة التأليف والترجمة، ط (٣ / ١٩٧٤) مجلد ٤ / ج ٢ ص ٤٢ .

وقد وقع في ذلك توماس كارلايل الذى نظر إلى الرسول- ﷺ- على أنه مثال للبطل في صورة نبى، ولكنه كان يرى – في الوقت نفسه – أنه مؤلف القرآن . وقد وصف القرآن بأنه : " خليط مهلهل مشوش، ممل خام، مستغلق، تكرار لا نهاية له .. لا يطاق " (١) .

قد وُصِفَ القرآن كذلك بأنه لا يحمل منهجاً عقلياً، بل إنه يرفض كل بناء عقلى؛ أما الذى أسس هذا المنهج في الإسلام وثقافته فهم علماء الكلام . وأنه يخلو- كذلك – من الجوانب الروحية التى لم تنشأ في الإسلام إلا على أيدى الصوفية، ثم يشكك بعضهم في توثيق النص القرآنى، حيث لم يدون- فى رأيهم – إلا بعد نزوله بكثير، وأنه ليس من المؤكد – لديهم – أنه قد بقى على ما كان عليه، وأنه لا يعلم تماماً : هل أدخل فيه شيء من الحديث أو لا ؟ (٢) .

أما جمع القرآن فهو مثار شك لدى كثير من الدراسيين الأوروبيين (٣) .

ولم تَشِذَّ ما جاء عن القرآن الكريم في دائرة المعارف الإسلامية التى كتبها المستشرقون عن هذه الآراء أو التفسيرات السابقة، وليس هذا بغريب؛ لأن أهداف هذه الدائرة هى عينها أهداف الاستشراق أو هى تلتقى معها فى شطر كبير منها (٤) .

ب-وإذا كان القرآن الكريم – الذى هو الأصل الأول للإسلام والحجة العظمى على نبوة الرسول- ﷺ – قد تعرض لهذا السيل من الآراء

---

(١) الاستشراق إدوارد سعيد، ص ٦٩ ، وقارن ترجمة محمد السباعى، لكتاب الأبطال ، طبع دار الهلال ١٩٧٨ م ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١ / ٩٧) .

(٣) انظر : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر، ص ٦٠، ٦٢ وما بعدها .

(٤) انظر : القرآن الكريم، د . عبد المجيد النجار، طبع الإيسيسكو ، الرباط ١٩٩٧ ص ١٣ ، ص ٢١،٢٢ .

والاتهامات – فإن الحديث قد نال – أيضاً – حظه منها، وكان من بين ما قيل عنه إن الحديث ليس من كلام النبي ﷺ؛ بل إنه من وضع الفقهاء الذين أرادوا أن يجدوا فيه سنداً لآرائهم واجتهاداتهم الفقهية . كذلك قيل إنه – مع التسليم بأنه من قول الرسول – قد تأخر تدوينه إلى القرن الثالث الهجرى، مما أتاح الفرصة للوضع والدس فيه ، وأن ما قام به علماء الحديث من جهود لتنقية الحديث من الوضع لم يفلح في صيانته مما تسلل إليه على أيدى الوضاعين. ويكاد الباحثون من هؤلاء المستشرقين يجمعون على هذه الآراء في نظرتهم إلى الحديث النبوى [1] .

وإذا كان الإسلام يرجع إلى القرآن والسنة، فإن التشكيك فيهما – على هذا النحو لدى المستشرقين – يعنى هدم الإسلام والقضاء عليه، والنظر إليه على أنه يقوم على استعارة، لا ضابط لها، ولا قيود عليها، من الديانات والحضارات السابقة، كاليهودية والنصرانية، واليونانية والرومانية والفارسية، بل من الوثنيات العربية قبل الإسلام . وهكذا يتحول الإسلام إلى ثقافة تقوم على الاقتباس الكامل أو السرقة من الثقافات السابقة [2] .

ج–أما الرسول– ﷺ –فقد ناله نصيب وافٍ من الأوصاف والاتهامات الباطلة، والتطاول الفاحش على مقامه الكريم، وسرى في كل هذا الذى قالوه عنه تحامل واضح لا يستقيم مع مقتضيات المنهج العلمى الصحيح، أو الموضوعية النزيهة، ومما يثير الدهشة والأسى أن تلك الصورة الزائفة التى تحدثوا بها عن الرسول الكريم تمتد إلى عهد بعيد في الماضى، وأنها استمرت إلى عهد قريب، وأنها تعرضت لقدرٍ لا مثيل له من التهجم

---

(١) انظر مثلاً : العقيدة والشريعة : ص ٣١ ، ٣٥ وقصة الحضارة مجلد ٤ جـ ٢ / ١٤٨ وحاضر العالم الإسلامى (١/ ٤٤) والإسلام والغرب، روم لاندو، ترجمة د . عمر فروخ ، دار العلم للملايين ط ١٩٨٣/٣ ، ص ١٩٠، ١٩١ إلى مراجع أخرى .

(٢) انظر : إدوارد سعيد ٢٩٦، ٣٠٣.

والتشويه والإساءة . وكان الطعن فيه طعناً في الإسلام ورسالته في الوقت نفسه .

وكان من جملة ما قيل عن الرسول - ﷺ - وحاشاه :

* أنه تعلم القرآن من بحيرا الراهب، واتفق معه على تضليل العرب .
* أنه هو الذى اختلق الوحى والقرآن .
* أنه كان كاردينالا كاثوليكيا ، وكان يطمح أن يفوز بمقعد البابا في روما، فلما خذله الكرادلة غضب، وذهب إلى مكة وادعى النبوة، مبشراً بدين جديد مضاد للمسيحية .
* أنه وضع كتاباً لهذا الدين بمساعدة اثنين من اليهود وأحد النصارى من اليعاقبة .
* أنه كان مصاباً بالصرع ومس الشيطان (!!) .
* أنه ساحر كبير استطاع عن طريق السحر والخداع تحطيم الكنيسة في إفريقيا وفي الشرق، وأنه تنازل عن كثير من قواعد الأخلاق لكسب مزيد من الأتباع .
* ادعوا ادعاء كاذباً بأن محمدا - ﷺ - درب حمامة على التقاط حبوب القمح من أذنه، ولما كانت الحمامة - عندهم - تعد رمزاً للروح القدس [1] فإنهم ادعوا أن تلك الحمامة المدربة هى روح القدس الذى كان يوحى له بالقرآن .
* أن محمداً - في زعمهم - لم يأت بعقيدة التوحيد، بل إنه جاء بمثل ما جاءت به النصرانية من تثليث، وأن المسلمين يعبدون ثلاثة أصنام كبرى من بينها الرسول .

---

(١) انظر : إنجيل متى : (٣/٢٢) .

*أنه كان شهوانياً، وأن زواجه من زينب بنت جحش - رضى الله عنها، وهى مطلقة مولاه زيد بن حارثة - كان أشبه بالزنا [1] .

وقد كتب شبرنجر (ت ١٨٩٣ م) كتاباً عن حياة الرسول - ﷺ- وتعاليمه، انتهز فيه كل فرصة ليوجه النظر -كما يقول - إلى نواحى الضعف الإنسانية في شخصيته، واعتبر أن كل كاتب لسيرته تنحصر مهمته في أن يستخرج عيوب ومثالب هذه الشخصية من بين المديح الذي يحيط بها [2] .

ومن الواضح أن هذه التصورات - على تناقضها وتضاربها - تخلو من أدنى قدر من الصدق والإنصاف والموضوعية، بل إنها كانت تعبيرا عن أحقاد غائرة في نفوس كاتبيها، وأنها تكشف عن موقف محدد سلفاً قبل بداية أى بحث، ومن هنا : " كانت تصطدم بحكم سابق يتمثل في أن هذا الدين المعادى للمسيحية (= الإسلام) لا يمكن أن يكون فيه خير " [3] .

ومما يدل على عمق مشاعر الكراهية والتعصب أن هذا الموقف لم يقتصر على ما قام به كثير من هؤلاء المستشرقين في دراستهم للقرآن

---

(١) انظر : الإسلام والمسيحية، تأليف اليكسى جورافسكى، ترجمة د . خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٦ م في صفحات كثيرة جداً، وقد أعرضنا عن ذكر بعض ما جاء فيه تصوير لآراء النصارى- عن الرسول الكريم - بصفة عامة في العصور القديمة والوسطى، والمستشرقين بصفة خاصة لشدة فحشه وقسوته . وانظر مثلاً : ص ٦٧ ، ٧١، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٧ ، ٧٩ ، ١٠٠، ١٠١ . وانظر كذلك : الاستشراق للسامرائى ، ص ٥٥ ٥٦ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٨ وحاضر العالم الإسلامى (١ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٤ -٩٦) ، والاستشراق لإدوارد سعيد ٩١ ، ٩٢ ، ٦٩ ، ٩٧ ، وتراث الإسلام : مقالة رودنسون ٣٤/١ ، ٣٥ ، وانظر مقاله د/هشام جعيط ، مجلة الفكر العربى عدد ٣٢ ، ص ٢٢٢ وما بعدها . ومراجع كثيرة أخرى.

(٢) انظر : كتاب رودى بارت ، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٣) السابق ، ص ٩ ، ١٠ .

والسنة وسيرة الرسول - ﷺ- بل إن الأمر كان - كـذلك - ملحوظـا فيمـا يتعلق بدراسة اللغة العربية نفسها. ويتضح هذا المعنى فيما قاله عنها جيـوم بوستل (ت ١٥٨١ م) أول من شغل كرسى اللغة العربية في الكـوليج دى فرانس بباريس . " إنها تفيد بوصفها لغة عالمية في التعامل مع المغاربـة والمصريين والفرس والأتراك والتتار والهنود .. ومن يجيـدها يسـتطيع أن يطعن كل أعداء العقيدة النصرانية بسيف الكتـاب المقـدس "!! [١] وأن مـن أهداف إنشاء هذا الكرسى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسـة، والـدعوة إلـى الديانة النصرانية " [٢] .

وتكشف هذه النصوص وأمثالها عن أن الاستشراق كانت لـه أهـداف دينية واضحة، وأنه حمل في أحشائه تلك الوجهة التبشيرية التنصيرية التـى تحدثنا عنها من قبل .

ويمكن القول بأن جانباً من بحوث المستشرقين المحدثين والمعاصـرين قد تخفف - إلى حد ما - من هذا الهدف الدينى، وسعى -بدلاً من ذلك - إلى تعميق الجانب العلمى . ولعل من أسباب ذلـك التحلـى بقـدر أكبـر مـن الموضوعية ، ولعل من أسبابه ضعف الانتماء الـدينى والعصـبية الدينيـة للمسيحية بصفة عامة لدى بعض الباحثين الغربيين في العصر الحديث، تحت وطأة الاتجاهات المادية، والنظريات التطورية فـي علـوم الحيـاة والـنفس والاقتصاد وغيرها، وما أدى إلى ذلك من سيادة الروح العلمانية على حساب العقيدة السائدة، ثم إن كثير من الباحثين في مجال الاستشراق لم يعودوا - في الجملة - من رجال الكنيسة ورهبانها، بل إنهم باحثون مدنيون غير ملتزمين بما كان يلتزم به أسلافهم القدامى من أهداف وغايات .

---

(١) الاستشراق، د . زقزوق ، ص ٣٠.

(٢) السابق ، ص ٣٠ .

ولعل من أسباب ذلك – أيضاً– أن هذه البحوث التى يقوم بها المستشرقون لم تعد خافية على الأعين، بل إنها صارت معلومة للمسلمين في لغاتها الأصلية أو بعد ترجمتها إلى اللغة العربية وغيرها من لغات الشعوب الإسلامية، ومن ثم يمكن مناقشتها والرد عليها رداً علمياً صحيحاً موثّقاً .

ولكن ذلك لا يعنى أن الهدف الدينى قد اختفى تماماً، بل إنه مازال يعمل من وراء ستار، بوعى أو بغير وعى [1] ، ومن هنا يلاحظ أى باحث موضوعى كما يقول أحد الباحثين المعاصرين : " إن الأغلبية المطلقة من مستشرقى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية .. [2] .

٣-الهدف السياسى :

إذا كان الهدف الديى يحتل مكاناً هاماً – ظاهراً أو مستتراً –في النشاط الاستشراقى فإن الدافع السياسى – الذى يربط ربطاً وثيقاً بين الاستشراق والاستعمار الغربى للبلاد الإسلامية – كان له – كذلك – أهميته البالغة فى النشاط الاستشراقى .

وقد تأثر المستشرقون في هذا الجانب، كما تأثروا في الجانب السابق أيضاً بموقف حضارتهم من الإسلام، وأطماعها في العالم الإسلامى.

ومعنى ذلك أن المستشرق لا يقوم بدراساته عن الشرق بوصفه باحثاً فحسب؛ بل بوصفه غربيًّا قبل ذلك، " وإنه في اللحظة الحاسمة التى كان فيها

---

(١) انظر : د . زقزوق ، مرجع سابق ٧٢ ، ٧٣ ، ومحمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ص ٦٠ ، والاستشراق لإدوارد سعيد ٢٦٥ .

(٢) الإسلام والمسيحية : جورا فسكى، مرجع سابق، ص ١٠٥ ، وانظر تفسيره لسبب ذلك ، ص ١٠٥، ١٠٦.

على المستشرق أن يقرر ما إذا كان ولاؤه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح اختار المستشرق الغرب، ودائمـاً، منـذ نـابليون، وحتـى اللحظـة الحاضرة " (١) ، ومن هنا " فقد حمل الاستشراق الحديث – في ذاته – معـالم الخوف الأوروبى العظيم من الإسـلام (٢) ، ويعبـر المستشـرق الألمـانى المعاصر ستفان فيلد عن هذا الموقف نفسه قائلاً : " والأقبح من ذلـك (!) أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين ، سخروا معلوماتهم عن الإسـلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقـع مـؤلم لابـد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة " (٣) .

ويعترف بعض المستشرقين – فعلاً – بأن دولهم وأصـحاب المصـالح كانوا يمارسون عليهم ضغوطاً " لدعم النتائج التى تؤدى إلى احتـواء العـالم الإسلامى ، والتشبث به باعتباره منطقة اضطراب حيـث تكمـن اهتمامـات الغرب ومصالحه " (٤) .

*ويمكن تقسيم ما أسهم به المستشرقون في هذا الجانب إلى عدد مـن المراحل، بحسب الطابع الغالب عليها، وإن كانت تتداخل أحياناً . ومن هـذه المراحل :

أ-مرحلة التمهيـد والتخطـيط للاسـتعمار ، وفيهـا تسـتعين الـدول الاستعمارية بكل الأفكار والخبرات والمعلومات التى يقدمها المستشـرقون ، لكى تحدد أهدافها، وتتعرف على المشكلات التى قد تواجهها، وترسم الخطط لمواجهتها، كما تحدد مواطن القوة والضعف فى الـبلاد التـى تسـعى إلـى استعمارها، ونقاط الوثوب والتسـرب إليهـا، مسـتعينة بدراسـات هـؤلاء

---

(١) الاستشراق لإدوارد سعيد، ص ١٠٧، وانظر كذلك ص ١٤٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .

(٢) السابق : ص ٢٥٨.

(٣) الاستشراق ، د . زقزوق ، ص ٤٤ ، وكذا ص ٤٧ .

(٤) السابق : ص ٥٥ .

المستشرقين للبلاد التى يراد استعمارها من حيث التاريخ والعادات، والواقـع الاجتماعى، والنفسى والسياسى ، وكل ما يمكن أن يفيد في رسـم البـرامج والسياسات. وهى دراسات لا يستطيع السياسيون والعسكريون القيـام بهـا، ولكنهم يعرفونها ممن يستطيعون معرفتها وهم المستشرقون .

وتقدم لنا الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت (١٧٩٨ – ١٨٠١ م) مثالاً جيداً، فقد استعان بأفكار المستشـرقين واصـطحب معـه بعضهم، وحدد نابليون ملامح سياسته العامة، والصعوبات التـى يمكـن أن تواجهه بناء على هذه المعلومات التى قدمت له . وكان مـن هـذه الملامـح والمعلومات ما يأتى :

❋أنه كان يعرف أهمية الدين بصفة عامة، كما كان يعرف شدة تمسـك المصريين بدينهم الإسلامى الـذى يـأبى علـيهم الخضـوع للمسـتعمرين، ولذلك اهتم بدراسة الإسلام، كما فكر في الطريقة التى قـد يفيـد بهـا منـه عملياً [1] .

وقد أصدر مرسوماً للمصريين يخبرهم فيه أنه يحترم الإسـلام ونبيـه ويحترم القرآن، وأن الفرنسيين أصدقاء للمسلمين وللسلطان العثمانى، وأنهـم جاءوا ليخلصوهم من ظلم المماليك .

❋حاول نابليون– في منشوره أن يستغل عقيدة القضاء والقـدر ليـوهم المصريين أنه جاء إليهم تنفيذاً لقدر إلهى أرسله ليقضى على دولة المماليـك، وأن كل ما فعله ويفعله إنما هو حكم إلهى لا يرد ، وأن من يقف في وجهـه معارض لمقادير الله تعالى [2] .

---

(١) انظر : بونابرت في مصر، ج كريستوفر هيوولد ، ترجمة فؤاد اندراوس، مراجعـة د . محمد أنيس ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ ص ٧٥ – ٧٧ .

(٢) السابق : ص ٩٧ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

*كان يناقش العلماء -عند لقائه بهم - في القرآن، وكان يطلب منهم تفسير بعض الآيات، ويبدى إعجابه بالرسول - ﷺ-مدعياً أن الرسول خصه بعنايته [1] .

*ارتدى نابليون الملابس التركية التى كان يلبس مثلها العلماء، محاولاً - بذلك - التقرب من المصريين .

وقد اعترف نابليون نفسه بأن هذا كله كان نوعاً من الدجل، وأنه دجل من أعلى طراز، وأنه اصطنع هذا الدجل لأنه السبيل الوحيد إلى النجاح، وكان يقول : " .. .. ورأيتنى أؤسس ديناً، وأزحف إلى آسيا وأنا أمتطى فيلاً ، وعلى رأسى عمامة، وفي يدى القرآن الجديد، الذى كنت سأؤلفه ليلائم حاجاتي " [2] .

ولم تكن هذه السياسة من وحى خيال نابليون وحده، بل شارك في وضعها سياسيون آخرون ، كما أسهم في وضعها مستشرقون أيضاً [3] .

وقد أعطى نائبه كليبر تعليمات مشددة بأن يدير أمور مصر - بعد أن يغادرها نابليون - مستعيناً بالمستشرقين والقادة الدينيين الذين كان باستطاعة المستشرقين أن يستميلوهم إلى جانبهم [4] .

---

(١) السابق ص ٢٥٢ : وعندما ادعى ذلك فاجأه الشيخ الشرقاوى من كبار علماء الأزهر بأن عليه إذا كان صادقاً في هذا أن يعلن إسلامه، ولكنه لجأ إلى المراوغة، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .

(٢) السابق : ص ٩ ، وانظر : ص ٩٦ .

(٣) انظر : السابق ص ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٢١٠ ، ٢٢٨ ، ورسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ محمود شاكر، دار الهلال ١٩٨٧ ، ص ١٥٧، ٢٨٦ .

(٤) الاستشراق لإدوارد سعيد : ص ١٠٨ ، ١٠٩.

ب-كان لبعض المستشرقين – زيادة على ما سبق- جهود في تثبيت الاستعمار ومعاونته على توطيد أركانه ، واستمرار وجوده في البلاد التى استعمرها، وذلك بإمداد الدول الاستعمارية بالمعلومات والنصائح ونتائج البحوث التى يقومون بها، وقد كان بعض هؤلاء يتقلد مناصب رسمية بوزارات الخارجية أو وزارات المستعمرات ومن هؤلاء : دى ساسى، و ماسينيون، وجب، ومرجليوث ، ونيكلسون، وجويدى، ونللينو، وبرنارد لويس، وماكس ميلر.. وغيرهم.

ولعل أبرز مثال لهذا النوع من التعاون يتمثل في المستشرق الهولندى سنوك هور خرونيه (ت ١٩٣٦) الذى أبدى استعداداً عظيماً في خدمة الاستعمار [1] .وقد بذل في سبيل ذلك كل وسيلة ممكنة – حتى ولو لم تكن أخلاقية – ليتوصل إلى ما كان يريده من معلومات وأسرار، وقد تظاهر الرجل بالإسلام ، وتسمى باسم عبد الغفار، وذهب إلى مكة التى ما كان يمكن له أن يدخلها لولا ادعاؤه هذا للإسلام، وقد فُتِحَتْ له به الأبواب المغلقة، ورحب به المسلمون ظناً منهم أنه مسلم مثلهم . واتصل بالعلماء وحضر مجالسهم، ووطد علاقته بهم ، ولاسيما علماء مكة، التى أمضى بها ستة أشهر كاملة، ثم سافر – بعد ذلك – إلى أندونيسيا، وتزوج من ابنة أحد الأمراء المسلمين بها، ثم رجع إلى هولندا ، وتقلد مناصب قيادية فيها، وقد أسهم في رسم سياسة حكومته إزاء المسلمين في أندونيسيا ، وكان مما اقترحه عليها أن تقوم بتدمير العلماء المسلمين الذين يقاومون الاستعمار الهولندى، لأن ذلك سيساعد هولندا على الوصول إلى استعمار بعض الأقاليم التى لم تكن قد استسلمت لهولندا بعد، كما اقترح على الحكومة أن تعمل على إيجاد أحزاب أو تيارات قومية ويسارية، وأن تترك هذه الأحزاب يصارع

---

(١) انظر كتاب : رودى بارت ، مرجع سابق، ص ٣٠ ، ٣١ .

بعضها بعضاً، وقد كانت مشورته هذه من الأسباب التي جعلت أندونيسيا تعانى من آثارها إلى وقت قريب [1] .

ويتفق مع هذا العمل في تثبيت الاستعمار ما قام به بعض المستشرقين من دراسات، بقصد إضفاء المشروعية على الاستعمار، وتصويره على أنه عمل حضارى هدفه الارتقاء بهذه الشعوب المتخلفة، وأن عليها أن تشكر الدول الغازية على ما تقوم به من تضحيات لتحقيق هذا الارتقاء [2] .

ج-تعمل الدول الاستعمارية على استمرار علاقتها بالبلاد التى تستعمرها حتى لو اضطرت إلى الخروج منها، وذلك لتحقيق مصالحها في المجالات السياسية والاقتصادية ونحوها، وتقوم العلاقات الثقافية بدور فعال في هذا المجال، ويتم ذلك عن طريق الترويج لبعض الأفكار القائمة على التبعية، الداعية إلى قبول القيم الغربية، وقد يتولى الدعاية لهذه الأفكار مفكرون من أهل البلاد المستعمَرَة، ولكن البحث فيها يكشف عن أصولها الأجنبية، التى سبق إليها المستشرقون .

وعلى سبيل المثال كان الهجوم على اللغة العربية الفصحى والدعوة إلى إحلال اللغة العامية محلها، أو إلى كتابة الفصحى بالحروف اللاتينية من الدعوات التى ظهرت لدى بعض العرب في العصر الحديث، ولكنهم كانوا مسبوقين في هذه الدعوة بأمثالها لدى بعض المستشرقين من أمثال سبيتا الألمانى، وولمور وولكوكس الإنجليزيين وغيرهم، وكان ما ذهب إليه الشيخ

---

(١) انظر الاستشراق للدكتور السامرائى، ص ١١١ - ١٣٧ ومقالة له عن كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد، نشرت بمجلة عالم الكتب - الرياض ، المجلد الخامس، العدد الأول منه / ١٩٨٤ ص ١٧٢.

(٢) انظر مثلاً : حاضر العالم الإسلامى (٤ /٦ ، ٧ ، ٨ ، ٣٠ - ٣٢) والاستشراق لإدوارد سعيد ، ص ٧٠ ، ٧١ .

على عبد الرازق من رأى حول الفصل بين الدين الإسلامى والحكم أو السياسة صدى للاتجاه العلمانى الذى ساد في أوروبا وما تعلمه على أيدى بعض الأساتذة في انجلترا عندما ذهب إليها وبقى بها نحو عامين . وقد كانت بعض الأقوال التى تثير الشبهات والمطاعن حول توثيق السنة النبوية أو حول بعض الصحابة متأثرة بآراء بعض المستشرقين، ومنهم جولدزيهر، كما أن بعض الآراء التى تعرضت لمسألة توثيق الشعر الجاهلى، ثم امتدت إلى بعض القَصَص الذى جاء في القرآن الكريم غير بعيدة عن التأثر بآراء المستشرقين [١] ، وهكذا .ويمكن أن نجد أشباهاً لذلك فيما ظهر من آراء حول القومية والوطنية، وتحرير المرأة، وما أثير من شبهات حول موضوعات التشريع الإسلامى كالجهاد والرق، والتشكيك في قدرة الإسلام على قيادة النهضة في العالم الإسلامى .. الخ الخ . وهذه الموضوعات نوقشت – في معظم الأحوال – في البيئة الاستشراقية أولا ، ثم انتقلت إلى العالم الإسلامى بعد ذلك .

هذه هى أهم أهداف الاستشراق، وقد اختلط العلم فيها بأهداف أخرى تجعله أقرب إلى مجال التبشير أحياناً، وتربطه بالاستعمار أحياناً أخرى، وربما تغير الوزن النسبى لبعض هذه الأهداف زيادة أو نقصا بسبب ما شهده العالم من تطور ومعرفة، ولكنها ما تزال تلقى بظلالها على الاستشراق في العصر الحديث، مما جعل بعض العاملين في حقله يتبرأون من هذا الاسم بما يحمله من أثقال التاريخ [٢] .

---

(١) انظر : نظرات في حركة الاستشراق ، ص ٧-٩ والمراجع الموجودة بهذه الصفحات .

(٢) السابق : ص ٢٦ ، ٥٦ .

رابعاً : من وسائل المستشرقين لتحقيق أهدافهم :

استخدم المستشرقون كل وسيلة ممكنة لتحقيق أهدافهم، وشـهد القـرن التاسع عشر وما بعده مزيداً من حشد القوى، وتنظيم الجهـود، فقـد أقـاموا المؤسسات العلمية، وأصدروا المجلات المتخصصـة التـى اسـتمرت فـي الصدور عشرات السنين، ولم تكن تتوقف عنه إلا بضرورة قاهرة كالحروب ونحوها [١] .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر أصبح لكل جامعة رئيسية في أوروبـا منهج متكامل في أحد فـروع الدراسـات الشـرقية . وكـان ذلـك يعنـى الدعم المادى للرحلات العلمية ولنشر البحوث[٢] . وقد اتجـه المستشـرقون إلى عقد المؤتمرات العلمية ليكونـوا علـى علـم بمـا يقومـون بـه مـن دراسات [٣] .

وعمل المستشرقون لتحقيق أهدافهم بكل همة، ولعل مما يدل على ذلـك أنهم أصدروا منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين نحو ستين ألف كتاب [٤] ، عدا ما قاموا به مـن البحـوث، ومـا عقـدوه مـن المؤتمرات ، وأصدروه من الأعمال في سـائر مجـالات الثقافـة العربيـة الإسلامية .

---

(١) انظر مقالة رودنسون بتراث الإسلام (١ / ٧٧) .

(٢) الاستشراق لإدوارد سعيد، ص ٢٠٣ .

(٣) السابق، ص ٢٢٠ .

(٤) السابق : ص ٢١٦.

وقد توفر لهذه الجهود عدد من الخصائص، منها :

أ-العمل الجماعى المتكامل الذى يفيد فيه كل واحد منهم من جهود سابقيه، ولذلك لا تتبدد الجهود، ولا يضيع الوقت، ولا تتكرر الأعمال ، ولا يتم ذلك على نطاق البلد الواحد فقط، بل إنه يتم بالتنسيق بين البلاد والثقافات الغربية جميعاً، وقد دفعهم إلى ذلك أسباب عديدة منها : سعة المجال الذى يدرسونه، وهو الثقافة العربية الإسلامية، والعمل على اقتصاد الوقت والمجهود، والرغبة في تحقيق أقصى ما يمكن من الفائدة العلمية والعملية، لاسيما وانهم يحسون جميعاً أنهم في خندق واحد، ويسعون إلى تحقيق أهداف مشتركة. ويعبر رودى بارت عن ذلك تعبيراً دقيقاً، فالاستشراق في رأيه مسألة عالمية تهم أوروبا كلها ، ولا ينفصل فيها الاستشراق الألمانى عما سواه، والمستشرقون الألمان - إذن- فريق ضمن جماعة كبرى، لا يقوم إلا بها [1] ، ويستشعر بارت ضخامة اللغة العربية وآدابها قائلاً : " وهكذا، كلما نفذنا إلى المادة وتوغلنا فيها تبيناً بوضوح أكبر أن كل عالم من العلماء يبنى على أساس من نتائج بحوث سلفه، يتبناها تارة، وتارة يكملها ويحسنها. وإن النتائج التى نتوصل نحن إليها نتائج غير نهائية، بل نتائج تنتظر أن يتجاوزها ما سيقوم به الجيل التالى، إن لم يكن الجيل نفسه " [2] .

وتتضح هذه الروح الجماعية في العمل في جوانب كثيرة منها نشاط المستشرقين . ولعل من أشهرها وأبرزها دائرة المعارف الإسلامية التى تقدم الرؤية الاستشراقية للإسلام عقيدة وشريعة وتاريخاً وحضارة وثقافة وشخصيات، كما تدرس اللغة العربية وآدابها وأعلامها وشعراءها .. الخ ، وقد انتهت الطبعة الأولى منها ١٩٣٨ ثم بدأوا في الطبعة الثانية منها منذ سنة ١٩٥٠ وفيها مراجعة وتصويب لبعض ما جاء في الطبعة الأولى، وفيها

---

(١) انظر : الدراسات العربية الإسلامية ، ص ٢٩ .

(٢) السابق: ص ٩ .

استكمال لبعض المواد التى لم تكن متضمنة فيها . ومما يؤسف لـه أننـا – نحن المسلمين والعرب أصحاب الدين واللغة والثقافة– لم نكتب مثـل هـذه الموسوعة، بل إننا عجزنا عن استكمال ترجمتها مع التعليق عليها والتصويب لما جاء فيها (١) .

ب–إن المستشرقين– ولاسيما الكبار منهم – كانوا يحسـنون الاسـتعداد للقيام بمهمتهم الجسيمة حتى يكونوا أهلاً للقيام بأعبائها، وعلى سبيل المثـال كان من شروط اختيار وقبول المتخصصـين فـي الدراسـات الإسـلامية المعرفة بمادة الدراسات السامية، وكان هذا يتطلب معرفة اللغـات العربيـة والفارسية والتركية، ثم معرفة العبرية والسريانية والآراميـة والحبشـية أى معرفة ست لغات شرقية ليمكن شغل المنصب العلمى (٢) .

ج–وقد ساعدهم على القيام بمهمتهم ما توفر لهم من الإمكانـات التـى كانت عوناً لهم على الإنفاق على بحوثهم العلمية ونشرها . وقد تيسـر لهـم اقتناء المخطوطات، وعقد المؤتمرات، وإصدار المجلات ، والقيام بالزيارات إلى مواطن الدراسة، إلى غير ذلك مما تتطلبه البحوث العلمية، ومـا يـرتبط بها من نزعة تكاملية جماعية .

وقد يقع الجدال أو الشك في نسبة ما تحقـق للمستشـرقين مـن هـذه الخصائص السابقة . وربما وصفوا بالعجز عن إدراك دقائق اللغـة العربيـة والغوص على أسرارها (٣) . وليس هذا بالمستغرب أو المستنكر في مجـال

---

(١) بل اعتمدنا عليها كثيراً في البحوث التى يقوم بها الدارسون للإسلام وعلومه، دون نقـد أحياناً، بل دون وعى بما وقع فيها من أخطاء علمية أو اتجاهات ومواقف غير موضوعية في بعض الأحيان .

(٢) انظر: السابق ص ١٠٩، ١١٠.

(٣) انظر مثلاً : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية للدكتور عبد اللطيف الطيباوى ، ترجمـة د . محمد فتحى عثمان، نشر ملحقاً لكتاب د . محمد البهى، الفكـر الإسـلامى الحـديث وصلته بالاستعمار الغربى، مكتبـة وهبـه ط ٨ / ١٩٧٥ م ص ٥٢٥ ، ٥٤٥ وانظـر بصفة خاصة : رسالة في الطريق إلى ثقافتنا للشيخ محمود شاكر .

الدرس والتقويم ، ولكن سيبقى ما يمكن تسميته **بالعقدة الكبرى**، وهى نسبة ما تحقق لآرائهم من الأمانة والموضوعية والنزاهة والحيدة العلمية الواجب مراعاتها في البحوث العلمية بصفة عامة .

وهنا تكمن **الثغرة الخطيرة** ، التى وقع فيها كثير من المستشرقين لاسيما في دراساتهم عن الإسلام ومصادره وعلومه، حيث غلبتهم أفكارهم الذاتية ، وانتماءاتهم الدينية، وموروثاتهم الحضارية، ودوافعهم السياسية، ومن ثم تقلص الهدف العلمى الخالص، واتسع المجال للأهداف الدينية والسياسية كما سبق القول .

ومن أجل هذا وصُف الاستشراق بأنه ليس علماً، وإنما هو عبارة عن أيديولوجية خاصة، يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر، عما إذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق، أو مرتكزة على أوهام وافتراءات (١) .

ويقول محمد أسد إن أبرز المستشرقين الأوروبين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غير العلمى في كتاباتهم عن الإسلام، وقد عاملوا الإسلام على أنه متهم، ومثل بعضهم دور المدعى العام الذي يحاول إثبات الجريمة وقام بعضهم بدور المحامى، لكنه المحامى المقتنع بإجرام موكله، ولكنه يطلب له – مع شيء من الفتور – اعتبار الأسباب المخففة.

ويصف محمد أسد طريقتهم في الاستقراء والاستنتاج بأنها تشبه الطريقة التى كانت تستخدمها محاكم التفتيش التى أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا لمحاكمة خصومها من المسلمين واليهود، بل والبروتستانت من المسيحيين . وقد كانت هذه المحاكم تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل، دون

---

(١) انظر : الاستشراق، د . زقزوق ، ص ١٢٠ ، وانظر كذلك : الاستشراق لإدوارد سعيد، ص ٣٢٤، والاستشراق والأدب العربى المعاصر ، د . أحمد إسمايلوفتش، دار المعارف ، مصر ١٩٨٠في صفحات كثيرة منه .

تجرد أو حياد، بل بدافع التعصب.. وهكذا يفعل المستشرقون حين يختـــارون شهودهم من الوقائع والنصوص حسب الاستنتاج المبدئى الذى وضعوه سلفاً، فإذا لم تساعدهم الوقائع والنصوص أخرجوها عن سياقها ، أو تأولوها بروح غير علمية، دون ملاحظة رأى المتهم، وهو الإســـلام فـــي نظـــرهم، ودون ملاحظة لرأى أصحابه وهم المسلمون . ويظهـــر أن هـــؤلاء المستشـــرقين يحسون بشيء من السّرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة حقيقية أو خيالية ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد [1] .

ويعد هذا الموقف العام أساساً ومنطلقاً لكثير من الانتقادات التى يمكـــن توجيهها إلى كثير من الدراسات الاستشراقية عن الإسلام، وسنكتفى – بسبب ضيق المقام – ببعض النماذج المستخلصة من آرائهـــم التـــى ســـقناها عنـــد الحديث عن موقفهم من القرآن الكريم .

خامساً : نماذج من آرائهم :

النموذج الأول :

ذهب جولدزيهر وغيره من المستشرقين إلى أن الرسول ﷺ أخذ عـــن اليهود والنصارى كثيراً من المعارف التى أودعها في القرآن الكـــريم . وقـــد حاول هؤلاء أن يؤيدوا دعواهم بما جمعوه من أشتات الأخبار عـــن بحيـــرا الراهب وورقة بن نوفل، وعن بعض الذين أسلموا ممن كانوا على علم بكتب أهل الكتاب كبلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، وعبد الله بن سلام، وأمثالهم [2] .

---

(١) انظر : الإسلام على مفترق الطرق، ص ٥٣ ، ٥٤ وهو تصوير دقيق لرجل عـــاش في أحضان الثقافة الغربية وخبر رجالها وعرف خباياهـــا، وهـــو يغنـــى عـــن آراء واقتباسات كثيرة يمكن إيرادها في هذا المقام .

(٢) انظر : مقالة د . التهامى النقرة: القرآن والمستشرقون ، ضـــمن كتـــاب : منـــاهج المستشرقين، طبع مكتبة التربية العربى لـــدول الخلـــيج – الريـــاض ط ١/ ١٩٨٥ ، ج ١ / ٣٧، ٣٨.

وهذه الدعوى ينقضها ما يأتى :

أ-سبق المشركون إلى مثل هذه الدعوى، في عهد الرسول ﷺ وقد رد القرآن نفسه عليها، وكان مما قاله في ردها :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ (النحل : ١٠٣) .

ومما تدل عليه هذه الآية أن المعلم المزعوم يجب أن يكون أفصح بياناً، وأبلغ تعبيراً وأسلوباً، وكيف يتأتى هذا المستوى لأعجمى من غير العرب الفصحاء . وقد كان هذا المعلم، وغيره ممن نسبوه إلى التعليم يعملون في مهن متدنية، وقد قيل إن بعضهم كان يعمل حداداً ، أو عاملاً في حانة، وأمثال هؤلاء لا يعرفون بعلم، ولا يتفرغون له، لأنهم بحسب أوضاعهم الاجتماعية بعيدون عن العلم والثقافة، ولو وصل واحد من هؤلاء إلى هذه الدرجة العليا من العلم والفصاحة لكان معروفاً للناس بهذه الصفات، ولكان عندئذ جديراً بالفضل والمكانة، ولكان جديراً بأن يذيع بين الناس أنه هو الذى علم محمداً هذه العلوم . وإذا كان الرسول قد التقى ببعض هؤلاء مرة، كبحيرا – على فرض صحة هذا اللقاء المشكوك في وقوعه – فهل كان يتسنى لمحمد ﷺ وهو في أول الشباب أن يعرف ديناً بأكمله في جلسة واحدة، تمت على عجل في سفر عابر، وهل ظل محمد – ﷺ -يحتفظ بهذا العلم في نفسه كل هذه السنوات الطويلة حتى ظهر على الناس برسالته ؟ وإذا كان بحيرا على هذا المستوى من العلم فلم لم يخرج على الناس بدعوته، بدلاً من تركها لغيره ليظهر على الناس بها ؟

أما القول بأن الرسول قد تعلم شيئاً من هؤلاء الذين آمنوا به ودخلوا في الدين الذى جاء به فإنه يثير كثيراً من التساؤلات، عن الأسباب التى جعلت هؤلاء يتحولون من أساتذة إلى تابعين ؟ ولماذا صمتوا عن بيان تعليمهم له وتأثره بهم، ولماذا كانوا يشعرون نحوه ﷺ بشعور الإجلال والحب،

ويعرفون له قدره ويتعلمون منه ما ليس لهم به علم ؟ ولماذا لم يعلنوا على الناس حقيقة علاقتهم به، إلى غير ذلك من التساؤلات ؟

ب-يوصف الرسول - ﷺ - في القرآن بأنه لم يكن يتلو كتاباً ولا يخطه بيمينه، وهذا كلام قيل في الرد على المشركين وغيرهم، ومعنى ذلك أن الرسول لم يطلع على كتب أهل الكتاب، وهذا ما يصدقه الواقع السائد في الثقافة العربية آنذاك؛ لأنه لم يكن يوجد في ذلك الوقت ترجمات للتوراة والإنجيل باللغة العربية، ويذكر بعض المستشرقين أنفسهم أن الكتاب المقدس عندهم لم يظهر باللغة العربية إلا بعد هذه الفترة بقرون عديدة . ولم تكن الحاجة تقتضى وجوده إلا في القرن التاسع والعاشر، أى بعد أكثر من قرنين من الزمان [1] .

ج-أن من أعظم ما ينقض دعوى تعلم الرسول ﷺ من اليهود والنصارى أن القرآن الكريم قد تضمن كثيراً من الأمور التى تخالف ما هو معروف، بل ما هو مقدس عندهم، ومن ذلك :

* ما تذكره التوراة من أن الأرض ملعونة بسبب خطيئة آدم [2] .

* ما تذكره التوراة من أن الحية هى التى أغرت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، وكان ذلك من أسباب لعنتها [3] .

---

(١) انظر : مدخل إلى القرآن الكريم، د . محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت ط ٢ / ١٩٨١ ، ص ١٤٠، ١٤١ ، ودراسات في الحديث النبوى للدكتور محمد مصطفى الأعظمى ، الرياض ١٩٨١ ، ج ١ / ٤٥ ، ٤٦ ، ٢ / ٧١٨ . وانظر الفهرست لابن النديم ، طبع بيروت ، ص ٢٢-٣٤ .

(٢) سفر التكوين (٣ / ١٧) .

(٣) سفر التكوين (٣ /١٣ -١٥).

* تتحدث التوراة عن أن امرأة نوح وجميع أبنائــه كــانوا معــه فــي السفينة [1] ، وهذا يختلف عما جاء في القرآن ، حول هذه المسألة .

* تذكر التوراة أن إبراهيم -عليه السلام - ذبح عجلاً للضيوف الــذين جاءوا إليه، وأن الضيوف أكلوا منه [2] ، على حــين ينكــر القــرآن أكلهم منه .

* تذكر التوراة أن الذى أكل ثعابين السحرة هو عصــا هــارون [3] لا عصا موسى كما يذكر القرآن .

* ثم تذكر أن الذى صنع العجل الذهبى لبنى إسرائيل هو هارون عليــه السلام [4] ، وليس السامرى كما يذكر القرآن .

* ذكرت التوراة أن الله تعالى يفتقد إثم الآباء في الأبنــاء فــي الجيــل الثالث والرابع من مبغضيه [5] ، على حين يذكر القرآن فــي آيــات كثيرة أن ليس للإنسان إلا ما سعى؛وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى .

ولم يكتف القرآن بمخالفتهم في هذه المسائل، بل خالفهم في مسائل كثيرة تصل إلى مستوى العقائد الأساسية التى تتصل بالله تعالى والأنبيــاء علــيهم السلام [6] ، ثم أضاف القرآن إلى ذلك أنه ذكر لهم في صــراحة ووضــوح أنهم حرفوا الكتب التى أنزلها الله على أنبيائهم ، وأنهم كتبوها بأيديهم فزادوا

---

(١) سفر التكوين (٦ / ١٨ ، ٧ /١، ١٣) .

(٢) سفر التكوين (١٨ / ٦ -٨).

(٣) سفر الخروج (٧/٩، ١٢) .

(٤) سفر الخروج ٣٢/١-٤ ، ٢١-٢٤ ، ٣٥.

(٥) سفر الخروج ٢٠/٥، ٣٤/٧ .

(٦) انظر مثلا : سفر التكوين ٣/٢٢ ، ٦/١-٦ ، ١٩/ ٣٠-٣٩ ، ٣٢/٢٥-٣٠ إلخ .

فيها، ونقصوا منها، وكتموا بعضها وأظهروا بعضها، وحرفوا شرائعها، فأحلوا وحرموا .

ويأتى التساؤل هنا : إذا كان محمد - ﷺ -قد تعلم شيئاً من هؤلاء اليهود والنصارى، فهل كان يجرؤ عل مخالفتهم ووصف كتبهم بالتحريف والتبديل، واستحقاقهم للعنة الله تعالى بسبب عصيانهم لله، وتعديهم على مقامه -عز وجل -بالصفات المنكرة، وقتلهم الأنبياء .. الخ ما دمغهم به القرآن . ولو تعلم الرسول منهم لجاء كلامه صورة من كلامهم، ولما تجرأ على مخالفتهم، بل وحربهم وهزيمتهم . وهكذا تتهاوى دعوى التأثر باليهود والنصارى .. لافتقادها إلى البراهين .

النموذج الثانى :

يذهب المستشرقون إلى أن القرآن الكريم ليس من وحى الله تعالى إلى رسوله محمد - ﷺ - ولكنه تعبير عن القوى الاجتماعية المؤثرة في المجتمع ككل . ومن الأمور الطبيعية أن تتطور هذه القوى، وأن تعمل على بناء تنظيم جديد للمجتمع وإصلاح أحواله [١] . وكانت براعة الرسول -في رأى بعضهم - تتمثل في دقة تحليل الواقع الاجتماعى، ووضع التشريعات الملائمة له، فإذا تطور الواقع تطور التشريع ليجارى هذا الواقع وكأنه مجرد صدى له . ومن أدلتهم على ذلك أن القرآن المكى لم يكن يهتم إلا بالحديث عن الآخرة، والترغيب في الزهد في الدنيا ولكن القرآن المدنى كان مختلفا عن ذلك ، فلم يعد الحديث فيه عن الزهد أو تحمل الأذى، والاستعداد للآخرة؛ بل إنه امتلأ بالحديث عن الجهاد والغزو والفتوح، والتمتع بمغانمها .

---

(١) انظر مثلاً : الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر لمونتجمرى وات، مرجع سابق ١٠٣ ، ١٠٤ وما بعدهما .

وهكذا كانت الظروف الجديدة سبباً في تجاوز الوحي القرآني إلى وحي جديد ينسخ الوحي القديم ويحل محله [1] .

أ-وربما أوحى هذا الكلام أن النسخ لم يقع إلا في القرآن الكريم، مع إن النسخ وقع في الشرائع السابقة، وكان وقوعه ما بين شريعة وشريعة أحياناً، أو في الشريعة نفسها أحياناً أخرى .

ومن نماذج **النوع الأول** أنه كان مباحاً في شريعة يعقوب عليه السلام أن يجمع الرجل في الزواج بين الأختين، ثم حرم ذلك في شريعة موسى وفي الإسلام . وقد كان حلالاً لنوح بعد الطوفان – كما تقول التوراة – أن يأكل من جميع الدواب دون تحريم، ثم حرم بعضها في الشرائع اللاحقة [2] وكان العمل يوم السبت محرماً في اليهودية ولكنه أحل في النصرانية وفي الإسلام.. وهكذا . وهذا كله نوع من النسخ وإن لم يسمَّ به .

ومن نماذج **النوع الثاني** أن الله عز وجل أمر إبراهيم بذبح ولده إسماعيل -عليهما السلام- ثم عفا عنهما ونسخ هذا الأمر . وتذكر التوراة أن الله وعد بني إسرائيل على لسان موسى عليه السلام أن يعطيهم أرض كنعان، لكنهم تمردوا على الله؛ لأنهم شعب صلب الرقبة، وتكرر هذا التمرد مرات كثيرة بسبب المشقة التي حلت بهم أثناء خروجهم من مصر، وبسبب أمر موسى لهم بالقتال لدخول ارض كنعان، فغضب الله عليهم وأخبرهم أنه سيضربهم بالوباء ، ولكنه صفح عنهم بشفاعة موسى لهم، ولكن الله أخبرهم أن هؤلاء الذين لم ينفذوا أمر الله بالقتال لن يروا هذه الأرض الموعودة، ثم جعل الرب ذلك من نصيب أبنائهم، دون الكبار منهم، وعلى الرغم من وعيد

---

(١) انظر مثلاً : العقيدة والشريعة لجولدزيهر ، ص ٢٢ ، ٤١ ، ولهذا وغيره يوصف القرآن الكريم – في زعمه– بالتناقض وعدم التجانس. انظر مثلاً : ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٨.

(٢) انظر مثلاً : سفر التكوين إصحاح ٩ /٣ ثم ٢٩/ ١٦ وما بعدها ، وخاصة من ٢٣ -٣٠.

الله الشديد لهم عادوا إلى التذمر فأخذهم الله بالوباء، ثم عفا عنهم بشفاعة موسى وهارون، ثم تمردوا مرة أخرى فقتلهم الله – كما تقول التوراة– بالعقارب والحيات، ثم عاد فصفح عنهم وهكذا [1] .

وهذا نوع من النسخ وإن لم يسمَّ به، وقد وقع النسخ– كذلك– في المسيحية في عهد عيسى عليه السلام، وبعده على يد بولس، الذى وصف نفسه بأنه يتمم كلمة الله . وقد نظر إلى بعض مسائل التشريع نظرة رمزية روحية تجعل الالتزام بها أمراً غير ضروري، لأن العبرة ليست بالشكل بل بالمضمون [2] ، ثم يستمر التشريع في المسيحية متمثلاً في الكنيسة التى يعتقد أتباعها أنها وارثة لمجد الله، وأنها مؤهلة – بمؤسساتها وعلى رأسها البابا– لتشريع القوانين للمؤمنين برسالة المسيح .

ويتضح من هذا أن النسخ ليس مقصوراً على الإسلام وحده، بل إنه ظاهرة معروفة في غيره من الشرائع الأخرى .

ب–ثم إن النسخ – في الشريعة الإسلامية –ليس أمراً عاماً أو مطلقاً، بل يحيط به عدد من الضوابط التى تجعل مجاله محدوداً جداً، فالنسخ لا يقع في العقائد. ولا في الأخبار التى هى كثيرة الورود في القرآن الكريم، ثم إنه لا يقع في أصول الشريعة ولا في وقواعدها الكلية ، وإنما يقع – إذا وقع – في الجزئيات وفروع الأحكام، وإذا قورن ما وقع فيه النسخ بما لم يقع فيه نسخ فإن ما وقع فيه النسخ يعد قليلاً جداً .

ويتضح ذلك بما رآه بعض العلماء من أن النسخ لم يقع إلا في إحدى وعشرين آية، بل ذهب بعضهم إلى أنه لم يقع إلا في عشر آيات

---

(1) انظر : سفر الخروج ٦ / ٣٣ ، ٣٤ ، ثم إصحاح ١٥ – ١٧ ، ٣٢ ، ٣٣ وسفر العدد إصحاح ١٦، ٢١ .. .. الخ.

(2) انظر مثلاً رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ١٣/٧ وما بعدها، ورسالته إلى أهل رومية ٢ / ٢٥-٢٩، ثم ٩/٤ – ٢٥ .

فقط [1] .وهو عدد لا يكاد يذكر إذا قورن بعدد آيات القرآن التى تزيد عن ستة آلاف آية (٦٢٣٦) .

وقد جاء النسخ في هذه الآيات متوافقاً مع التدرج في التشريع، تيسيراً على الناس ورفقاً بهم، وهذا من خصائص الشريعة الإسلامية بصفة عامة، وينطبق هذا على التدرج في تحريم الخمر والربا [2] . كما أنه يتفق مع ما تراعيه الشريعة من رفع للحرج عن العباد ، وإبعاد للمشقة والعسر عنهم، ومن ذلك ما جاء في الشريعة من تخفيف الله عن المجاهدين في أول الإسلام، فلقد كان يجب عليهم أن يثبتوا في الجهاد لعشرة أمثالهم، ثم خفف الله عنهم فجعل الثبات لازماً أمام ضعفهم فحسب [3] .

ج- ثم يبقى - بعد ذلك - أن النسخ - على قلته الشديدة - كان جائز الوقوع في حياة الرسول - ﷺ - بإذن ربه، لا بهوى نفسه، لأنه مبلغ عن الله تعالى .

*** ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء : ١٠٥) ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ (النجم : ٣ ، و ٤) .**

---

(١) انظر لما سبق : الموافقات للشاطبى ٣ /١٠٤ ، ١٠٥وإرشاد الفحول للشوكانى ١٨٨، ١٨٩، والاتقان في علوم القرآن للسيوطى، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥ ج ٧٦/٣، ٧٧ ومباحث في علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ، ط ١٠/١٩٧٧، ص ٢٧٤ .

(٢) على القول بأن ذلك يعد نسخاً .

(٣) راجع آيتى ٦٥ ، ٦٦ من سورة الأنفال ، وينطبق ذلك على تقديم صدقة عند مناجاة الرسول ﷺ ثم نسخ ذلك، كما جاء في آيتى ١٢ ، ١٣ من سورة المجادلة.

فلما انتقل الرسول ﷺ إلى رحاب ربه أُغلق باب النسخ ، لأنه لا يتم إلا بوحي من الله تعالى، وما دام باب الوحي قد أغلق فإن مجال التشريع [1] والنسخ يغلق أيضاً .

ولا يملك أحد في الإسلام أن ينسخ أحكام الشريعة حتى لو كانت الأمة كلها، لأن ذلك إلى الله -وحده - أصلاً، ولرسوله - بإذنه - تبعاً . أما من سواهما فليس أمامه إلا الاتباع والالتزام بشرع الله تعالى .

* ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦) .

وهكذا يمكن الرد بالحجة والبرهان على أمثال هذه الآراء التي قالها المستشرقون عن مصدر القرآن الكريم الذى هو وحي خالص من الله تعالى بلفظه ومعناه، وأن الرسول ﷺ لم يكن له فيه إلا التلقي والبلاغ والبيان، وأن خصائص الوحي الإلهي تتحقق فيه على نحو لا يوجد مثله ، ولا قريب منه في غيره من الكتب الإلهية التى أنزلها الله على الأنبياء، ولم يكن هذا بالأمر الذى يجهله المستشرقون ، وقد قال القرآن في مثلهم من قبل :

* ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة : ١٤٦) .

۞ ۞ ۞

---

(١) إلا أن يكون اجتهاداً مضبوطاً بالقواعد المقررة، وهو -عندئذ- ليس تشريعاً جديداً، وإنما هو تطبيق للتشريع الثابت، وتوسيع لنطاق تطبيقه فقط.

٢-الجهود الغربية لتنصير المسلمين

تمهيد :

توجد في بعض الأناجيل – التى هى من أهم مصادر المسيحية – أقـوال منسوبة إلى نبى الله عيسى عليه السلام ، تدل دلالة صريحة على أن رسالته خاصة ببنى إسرائيل دون سواهم .

ومن هذه الأقوال ما جاء في إنجيل متى من أنه رأى امرأة كنعانية شكت له أن ابنتها مجنونة، وأنها تسأله أن يشفيها من مرضـها، بعـد أن ذاعـت شهرته في شفاء المرضى، فقال لها : " لم أُرسَل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة " (١) .

وقد جاء في هذا الانجيل نفسـه أن عيسـى – عليـه السـلام – أرسـل الحواريين الاثنى عشر، و أوصاهم قائلاً : " إلى طريق أُمَم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلو؛ بل اذهبوا بالحرى إلى خـراف بيـت إسـرائيل الضالة " (٢) .

ويتفق مضمون هذه الوصايا مع ما جاء في القرآن الكريم مـن وصـف عيسى عليه السلام بأنه رسول الله إلى بنى إسرائيل، ومن الآيات الدالة علـى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٣) .

---

(١) إنجيل متى : إصحاح ١٥ ، الفقرات من ٢٢ -٢٤ وقد كانت المرأة كنعانية أى عربية تعيش في فلسطين، والمقصود بخراف بيت إسرائيل الضالة : اليهود الذين بعث فيهم وإليهم السـيد المسيح عليه السلام .

(٢) إنجيل متى : إصحاح ١٠/ فقرات : ٥ ، ٦ .

(٣) سورة الصف الآية [٦] وانظر أيضا آيات أخـرى كالآيـة ٤٩ مـن سـورة آل عمـران و [١١٠] من سورة المائدة .

كما يتفق مضمونها مع بعض الدراسات الموضوعية التى قام بها بعض دارسى المسيحية من المسيحيين أنفسهم . وقد أثبت هؤلاء أن عيسى عليه السلام هو أحد أنبياء بنى إسرائيل، وأنه لم يأت بدين جديد يختلف عما جاء به من سبقه من أنبيائهم، بل كان دينه امتداداً لما جاءوا به، مع تنقيته من البدع والضلالات والخرافات التى لحقت بالرسالات السابقة عليه، وقد برهن هؤلاء على بطلان ما قيل من أنه جاء ليؤسس ديناً عاماً أو ليبنى كنيسة، تُفْتح لها الأرض كلها، ووصفوا هذا القول بأنه غير حقيقى، وقد كان أصحاب عيسى يعتقدون مثله أن رسالته مقصورة على بنى إسرائيل، ولذلك لم تكن لديهم فكرة عن التبشير بها بين غير اليهود، بل إن فكرة التبشير كانت بعيدة كل البعد عن عقولهم [١] .

وعلى الرغم من ذلك قام بعض أتباع المسيح عليه السلام بالدعوة إلى دينه بين الأمم الأخرى، استناداً إلى بعض الأقوال المنسوبة إليه، ومنها ما جاء في آخر إنجيل متى، في خطاب عيسى لتلاميذه وحوارييه قائلاً لهم : " فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم .. وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به " [٢] .

---

(١) انظر مثلا : المسيحية : نشأتها وتطورها : شارل جنيبير ، ترجمة د . عبد الحليم محمود، طبع المكتبة العصرية - بيروت ، د . ت ، ص ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٣٠.

(٢) انجيل متى : إصحاح ٢٨ فقرة ١٩ ، ٢٠ ويلاحظ أن هذه الوصية تتناقض مع الوصايا والوقائع التى جاءت في هذا الإنجيل نفسه ، مما يلقى ظلالاً من الشك عليها.

ومنها ما جاء في خاتمة إنجيل مرقس من قوله : " فاذهبوا إلى العالم أجمع ، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها " [1] .

وتدل الدراسات المتعلقة بتاريخ المسيحية على أن بولس كان له الجهد الأكبر في تحويل المسيحية من كونها ديناً خاصاً باليهود إلى كونها ديناً عاماً يخاطب البشرية كلها، ويسعى إلى خلاصها كما يقول [2] .

وقد أطلق النصارى اسم التبشير على هذه الدعوة إلى الدخول في دين النصرانية التى جاء بها وبشر بها المسيح عليه السلام [3] .

ويستخدم المفكرون والدعاة الإسلاميون كلمة التنصير بدلاً من التبشير، لأنها أكثر صراحة في الدلالة على مضمونة وأهدافه، دون تزويق ولا تجمل [4]، وإن كان بعضهم يستخدم كلمة التبشير لشهرتها [5] .

---

(١) إنجيل مرقس : ١٦ فقرة : ١٥؛ وتدل الدراسات النقدية لهذا الإنجيل أن الفقرات الأخيرة من إصحاح ١٦ الذى جاءت به هذه الفقرة كانت موضع شك، وأنها أضيفت إلى هذا الإنجيل بعد وقت طويل من كتابته . انظر : حقيقة التبشير بين الماضى والحاضر، للواء أحمد عبد الوهاب، مكتبة وهبة ط ١ / ١٩٨١ ص ١٧ ، ١١٣ وإذا كان الأمر كذلك فإن الفقرة ١٥ لا يمكن اعتبارها أساساً شرعيا للتبشير ، ولماً كان كلُ من متّى ولوقا قد استخدم إنجيل مرقس أساسا لإنجيله فإن ما جاء بخاتمتيهما خاصا بالتبشير بين الأمم لا يصلح أساساً لنفس الغرض . المرجع نفسه ص ١١٣.

(٢) انظر : المسيحية : نشأتها وتطورها، مرجع سابق، صفحات ٥٢ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٨٤ ، ١١٠ ومواضع أخرى .

(٣) وكلمة التبشير مأخوذة من معنى كلمة الإنجيل، وهو مأخوذ من اللفظ اليونانى " أونجليون " ، ومعناه الخبر الطيب أو البشارة . انظر : قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة ، القاهرة ط ٧ / ١٩٩١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٤) انظر مثلاً : الإسلاميات، لأبىالحسن الندوى، طبع مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢ / ١٩٨٣ ، ص ٢٧.

(٥) كما يظهر في عناوين بعض الكتب والمراجع التى تدرس هذه الظاهرة، وفيما تتضمنه من حديث عنها، وسيرد بعضها فيما يأتى .

وبمقتضى هذا التنصير أو التبشير خرجت المسيحية النصرانية من فلسطين التى كانت مهد المسيح عليه السلام، إلى أرجاء كثيرة من العالم، وتأسست كنائسها في الشرق في أنطاكيا وبيزنطة، وفي الغرب كما في روما، وتفرعت منهما، وانشقت عنهما مذاهب وكنائس متعددة. ولم تقتصر الفرق المسيحية على التعريف بمذاهبها، وتثقيف اتباعها بعقائدها، بل كان من أكبر جهودها العمل على اجتذاب غير النصارى إلى الدخول في النصرانية، ومن ثم كان التبشير أو التنصير من أعظم أهدافها وغاياتها، التى تبذل في سبيل تحقيقها كل جهد مستطاع، وتتخطى من أجلها كل العقبات ، واتجه هؤلاء بنشاطهم إلى كل الأمم ، ومن بينها المسلمون .

أولاً : المسلمون والتنصير : لمحة تاريخية :

وقد جاء محمد ﷺ بالإسلام [1] مصدقاً لما بين يديه من الكتاب، ومهيمناً عليه، ومبشراً بدين عالمى للبشرية كلها، وكان اليهود والنصارى من بين الذين دعاهم الإسلام إلى الإيمان به والدخول فيه، لأنه قد جاء وارثاً للوحى الإلهى السابق عليه . ولأنه قد تحقق له من الكمال والشمول والعصمة ما لم يتحقق لغيره من الرسالات السابقة . وقد أشار القرآن الكريم – في مواضع كثيرة – إلى ما وقع في مصادر هذه الرسالات من تحريف وتبديل، وما قام به أتباعها من تزييف وكتمان، ولبس للحق بالباطل. ولم يكن غريباً – إذن – أن يدعوهم إلى ترك ما هم عليه، ليدخلوا في دين الله الخاتم، وكان مما قاله القرآن في ذلك: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ اهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (آل عمران : ٢٠) .

---

(١) راجع مثلاً الآيات : ٨١ – ٨٣ من سورة آل عمران ، ١٥ ، ١٩ من المائدة ، ١٥٨ من سور الأعراف ، ٢٨ من سورة سبأ ، إلى آيات أخرى .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (المائدة : ١٩) إلى آيات كثيرة .

وكان مما قاله الرسول ﷺ (والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى، ثم يموت، ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار) [(١)] .

أ-وقد قام بعض النصارى بمجادلة المسلمين منذ عهد مبكر، وقد وقع شيء من ذلك في عهد الرسول ﷺ نفسه على يد نصارى نجران، وتحولت هذه المجادلات إلى مجهود علمى منظم على يد بعض علمائهم، وكان ممن أسهموا في هذا النشاط يوحنا النيقى الذى ظهر في مصر في أول عهد بالإسلام أثناء خلافة عمر بن الخطاب ﷺ ، وكان منهم كذلك يوحنا الدمشقى الذى تولى وظيفة من الوظائف الإدارية العليا في عهد الدولة الأموية ثم تركها ليعمل في خدمة دينه، وليؤلف الكتب في شرح عقائده وتوضيح أصوله، ثم ليؤلف – فضلاً عن ذلك- كتباً تتضمن هجوماً على الإسلام، وطعناً في نبوة الرسول- ﷺ – وإثارة للشبهات ، حول بعض التشريعات والأحكام التى جاء بها ، وكان مما كتبه كتاب استخدم فيه طريقة الحوار يقول فيه : إذا قال لك العربى (= المسلم) كذا فقل له كذا [(٢)] .

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان، حديث رقم ٢٤٠ طبعة عبد الباقي ١ / ١٣٤ وقوله ﷺ : لو كان موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي . انظر مسند أحمد ٣ / ٣٨٧ ، وانظر تفسير ابن كثير للآية ٨٢ من سورة آل عمران، طبعة الشعب ، القاهرة ٢ /٥٥ ، ٥٦ .

(٢) انظر : حضارة الإسلام لجرونيباوم، ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤، ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ومواضع أخرى .

وجرى على هذا المنهج نفسه – من بعده – تيودور أبو قـرة [١] وغيـره من علماء المسيحية [٢] في حديثهم عن صحة المسيحية وفي طعـنهم علـى الإسلام.

ب–ويمكن اعتبار هذه الكتابات الجدلية أساساً لهذا الاتجاه الذى يهدف إلى تنصير المسلمين، وهو اتجاه شهد تطوراً كبيراً ودفعـة قويـة فـي عصـر الحروب الصليبية التى شنتها أوروبا على العالم الإسلامى من نهايات القـرن الحادى عشر الميلادى إلى أواخر القرن الثالث عشر. وقد شهد هذا العصـر وما بعده البدايات الحقيقية للتنصير والاستشراق معاً، وقد كانا مـن الوسـائل التى لجأت إليها أوروبا في صراعها مع العالم الإسلامى بقصـد الحصـول على معرفة دقيقة به . ثم استثمار هذه المعرفة في رسـم الخطـط للتعامـل معه . وإلحاق الهزيمة به .

وعندما فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أهدافها ازداد الاهتمام بكل من التنصير والاستشراق ، لتحقيق الأهداف التى عجزت هـذه الحـروب عـن تحقيقها، وبرزت الدعوة إلى إحلال الجهود التبشـيرية، التـى تسـتند إلـى فهم عميـق للعقيـدة الإسـلامية، واللغـات الإسـلامية محـل المسـاعى العسكرية [٣] .

---

(١) انظر كتابه : ميمر في وجود الخالق والدين القويم، تحقيق د . اغناطيوس ديك، طبع لبنان ١٩٨٢، بالتعاون مع المعهد البابوى الشرقى بروما في صفحات كثيـرة منهـا ولاسيما ص ٢٤٠ وما بعدها إلى نهاية الكتاب .

(٢) انظر : المسيحية والحضارة العربية للدكتور جورج شحاته قنواتى، طبع دار الثقافة، ط ٢ / القاهرة ١٩٩٢ في صفحات كثيرة منه . انظـر مـثلاً : ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ – ٢٢٢ وصفحات أخرى .

(٣) انظر : مقالة مكسيم رودنسون، ضمن تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفـة، طبـع الكويت، ط ٢ / ١٩٨٨ ج ١ / ٥٠ ، ٥١.

ولم يكتف أصحاب هذه الدعوة بالتبشير بالمسيحية بين المسلمين فحسب، بل إنهم توجهوا بها إلى المغول الذين كانوا يهددون العالم الإسلامى قبل أن يقوموا بالقضاء على دولة الخلافة العباسية عام ٦٥٦ هـ ولذلك قاموا بإرسال البعثات التبشيرية إليهم بقصد تحويلهم إلى المسيحية، وبذلك تقع الأرض المقدسة في فلسطين بين المغول المسيحية وأوروبا المسيحية فلا يكون هناك مفر من بقائها فى قبضة المسيحيين بقاء دائما . وبهذا أصبح تحويل آسيا إلى المسيحية غرضا قائماً بنفسه " ولكن هذا المشروع باء بالفشل أيضاً لأن المغول أنفسهم قد اعتنقوا الإسلام (١) .

وقد أطلق على هذه الجهود الرامية إلى تنصير المسلمين اسم الحرب الصليبية الهادئة (٢) ، ومنذ القرن الرابع عشر إلى القرن الثامن عشر كان الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان يعملون جاهدين لنشر المسيحية في مراكش والجزائر وتونس ومصر والشام، وانضم إليهم غيرهم بعد ذلك (٣) .

ج-ولم تخمد تلك الجهود الرامية إلى تنصير المسلمين في العصور الأخيرة بل إنها ازدادت قوة وتنظيماً، وزاد الإنفاق عليها زيادة فائقة، واتسع نطاقها ومداها اتساعاً عظيماً، وشاركت الدول الأوروبية في دعم التبشير ومعاونته على الرغم من تظاهرها بالعلمانية ، وتقليصها لنشاط الكنيسة ونفوذها في أوروبا .

---

(١) انظر : مقالة إيرنست باركر بعنوان : الحروب الصليبية ، تعريب على أحمد عيسى، نشر مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٨٣ ج ١ / ١٤٣-١٤٥.

(٢) انظر : التبشير والاستعمار في البلاد العربية : د . مصطفى خالدى ، د . عمر فروخ ، منشورات المكتبة العصرية - بيروت ط ١٩٨٢ ص ١٢٧ وانظر ص ١١٥ أيضاً.

(٣) السابق : ٤٧-٤٨.

وكان استعمار أوروبا لكثير من بلاد العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر الميلادى والقرن العشرين قد أتاح للمنصرين فرصة ذهبية عملوا على استثمارها بكل نشاط وقوة، وقد تمكنوا – في ظلها – من العمل بحرية ودون خوف، وقد قامت الدول المستعمِرة بتوفير الحماية لهم، كما عملت على التضييق على من يقفون في وجههم من الدعاة الإسلاميين، وقد قامت الدول المستعمرة بذلك : نصرة للمسيحية التى هى أصل من أصول حضارتها حتى وإن تمردت عليها، ثم تحقيقاً للمصالح التى تتحقق لها إذا ما انتشرت المسيحية ، ولا تقتصر هذه المصالح على الجوانب السياسية فحسب، بل إنها تمتد إلى النواحى المادية الاقتصادية أيضاً . وقد قال لويس توماس موضحاً طبيعة العلاقة الوثيقة بين التنصير والاستعمار: إن المستكشف كان يرتاد الطريق أولاً، والمبشر يرى نفسه مقتفياً أثر المكتشف، ثم يأتى الجندى متبعاً أثر المبشر، وبعد ذلك يقفو التاجر أثر الجندى [١] .

ولعل الدول المستعمرة قد وجدت الفرصة سانحة لترد الجميل إلى هؤلاء المنصرين الذين كانوا يرتادون لها الطريق، ويهيئون لها الأوضاع منذ عهد قديم، فمن المعروف " أن المنصر كان يسبق جيش المستعمر، ويمهد له الطريق في إفريقيا وآسيا .ومنذ القرن التاسع عشر أصبح المستعمر يسبق المنصر، ويمهد له الطريق، وبخاصة في بلاد المسلمين " [٢] .

وهكذا تعاون الاستعمار والتنصير ورجال الاقتصاد والمال على حساب الإسلام وشعوبه وبلاده، وقد تم الإفصاح عن هذا التعاون في صراحة وجرأة

---

(١) انظر : الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، د . قاسم السامرائى، دار الرفاعى الرياض ط ١ / ١٩٨٣ ص ٥٤.

(٢) رؤية إسلامية للاستشراق، د . أحمد عبد الحميد غراب، دار الأصالة، الرياض، ط ١٩٨٨/١ص ٧١ ، وانظر الإسلام في القرن العشرين لعباس محمود العقاد : دار الكتب الحديثة ط ١ / ١٩٥٤ ص ٥٠.

ودون مواربة ولا حياء، وها نحن نجد بلفور صاحب وعد بلفــور المشــئوم الذى يتضمن وعداً بمعاونة اليهود على إنشاء وطن قومى لهم فــي فلســطين على حساب أهلها - بلفور هذا كان رئيس شرف لمؤتمر كبير عقد في أدنبره باسكتلندا عام ١٩١٠، وقد قال في ختام المؤتمر " إن المبشرين هم ساعد لكل الحكومات في أمور هامة، ولولاهم لتعذر عليها أن تقاوم كثيراً من العقبــات، وعلى هذا فنحن في حاجة إلى لجنة دائمة يناط بها التوسط، والعمل لما فيــه مصلحة المبشرين " [١] .

وعندما افتتح وزير معارف هولندا مؤتمراً للمستشرقين في ليــدن ١٩٣١ ألقى خطبة قال فيها : إن تبسط (اتساع) الأمة الهولاندية في المشــرق لــم يكن القصد منه مجرد المكاسب المادية، بل أكثر ما قصدته هولنده بذلك هــو نشر فضائل النصرانية " [٢] .

ومن جهة أخرى قال رئيس غرفة التجارة في همبرغ " إن نمــو ثــروة الاستعمار متوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمرات . وأهــم وسيلة للحصول على هذه الأمنية إدخال الدين المسيحى في البلاد المستعمرة؛ لأن هذا هو الشرط الجوهرى للحصول على الأمنية المنشــودة حتــى مــن الوجهة الاقتصادية " [٣] .

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى تأليف : أ . ل شاتليه ، لخصــها ونقلهــا إلــى العربيــة محب الدين الخطيــب ومســاعد اليــافى، نشــر المطبعــة الســلفية ١٣٨٣ هـــ ص ٥٢ .

(٢) حاضر العالم الإسلامى، لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض، تعليقات الأميــر شكيب أرسلان، دار الفكر - لبنان ، ومصر ط ٤ / ١٩٧٣ ج ٣ / ٣٧٣ ، وقد ذكــر هذا الأمير شكيب في تعليقاته .

(٣) الغارة على العالم الإسلامى، ص ٥٣ . وانظر ص ٥٥ و ٥٦ .

وقد كان ضعف الدولة العثمانية، ثم القضاء عليها أخيراً (١٩٢٤ م) من العوامل التى أتاحت فرصة أكبر للتنصير، وأزالت واحداً من العوائق المهمة التى كانت تقف في طريقه [١] .

ثانياً : بواعث التنصير وأسبابه :

يدلنا ما سبق – مع إيجازه – على أن الدعوة إلى المسيحية بين المسلمين، والرغبة في تحولهم إليها، تحتل مكانة عظمى عند مسيحيِّى أوروبا منذ أمد بعيد . وإذا كان الباعث الحقيقى والأول في رأى القائمين على التنصير هو التغلب على الأديان المخالفة للنصرانية، والحلول محلها إذا أمكن فإن الإسلام ينال الحظ الأوفر من هذه الأمنية، وبعضهم يذكر ذلك صراحة فيقول : " ومع إن التبشير يتناول البوذيين والبرهميين أيضا فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية هم المسلمين " [٢] . ويتمنى هؤلاء أن ينصروا المسلمين جميعاً، رجالاً ونساء [٣] .

وقد كان من وراء موقفهم هذا بواعث وأسباب عديدة منها :

أ–الرغبة في إضعاف الإسلام ومقاومته والتغلب عليه، وتأتى هذه الرغبة تعبيراً عن علاقات الصراع التاريخى الطويل المدى بين الإسلام والمسيحية، وهو صراع عبر عن نفسه في صور متنوعة، اتخذ فيها وسائل متعددة، جمعت بين الفكر والسياسة والحروب العسكرية والتنافس الحضارى، فلقد انتشر الإسلام في عصوره الأولى على حساب المسيحية في آسيا وإفريقيا وأوربا نفسها، وعندما جاءت الجيوش الصليبية إلى الشرق الإسلامى قاومها المسلمون وانتصروا عليها أخيراً، وقبل أن يفلح المسيحيون في إخراج الإسلام من الأندلس التى قضى فيها ما يقرب من ثمانية قرون ١٤٩٢ م كان

---

(١) انظر : التبشير والاستعمار، مرجع سابق ، ٥٢ ، ٥٣ .

(٢) التبشير والاستعمار ، ص ٤٥.

(٣) السابق ، ٤٥، ٥٩ .

الأتراك العثمانيون قد استولوا على القسطنطينية بقيادة محمد الفاتح ١٤٥٣، وقاموا بنشر الإسلام في بلاد البلقان وشرق أوروبا وهددوا فينا عاصمة النمسا أكثر من مرة، وقد أدى هذا إلى أن يشعر المسيحيون، لاسيما في أوروبا، بالخوف من الإسلام، حتى لو كان المسلمون ضعفاء؛ لأنهم يرون أن في الإسلام من القوة والحيوية ما يجعله قادراً على إيقاظ مشاعر القوة والوحدة واليقظة عند المسلمين . ولا يخفى فلاسفة الحضارة الأوروبية هذه المخاوف، بل إنهم يحاولون تبريرها . ومما قاله جوستاف لوبون في هذا الصدد : " لا جرم إن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعداء الذين عرفتهم أوروبا . فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم في عهد شارل مارتل، وفي الحروب الصليبية (كذا) وبعد استيلاء العثمانيين على الأستانة (القسطنطينية) يذلوننا بحضارتهم السامية، ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون حتى أصبحت جزءاً من نظامنا " [١] .

وكان من أسباب هذه النقمة أن الإسلام لم يكن يتحدى المسيحية في مجال الحرب العسكرية وحدها؛ بل إنه كان يتحداها في مجال القيم والأفكار والحضارة والنظم، وكان قادراً كما يقول بعضهم على اجتذاب النصارى أنفسهم إلى الإسلام [٢] .

وهكذا كان الخوف من الإسلام هاجسا مستقراً في الأعماق، بسبب الفتوحات الإسلامية في الماضي، وبسبب الأخطار المحتملة في المستقبل، فقد غزا المسلمون كثيراً من أرجاء الدنيا في الماضي " وقد يفعلونها مرة ثانية،

---

(١) المستشرقون والتاريخ الإسلامي ، د . علي حسني الخربوطلي، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط١ / ١٩٧٠ ، ص ٤٦ ، ٤٧.

(٢) انظر السابق : ص ٤٨ ، ٤٩ .

إن النار التى أشعلها محمد ﷺ" ما تزال تشتعل بقـوة، وهنـاك ألـف سـبب للاعتقاد بأنها شعلة غير قابلة للانطفاء " [1] .

ويعبر برنارد لويس عن هذا المعنى نفسه، فيقول : " إن وصول الإسـلام إلى مركز القوة أمر له خطورته .. إن الإسلام دين قوة .. فإذا لم يُنتبَه إلـى خطر الإسلام فإن أمتى السبت والأحد (أى اليهود والنصارى) سيعانون من نتائج وخيمة " [2] .

وقد كان التنصير من وسائل مقاومة هذا الدين، وانتزاعـه مـن قلـوب المؤمنين به إن استطاعوا ، وإحلال النصرانية محله، وبهذا يزول هذا الخطر المستمر الذى تعانى منه النصرانية منذ مجئ الإسلام .

ب–ويرتبط بهذا الموقف العام من الإسلام وحضاراته وتاريخه وعوامـل القوة الكامنة فيه، موقف خاص يتعلق بمقاومة الإسلام للنصرانية في مجـال التنصير الذى تسعى النصرانية إلى تحقيقه .

وقد أيقن القائمون بالتنصير أن الإسلام يقف حجر عثرة في طريق نشـر المسيحية في مناطق كثيرة من العالم، خارج نطاق العالم الإسلامى. وعنـدما يذهب هؤلاء إلى تلك المناطق لدعوة أهلها إلى الدخول في المسيحية يفاجأون بأن الإسلام قد سبقهم إليهم ، وأنهم يُقْبِلون عليه أكثر مما يقبلون عليها، وذلك بسبب وضوح عقيدته ويسرها وملاءمتها للفطرة الإنسانية، وإلغائه للحـواجز والوسائط بين المؤمن وربه، وبساطة شعائره وعدم تعقيدها، وتقريـره مبـدأ المساواة بين البشر، دون نظر إلى أجناسهم وألوانهم وأصولهم العرقية . وقد

---

(١) مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب ، طبع دار الشـروق ط ٤ / ١٩٨٨ ص ٥٩٧ .

(٢) نقلاً عن مقال بعنوان : بين الدراسات الإقليميـة والدراسـات الاستشـراقية، لفـؤاد فرسونى، نشر بمجلة عالم الكتب، الرياض، مجلد (٥) عـدد ١ / ١٤٠٤ / ١٩٨٤ ص ٥١ .

كانت إفريقيا من بين هذه المناطق التى تمت فيها المواجهة، وقد لاحظ دعاة المسيحية أن الإسلام قد انتشر بسرعة بين قبائلها، وأنه لم يكن محتاجاً في نشره إلى جيوش تحمله إلى الناس، بل إنه لم يكن محتاجاً - في أكثر الأحيان - إلى دعاة مدربين متخصصين في الدعوة الإسلامية، بل كان ينتشر على يد الصالحين من التجار والعُبّاد الذين كانوا يقدمون بمسلكهم العملى صورة مشرقة للإسلام، تُرَغّب الناس في دخوله، وتدفعهم إلى المسارعة إلى اعتناقه والانتماء إليه، دون ترهيب، أو منافع مادية يحصلون عليها من وراء الإيمان به [1] ، وهكذا كان الإسلام هو الذى ينتصر في حلبة المنافسة، بقوته الذاتية، وبما أودع الله فيه من الحق والشمول والكمال، ومن أجل هذا كثرت شكاوى المبشرين منه . وقد قال أحدهم : " إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة في طريق تقدم التبشير بالنصرانية في إفريقيا، والمسلم - فقط - هو العدو اللدود لنا " [2] . ويقول آخر : " أنا لا أحب المسلم لذاته، ولا لأنه أخ لى في الإنسانية، ولولا أنى أريد رِبْحَهُ إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده " [3] .

وهكذا تأتى الدعوة إلى التنصير بين المسلمين رد فعل مضاداً من النصارى ضد الإسلام وأهله، فلعلهم يكسبون في هذا المجال بعض ما يعوضهم عما يلاقونه من خسارة في مواطن أخرى .

ج-إذا كان الإسلام عقبة أمام التبشير، على نحو يستدعى مقاومته، فإن الإسلام كان عقبة أمام الاستعمار أيضاً، بسبب حيويته البالغة ، ووضوح

---

(١) انظر مثلاً : الدعوة الإسلامية، تأليف سيرتوماس أرنولد، ترجمة د . حسن إبراهيم حسن، د . عبد المجيد عابدين، مكتبة النهضة المصرية، ط ٣ / ١٩٧٠ م، ص ٢٦ ، ٢٧ ، ١٥١، ١٥٢، ٣١٥، ٤٣٦ ، ٤٥٠ وما بعدها إلى صفحات كثيرة أخرى.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى، ص ١٥.

(٣) التبشير والاستعمار ، ص ١٩٣ .

عقيدته ودعوته إلى الجهاد، وتربية أتباعه على الشجاعة والكرامة ومقاومة الضيم، وتحمل المشاق والمصاعب، دون يأس أو قنوط .

ولذلك وصف الإسلام بأنه " الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوروبى " [1] .

وكأنما أرادت الدول الاستعمارية أن تنتقم لنفسها من هذا الإسلام الذى يقف حجر عثرة في طريق نفوذها ومصالحها في البلاد المستعمرة، فأرادت أن تكيد له بمعاونة المبشرين، وفتح مجالات العمل أمامهم، وحمايتهم من غضب الحكومات الإسلامية أو الشعوب التى كانت تتصدى لهم، دفاعاً عن دينها، بل إن بعض هذه الدول الاستعمارية كانت تقوم بإنشاء جمعيات للتبشير، وينطبق ذلك – مثلاً – على بريطانيا، التى أنشأت جمعيات كثيرة أسهمت في التوسع الأوروبى بطريقة صريحة [2] . وكان ذلك التوجه واضحاً في سياسة بريطانيا في الهند بعد احتلالها ، وقد قالت بعض التقارير المقدمة عن جهود التنصير في الهند " أما في الهند فالمبشرون متمتعون بالراحة، لأن الحكومة تساعدهم وتعضدهم بالإعانات .. " ويضيف التقرير أن التبشير يكون مفتوحاً في البلاد التى يسيطر عليها الإنجليز، ولا يشكو هؤلاء من شيء إلا من أن " سياسة الإنكليز " التى يشكو منها المبشرون مبنية على المجاملة القصوى إلى حد يضر بالمسيحيين !! " [3] ومع هذا يذكر التقرير نفسه أن حكومة هولندا تشد أزر المبشرين أكثر من الحكومة الإنكليزية [4] .

---

(١) التبشير والاستعمار ١٨٤ .

(٢) الاستشراق : ادوارد سعيد ، ترجمة خليل أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ط ١ / ١٩٨١ ص ١٢٤، وقد ذكر عدداً كبيراً من هذه الجمعيات التبشيرية .

(٣) الغارة على العالم الإسلامى، ص ٥١ – ٥٢ .

(٤) المرجع نفسه ص ٥١، وانظر المناظرة الكبرة بين الشيخ رحمة الله الهندى والدكتور القسيس فندر . تحقيق وتعليق د .محمد عبد القادر خليل، دار ابن تيمية للنشر والتوزيع والإعلام ، الرياض ، ط ١ /١٤٠٥ هـ ص ٧٤ وما بعدها .

وينطبق الموقف نفسه على سياسة بريطانيا في مصر بعد احتلالها، وقد عبر عن هذا كرومر أول معتمد بريطانى في مصر عندما قال : " إن مهمة الرجل الأبيض، الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يقصد مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس، وإن كان من الواجب - منعاً من إثارة الشكوك - ألا يعمل هو بنفسه على تنصير المسلمين، وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى (!!!) كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك [1] .

وهكذا يتم تقسيم العمل بينه وبينهم ، فيقومون هم بمهمة التنصير، بتشجيعه وحمايته، ويقوم هو بمراعاة المظاهر الزائفة التى يملى عليه منصبه الرسمى مراعاتها أو المشاركة فيها .

ولا يقتصر الأمر على انجلترا وهولندا، بل إنه أمر مستقر ومطبق لدى غيرهما من الحكومات الاستعمارية كفرنسا، وغيرها [2] .

وهكذا كانت الدول الاستعمارية تعمل على تشجيع المنصرين ومعاونتهم لأهداف سياسية ودينية، وكانت تسعى كما يسعى المنصرون إلى إخراج المسلمين من الإسلام، إذا أمكن ذلك، وإلا تعاونت معهم على تمييع وإضعاف علاقة المسلمين بالإسلام وتحويل صلتهم به إلى صلة واهنة، يغلب عليها

---

(١) نقلاً عن : واقعنا المعاصر للأستاذ محمد قطب، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة ط ١٩٨٦/١ ص ٢١٦ .

(٢) انظر : الإسلام في القرن العشرين للعقاد، ص ٨٩ والتبشير والاستعمار ١١٧ - ١٢٧ ومواضع أخرى، ومعركة التبشير والإسلام للدكتور عبد الجليل شلبى، مؤسسة الخليج العربى، القاهرة ط ١ / ١٩٨٩ ص ١٥٣ - ١٥٥ ، وحاضر العالم الإسلامى في مواطن كثيرة منه .. الخ .

العناية بالمظاهر الشكلية، التى تقطع ما بينهم وبين الإسلام الحقيقى ، الذي يخشاه المستعمرون والمنصرون على حد سواء .

ثالثاً : مبادئ وقواعد :

يخضع العمل في حقل التنصير لعدد من المبادئ والقواعد التى تحكم نشاطه، ومن بين هذه المبادئ والقواعد الجوهرية، ما يأتى :

١-التنظيم الدقيق المحكم الذى لا يترك الأمور للصدفة، ولا يعتمد في العمل على العشوائية، بل إنه يقوم على التخطيط في كل خطوة من خطواته، وفي كل مرحلة من مراحله، فهو يعمل - أولاً - على جمع المعلومات الدقيقة عن البلاد والشعوب التى يسعى إلى تنصيرها، ثم يقوم باختيار الدعاة الذين تتلاءم خبراتهم ومواهبهم ومعارفهم للنهوض بهذه المهمة، التى ترتقى لديهم إلى درجة القداسة . وهو يضع بين أيديهم - وقبل أن يتوجهوا للقيام بهذه المهمة - كل المعلومات المساعدة لهم ، بحيث تتحدد أمامهم الإمكانات، وترصد العقبات، والمشكلات الواقعة والمحتملة ، ثم ترسم لهم المناهج لمواجهتها، أو تفاديها أو التقليل من آثارها ، ويستعان - في مراحل الدراسة وفي طور التنفيذ - بالمختصين في ميادين العلم المختلفة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا وعلم النفس وتاريخ الأديان والفولكلور الشعبى ، مع التعمق في الدراسات المختصة بعقائد الشعوب وعاداتها وطرق التأثير فيها .

وإذا كان هذا هو المنهج المتبع مع كل البلاد والشعوب فإن الإسلام على وجه الخصوص ينال درجة عظمى من الإعداد والعناية والاهتمام، بسبب العلاقات التاريخية القائمة- في كثير من مراحلها - على التنافس والصراع والمواجهة العقائدية والفكرية. ويقتضى ذلك أن يكون من بين القائمين على التنصير أو من يقومون بإدارته والإشراف عليه من يتخصصون تخصصاً عميقاً في دراسة الإسلام وتاريخه وعقيدته وعلومه وكتبه : بحثاً عن نص

يمكن تأويله أو تحريفه عن مواضعه، أو واقعة يمكن تشويهها أو إساءة استغلالها، أو رواية ضعيفة أو مختلقة يمكن الإفادة ، منها أو موقف قديم يمكن إحياؤه وتجديده لإحداث فرقة أو إيجاد فتنة، أو مسألة يظن أنها تمثل نقطة ضعف لاستغلالها وهكذا .. ويتم في هذا كله التعاون الوثيق بين المنصرين ومن يعدون لهم الخطط والبرامج وبين المستشرقين . والترابط والتكامل بين الفريقين قديم [1] .

وتعد المؤتمرات التى يعقدها المنصرون من حين إلى حين خير مثال على هذا التخطيط والتنظيم، ولا يتسع المجال لاستعراض عدد كبير منها، وإن كان كل منها يحتاج إلى التأمل والدراسة واستخلاص الدروس، وسنكتفى بإشارة موجزة إلى واحد من أهمها، وهو المؤتمر العالمى الذى عقد في كلورادو بالولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٧٨ تحت عنوان : " مؤتمر أمريكا الشمالية لتنصير المسلمين " وقد حضره مندوبون يمثلون مختلف مؤسسات التنصير في العالم، وكان من بينهم خبراء متخصصون في الدراسات الإسلامية والإعلام وعلوم الإنسان وشئون العالم الثالث، وقد أصدر المؤتمر بعد ذلك بعام (١٩٧٩) كتاباً ضخماً، تضمن البحوث والدراسات التى قدمت في المؤتمر، وجاء الكتاب تحت عنوان " الإنجيل والإسلام " وقد تُرجم الكتاب إلى اللغة العربية فى قريب من تسعمائة صفحة [2] ، خصصت لكى تكون خلاصة تساعد – كما جاء في مقدمة الكتاب – " على إنارة الدرب الصحيح في عملية تنصير المسلمين " [3] وقد

---

(١) سنشير إلى ذلك إشارة أوفى، عند الحديث عن الاستشراق ، إن شاء الله تعالى .

(٢) تمت الترجمة تحت عنوان : التنصير : خطة لغزو العالم الإسلامى .

(٣) ص ٤ .

انتهى المؤتمر " بعد أن ملأ المؤتمرين بروح من الأمل، وشجعهم على السير قدماً نحو هدفهم الكبير وهو العمل على تنصير الـ (٧٢٠) مليـون مسـلم، وبث في المؤتمرين عزماً جديداً لتجميع طاقاتهم، وتنسيق جهودهم للوصـول إلى هذه الغاية " [١] وختمت مقدمة الكتاب بهذه العبارة : " لقد حـان الوقـت لخلاص العالم الإسلامى ونضج الحصـاد، ورب الحصـاد ينادينـا، فـأين هم الحاصدون ؟ ! يجب على الكنيسـة ألا تتـأخر أكثـر مـن ذلـك " [٢] وقد جاء في ثنايا الكتاب على لسـان قسـيس يعمـل فـي منطقـة الخلـيج العربى: " إن العالم العربى لم يفتح أبوابه أبداً أمام أهل الكتـاب كمـا يفعـل اليوم " [٣] .

وقد تضمن المؤتمر دراسة لأربعين بحثـاً أساسـياً، تـم اختيـار كبـار المتخصصين للكتابة فيها، وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

✱المسلمات الأساسية، وهى تقع في عشرة بحوث .

✱مفاتيح في عملية المواجهة الإسلامية، وهى تقع في ستة عشر بحثاً .

✱وجاءت البحوث الأربعة عشر الباقية لتمثل استجابات ملموسة،اعتبرت أساسية في سبيل الوصول إلى خدمة نصرانية مؤثرة بين المسلمين .

ويمكن الإشارة – فقط – إلى بعض عناوين بعض هـذه البحـوث علـى النحو التالى :

---

(١) ص ٤ ، ٥ وانظر ص ٦، ٨ .

(٢) ص ٨ .

(٣) ص ٣٣.

* إبلاغ الكتاب المقدس إلى المسلمين في بيئات ثقافية مختلفة .

* استمالة المسلم عن طريق تجسيد شمائل وسلوك المسيح .

* منطلقات لاهوتية جديدة في عملية تنصير المسلمين .

* تحليل المقاومة والاستجابة لدى الشعوب المسلمة .

* اللاهوت الإسلامي : الحدود والجسور .

* الوضع الراهن لترجمات الإنجيل إلى لغات المسلمين .

* الإرسال الإذاعي الحالي الموجه إلى المسلمين .

* الوضع الحالي للمطبوعات ووسائل الإعلام الأخرى الموجهة إلى المسلمين .

* نظرة عامة على إرساليات التنصير العاملة بين المسلمين .

* مراجع مختارة للمنصرين العاملين بين المسلمين .

* تطوير أدوات جديدة تساعد في عملية تنصير المسلمين .

* الحوار بين النصارى والمسلمين، وصلته الوثيقة بالتنصير .

* الغذاء والصحة كوسائل لتنصير المسلمين .

* المداخل النصرانية إلى المرأة المسلمة وأسرتها .

كما تضمن المؤتمر دراسات تفصيلية مقارنة لوضع النصرانية والإسلام في الغرب وإفريقيا، والشرق الأوسط وتركيا وإيران وشبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا وروسيا والصين [١] .

وقد تضمن البحث الخاص بالشرق الأوسط دراسة لوضع النصرانية والإسلام في سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر وشمال السودان [٢] .والمملكة العربية السعودية ودول الخليج وقبرص [٣] .

ويكشف هذا العمل الدقيق الشامل عن صورة عليا من صور التخطيط والتنظيم التى يعتمد عليها هؤلاء في القيام بمهامهم، وفي سعيهم الحثيث إلى تحقيق آمالهم .

---

(١) انظر قائمة مفصلة بعناوين البحوث في الصفحات ٤٨ - ٥٠ ثم ارجع إلى البحوث في أماكنها من الكتاب.

(٢) أما جنوب السودان - فقد درس أيضاً ضمن دراسة إفريقية . انظر مثلاً ٣٢٧ ، ٣٣١ .

(٣) الكتاب نفسه، ص ٣٧١ - ٣٨٤ ، وقد جاء عند الحديث عن السعودية ودول الخليج بعض الأفكار والملاحظات المهمة، ومنها :

* أنه لا يسمح للمنصرين بدخول هذه الأقطار، ولكن يوجد بين الأجانب الذين يعملون بصورة رئيسية في صناعة النفط رجال دين قليلون، مقيمون أو متجولون، يقومون بخدمتهم الدينية، لكن هؤلاء ليسوا منصرين بمعنى الكلمة .
* النصارى من أهل هذه البلاد قليلون جداً، لا يتعدون - في سنة ١٩٧٩ - مائة وخمسين نسمة، لكن العدد الكلى للنصارى بها هم من المغتربين الأجانب " وبما أن عدد الأجانب يزيد زيادة كبيرة عن عدد السكان الوطنيين في كثير من هذه الدول فإن العدد الكلى للنصارى في كثير منها أكثر مما يتوقع أن يجده المرء في أقطار إسلامية محافظة " .
* إن أكثر النصارى من هؤلاء الأجانب قد جاءوا من الهند، أما البقية فهم أوروبيون وأمريكيون ونصارى من أجزاء أخرى من الشرق الأوسط، ومناطق أخرى .

وتثير هذه الملاحظات تساؤلات مهمة عن التبشير في هذه المنطقة الهامة، ومن هذه التساؤلات :

*لماذا بنيت كنائس في المنطقة منذ أكثر من مائة سنة، في وقت لم يكن فيه أحد يدين بالنصرانية، ولم يكن فيها أعداد كثيرة من العمالة الأجنبية ؟

*ما المحاذير والأخطار التى تترتب على وجود هذه العمالة غير المسلمة ؟ وما المطالب التى يمكن أن تتقدم بها أو تتقدم دولها بها، خاصة تحت دعاوى الحرية الدينية وحقوق الإنسان، وصدور قوانين الاضطهاد الدينى ؟؟

٢-التسلح بالصبر الطويل، والانتظار دون كلل ولا ملل ، ولا تعجل، إلى أن تتحقق الثمرة المرجوة .

وقد كان هذا من بين الوصايا التى ألقيت في أحد مؤتمرات التنصير؛ إذ الصبر يعرفه من عرف حكمه الإنجيل في النمو التدريجى، الذى توضع فيه البذرة، ثم تتحول إلى عشب، ثم سنبلة، ثم يتبعها انتظار طويل ريثما ينضج الحب [١] .

وإذا كان المقصود بالتنصير هو التأثير في عقائد أمة بأكملها أو في عقائد كثير من أبنائها فلاشك أن هذا العمل يحتاج إلى صبر طويل وعمل شاق . وفي هذا الصدد يقول هاريك في المؤتمر الذى عقد بالقاهرة ١٩٠٦ " نفتح للمسلم مدارسنا، ونتلقاه في مستشفياتنا، ونعرض عليه محاسن لغتنا، ثم نقف أمامه، منتظرين النتيجة بصبر، وتعلق بأهداب الأمل .." [٢] .

٣-البعد عن المجادلات الدينية المتعلقة بأصول العقيدة الإسلامية وذلك لأسباب منها:

---

(١) انظر : الغارة على العالم الإسلامى، ص ٧٢.

(٢) السابق، ص ٢٨ ، ٢٩.

*أن المجادلة الصريحة حول هذه المسائل تثير حفيظة المسلم، وتحيي في قلبه مشاعر الحمية والغيرة الدينية، مهما كانت صلته بدينه – من الناحية العملية– وإذا حدث ذلك فإن مثل هذا المسلم لن يستجيب لما يعرضه عليه دعاة التنصير مهما بلغت براعتهم .

*ومنها، أن العقيدة الإسلامية لا يخشى عليها من المناقشة العقلية؛ لأن من أخص خصائصها أنها موافقة للعقل، غير مصادمة له ولا يمكن للنصرانية أن تجاريها في ذلك . ولذلك أوصى " زوير" – وهو من عتاة المنصرين – بعدم مجادلة المسلمين؛ لأن قلعتهم في هذا الجانب حصينة (1) .

وقد أوصت إحدى العاملات في هذا المجال بما يؤكد ذلك، فقالت : " إذا كنا سنبدأ بمجادلتهم " فمن المؤكد أنهم يتشبثون بوصف شيوخ الإسلام لنا بأننا كفار " (2) .

وقد كانت هذه القاعدة مستخلصة من التجارب العملية التى خاضها المنصرون، الذين أثبتت لهم التجربة خطأ الاعتماد على الجدل في دعوة المسلمين إلى دخول النصرانية. وقد جرب المبشر فندر هذه الطريقة في الهند فتصدى له علماء المسلمين هناك، وعلى رأسهم الشيخ رحمة الله الهندى، صاحب كتاب إظهار الحق ، ومنى فندر بهزيمة كبرى جعلته ينسحب من المناظرة (3) .

---

(1) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١ / ٢٧٨) .

(2) الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية في مصر، د . خالد محمد نعيم، كتاب المختار ط ١ /١٩٨٨ ص ٧٧ .

(3) انظر : الغارة على العالم الإسلامى، ص ٢٨ وارجع إلى المناظرة الكبرى، مرجع سابق ص ١١٢ وما بعدها من المقدمة ثم ص ٢٠١ وما بعدها .

ولا يكون اللجوء إلى المناقشة والجدل ضرورياً إلا في مقام الدفاع عن المسيحية أو لإزالة سوء الفهم عنها (١) .

أما ما عدا ذلك فإنه – بدلاً من اللجوء إلى الجدل – يمكن التركيز على الجوانب الإنسانية كمحبة العدل، ومقت الظلم ، ومعاونة الكادحين والبؤساء والمظلومين، والاهتمام بقضايا الأسرة وحقوق الإنسان، والوقوف في وجه كل ما يؤدى إلى الانتقاص من كرامته أو إذلاله أو يتعارض مع حياته (٢) .

ثم يمكن– كذلك – التأثير في المسلمين عن طريق التأثير في عواطفهم ومشاعرهم القلبية واستمالة أهوائهم،وتمريض أجسامهم ومواساة فقرائهم (٣) .

٤–إذا كان النقد الصريح للإسلام أو الجدل حول عقائده غير مرغوب فيه فإن الإغراء الصريح بالدخول في المسيحية غير مرغوب فيه أيضاً، لأن ذلك يحدث تأثيراً مضاداً ورفضاً حاسماً للمسيحية، ولذلك يجب أن يكون عرض المسيحية على المسلم عرضاً تدريجياً يتسم بالهدوء والحذر الشديد، بعد القيام بالتهيئة النفسية اللازمة، واكتساب الثقة القائمة على التودد وحسن المعاملة وإسداء المعروف، واستثمارها ما في المسلم من عاطفة نبيلة تقوم على رد الجميل بمثله (٤) .ولذلك كان من الوصايا والمبادئ التى يجب العمل بمقتضاها " لنجعل هؤلاء القوم المسلمين يقتنعون – في الدرجة الأولى – بأننا نحبهم، فنكون قد تعلمنا أن نصل إلى قلوبهم .. ويجب على المبشر أن يحترم في الظاهر جميع العادات الشرقية والإسلامية .. وعليه مثلا أن

---

(١) الغارة، ص ٢٩ .

(٢) انظر : من أجل حوار إسلامى مسيحيى، موقف المسيحية من الإسلام كما حدده الفاتيكان، ترجمة د . سليم اليافى، زهير الماردينى، منشورات دار الجديد ١٩٨٣ ص ٥٨ ، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٩، ١٤٠.. الخ .

(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١/ ٢٧٨) .

(٤) الغارة : ص ٢٩.

يتحاشى أن يقول عن المسيح إنه ابن الله، حتى لا ينفر أولئك الذين لا يؤمنون هذا الإيمان " [1] .

٥-العمل على توحيد جهود القائمين بالتنصير، مهما كانت مذاهبهم الدينية أو الفرق التى ينتسبون إليها. وتتضح أهمية هذا المبدأ إذا تذكرنا ما وقع في تاريخ النصرانية من انقسامات عديدة تبدو معها النصرانية كما لو كانت ديانات مختلفة، وليست ديانة واحدة، وكان من بين هذه الانقسامات [2] ما وقع للكنيسة الغربية من انقسام في القرن السادس عشر الميلادى على يد مارتن لوثر وكالفن . وقد أدى هذا إلى انقسام هذه الكنيسة إلى كاثوليكية وبروتستانتية ، وقد وقعت بينهما صراعات وحروب ومذابح كثيرة تمتلئ بها صفحات التاريخ الأوروبى [3] . ثم انتهى الأمر إلى ضرورة التسامح واحترام كل منهما للأخرى ، مع الاعتراف بما بينهما من فروق فاصلة ، تجعل لكل منهما فهمه الخاص للكتاب المقدس عندهم، وله كنائسه الخاصة به والطقوس والمراسم والشعائر التى يحددها لنفسه كل منهما .

ويظل الاختلاف بينهما ملحوظاً ومستحضراً في علاقاتهما إلا إذا كان الأمر متصلا بالتنصير ونشره، ولاسيما بين المسلمين، فعند ذلك يسقط الخلاف، وتتحد الجهود، وتتضافر القوى .

وقد تم التوصل إلى هذا المبدأ والدعوة إليه في مؤتمر أدنبرة ١٩١٠ ، حيث اتجهت النية إلى توحيد أعمال الإرساليات التنصيرية لكى تكون الثمرة

---

(١) التبشير والاستعمار ، ص ٥٢ .

(٢) فضلاً عن انقسام الكنيسة والدولة الرومانية إلى غربية عاصمتها روما، وشرقية عاصمتها القسطنطينية قبل فتحها على أيدى العثمانيين ١٤٥٣ م ، ثم استقلال الكنيسة الأرثوذكسية عنهما، الخ هذه الانقسامات الكبرى في تاريخ المسيحية .

(٣) انظر مثلاً : قصة الاضطهاد الدينى في المسيحية والإسلام للدكتور توفيق الطويل دار الفكر العربى ١٩٤٧ ص ٨٦ – ١٠٨ .

أربعة أمثال ما يمكن التوصل إليه عند الاختلاف، وقدمت نماذج للنجاح الذى تحقق بفضل هذا الاتحاد.. ووصل الأمـر إلـى حـد الاتفـاق علـى بنـاء كنيسة واحدة وسط كل أمة غير مسيحية؛ لأن المهم هـو أن يكـون هنـاك موطئ قدم للنصرانية، بصرف النظر عن كـون هـذا المـوطئ كاثوليكيـا أو بروتستانتياً [1] .

وقد أشار بعضهم إلى أن انقسام المنصرين أمام المسلمين يحط من قدرهم ويقلل من هيبتهم، ويوطد أركان الإسلام في نفوس المسلمين، ولذلك ينبغـى على المنصرين أن يتحدوا أو أن يوهموا المسلمين بأنهم متفقـون ولـو فـي الظاهر [2] .

ولقد كان زويمر بروتستانتيا ولكنه كان يبدى ابتهاجه وسعادته بمسـاعى الكنيسة الأرثوذوكسية لنشر النصـرانية بـين التتـر، ومسـاعى الكنيسـة الكاثوليكية في إفريقيا، وكان يدعو النصرانية كلها إلى توحيد العمـل وشـن الغارة على الإسلام من كل جهة [3] .

٦-يتفق القائمون بالتبشير على بذل كل جهد مستطاع لكى تصل دعوتهم إلى كل مكان في الأرض الإسلامية، لا يستثنون من ذلك بلداً لا مكاناً، حتـى مهد الإسلام الأول في شبه الجزيرة العربية، فهو موضوع في بؤرة الاهتمام، وإن كان التعامل معه يتم بحذر أكبر، وتخطيط أعمق، ونفس أطول، خشـية ردود الأفعال التى يمكن أن تدمر كل جهودهم، بسبب ما لهذا المكـان مـن مكانة واحترام لدى جميع المسلمين .

ولا يخفى المنصّرون ذلك في حديثهم، بعضهم إلى بعض، وإن حـاولوا إخفاءه عنا، وها هو زويمر – الذى يعد أشهر شخصية عملـت فـي مجـال

---

(١) انظر : الغارة على العالم الإسلامى ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) السابق : ١٢ .

(٣) انظر : حاضر العالم الإسلامى (١/ ٢٧٩) .

التنصير في القرن العشرين الميلادى- يذكر ذلك صراحة.وكان هو الذى تولى الإشراف على إرساليات التبشير وزارعة الكنائس في الجزيرة العربية في عدن وحضرموت ومسقط والبحرين والفجيرة وغيرها. وكان مما قاله " إن من جملة المطالب في الجزيرة العربية، بل وأولها: الحق التاريخى .. وإن المطالبة بشمال إفريقيا وسوريا وإيران وفلسطين والجزيرة العربية وآسيا الوسطى حق للنصرانية .. يجب أن نعيد كسب الجزيرة العربية لدين المسيح، من أجل كرامة الكنيسة، ومن أجل كرامة اسم المسيح، ومن أجل شهداء نجران الذين ذكرهم القرآن .. وإن المحمديين (= المسلمين) في حاجة إلى بشارة الإنجيل بنفس الحاجة التى يحتاجها الآخرون " [١] .

وما تزال أصداء كلام زويمر تتردد حتى الآن في مؤتمرات التنصير، ومن آخرها المؤتمر الذى عقد في اكسفورد في أغسطس ١٩٨٦ تحت عنوان " كيفية التعامل مع المسلمين في الشرق الأوسط " تحت إشراف " د / كينيث كراج " أستاذ الدراسات الإسلامية، وقد أثيرت في هذا المؤتمر مسألة عدم سماح السعودية بتأسيس كنائس في المملكة، وذكروا - مقابل ذلك- العديد من المساجد التى تسمح أوروبا وأمريكا ببنائها على أراضيها ؛ ليؤدى المسلمون فيها شعائرهم .. وهكذا تأتى هذه المطالبة تطبيقاً لمبدأ المعاملة بالمثل [٢] .

---

(١) نقلاً عن الاستشراق للدكتور السامرائى، مرجع سابق ص ٥٠، وانظر حاضر العالم الإسلامى (١/٢٧٨ -٢٨٢) وهكذا يقع المسلمون بين شقى الرحى، وتصبح مقدساتهم مهددة باسم الحق التاريخى، فالنصارى يطالبون بشبه الجزيرة بمقتضاه واليهود يطالبون بفلسطين باسم الحق التاريخى أيضا. ويلاحظ أن زويمر يسمى المسلمين بالمحمدين، وهى تسمية خاطئة لأن المسلمين ينسبون إلى الإسلام لا إلى غيره.

(٢) انظر : صحيفة السياسة الكويتية بتاريخ ٢١ / ١١ / ١٩٨٦ م ص ٥ ، وانظر تعريفاً بهذا المؤتمر في كتاب : رؤية إسلامية للاستشراق، مرجع سابق ٦٣ - ٧٢ ورئاسة كراج لهذا المؤتمر التنصيرى خير دليل على العلاقة الوثيقة بين الاستشراق والتبشير.

وإذا كانت مطالب المنصرين تصل إلى هذا المستوى من الصراحة والجرأة فإن من المتوقع أن يمتد نطاق التبشير إلى كل بقعة من الأرض الإسلامية، وهذا ما تدل عليه الوثائق والتصريحات الصادرة عنهم .

وهم – مع احتفاظهم بهذا الهدف العام – كانوا يركزون كثيراً من جهودهم على المناطق والعناصر التى يمكن أن تكون أكثر تأثراً من سواها، ولهذا نجدهم يهتمون بالتبشير في :

أ-أطراف العالم الإسلامى البعيدة عن منطقة " القلب " التى شهدت مبعث الإسلام؛ لأن هذه الأطراف البعيدة أقل اتصالاً بالإسلام ولغته العربية، وقد عاشت أكثر تاريخها أو كثيراً من مراحله بعيدة عن المشاركة في دولة الخلافة الإسلامية . ولا يكاد الناس في هذه البلاد النائية يتصلون اتصالا مباشرا بإخوانهم المسلمين إلا في موسم الحج لأيام معدودات. فإذا أضفنا إلى ذلك الأمية العلمية والدينية وقلة انتشار الكتب الدينية، وقلة البعثات الإسلامية الموفدة إليها لتعريف أهلها بالإسلام تبين لنا أن هذه المناطق ليست بعيدة عن التأثير والاختراق . ومن أمثلة البلاد التى تنطبق عليها الظروف: أندونيسيا وبعض بلاد غرب إفريقيا وجنوب السودان، ويؤدى التنصير في هذه المناطق إلى تناقص عدد المسلمين، وإثارة المشكلات للدول الإسلامية فيها، وإبعاد المسلمين عن التأثير في الحياة العامة، وعن تولى المناصب الإدارية والتقنية فيها ، وتدبير المؤامرات لاقتطاع أجزاء من هذه البلاد وتخصيصها لغير المسلمين ، بل إن التنصير يفلح في الوصول إلى الكتب الإسلامية في هذه البلاد أحياناً [١] .

ب-العمل بين الأقليات المسلمة في البلاد التى لا تدين حكوماتها بالإسلام، حيث تكون هذه الأقليات محرومة – غالباً – من حقوقها السياسية،

---

(١) انظر الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبي في مصر، مرجع سابق، ص ١٧ .

ومن الفرص الطبيعية للنمو الاقتصادى، وكذلك من فرص التعليم، لاسيما التعليم الإسلامى الذى لا يحظى – عادة – بموافقة السلطات غير المسلمة ، ولا باعترافها به . ومن أمثلة هذه الأقليات الأقلية المسلمة في الفلبين والصين والهند .. وغيرها . وكذلك الأقليات الإسلامية المهاجرة إلى البلاد الغربية للعمل بها كالأقليات الموجودة في فرنسا وانجلترا وألمانيا.. ونحوها حيث توجد فرص مناسبة للتأثير فيها .

ج-التبشير بين المرضى، لأن المريض يكون – في العادة – أضعف من الناحية النفسية، شديد التأثر بمن يعنى به ويسهر على راحته، وهو مستعد لتقديم ما يدل على امتنانه وعرفانه بالجميل لمن يعالجه من مرضه، ومن هنا جاءت التوصيات بإقامة المستشفيات، وإرسال البعثات الطبية " لأن رجالها يحتكون – دائماً – بالجمهور ، ويكون لهم تأثير على المسلمين أكثر مما للمبشرين الآخرين .. ويجب على طبيب إرساليات التبشير ألا ينسى، ولا في لحظة واحدة، أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك " (١) .

وكان من أسباب اختيارهم لهذا المجال أن المستشفيات تكون في مأمن من معارضة الحكومات، لأنها لا تنتبه لنشاطها، أو لأنها تغض الطرف عنها، ثم إن المسلمين يلجأون –طواعية واختياراً – إلى هذه المستشفيات التى تكون – في العادة – أحسن تجهيزاً، وأرقى خدمة ، وأكثر نظاماً وهدوءاً ورعاية (٢) .

وفي كثير من هذه المستشفيات تقدم الخدمة الطبية بأنواعها المختلفة مجاناً أو بأجر زهيد، ثم هى تصل إلى الأعماق البعيدة في الريف أو الصحراء أو الأماكن النائية التى لا تصل الخدمة الطبية إليها، ويكون هذا كله مدخلاً وسبيلاً إلى تحقيق الغاية الأساسية للتنصير، حيث تلقى المواعظ والقصص،

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٢٥، وانظر : ص ٢٦.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ٣٧.

وتوزع الكتب والنشرات على المرضى . ويجتمع الدواء الجسدى، مع التأثير النفسى، ليوضع المريض في محنة ربما لا ينجو منها (١) .

د-العمل في مجال تنصير الأطفال الذين يسهل إغراؤهم والتأثير فيهم، لأنهم أقل معرفة بدينهم، وأقل صلابة في التمسك به، ثم لأنهم أكثر تقبلاً لما يقال لهم، خاصة إذا صحبه براعة العرض ، والإغراء بالمكافآت التشجيعية التى تجتذب الأطفال الصغار، ولاسيما إذا كانوا فقراء محرومين، وقد وقعت وقائع من هذا النوع في الهند (٢) ، وفي الصومال قام أحد المبشرين البلجيكيين بتبنى عشرات الآلاف من أطفال المسلمين .. ووقع مثل ذلك في لبنان والهند .. وغيرهما (٣) .

هـ-التبشير بين النساء، وخاصة بين النساء الفقيرات الأميات لقلة حصانتهن، وضعف مقاومتهن . وكان من أسباب التركيز على النساء أن المرأة ذات تأثير كبير في الأسرة لقيامها بتربية الأطفال وشدة قربها منهم، وخاصة إذا كانت لا تعمل، فإذا تم التأثير عليها كان التأثير في الأطفال أيسر وأسهل (٤) .

ولكى يتحقق هذا الهدف بسهولة ويسر كان يتم استخدام النساء للتبشير بينهن، لأن المرأة أقدر على التفاهم مع امرأة مثلها، وهى أكثر اتصالاً بها، وتقرباً إليها ، دونما حرج كالذى يحدث إذا قام الرجل بالتبشير بين النساء، وربما لا يتحقق للرجل أن يقوم بهذا العمل بين النساء أصلاً، لاسيما في

---

(١) انظر : المستشرقون والمبشرون للأستاذ إبراهيم خليل أحمد، مطبعة العالم العربى مصر ١٩٦٤ ص ٣٣، ٥٥ ، ٥٦، ٦٠.

(٢) الغارة على العالم الإسلامى ، ص ١٨.

(٣) انظر : الجذور التاريخية .. مرجع سابق، ص ١٦ ، ٣٤٤، ٣٤٥.

(٤) انظر : التبشير والاستعمار، ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

البيئات ذات التقاليد المتشددة أو الأعـراف المحافظـة، و " لأن المسـلمين لا يهتمون بأعمال النساء المبشرات ولا يضمرون لهن سوءاً " (١) .

و–استغلال الأحوال الاجتماعية الصعبة التى تمر بها بعض المجتمعـات أو المناطق الإسـلامية، وذلـك كـالفقر المـدقع، والمجاعـات والهجـرة الاضطرارية والحروب .. وما يصاحب هـذه الأحـوال مـن آلام ومعانـاة وقسوة ، تجعل الحفاظ على الحياة نفسها أمراً عسيراً، ويصبح الواقعون تحت وطأة هذه الظروف القاسية أشبه بالفريسـة المحاصـرة مـن كـل جانـب، أو بالذبيحة بين يدى الجزار الذى يتعامل معها دون شفقة ولا رحمة . وكثيرا ما يوضع هؤلاء المساكين بين خيارين أحلاهما مر : إمـا المـوت بأسـبابه المتعددة من جوع ومرض وبرودة وعزلة ونحوهـا، وإمـا الانسـلاخ مـن الإسلام ولو على المدى البعيد . ومن سوء الحظ أن بعض البلاد الإسـلامية تتعرض لمثل هذه الظروف القاسية التى تقع فيها على أيدى أبنائهـا أحيانـاً أو على أيدى أعدائها أحياناً أخرى، ويمكن الإشارة هنا إلـى مـا يقـع فـي الصومال وكشمير والفلبين والبوسنة والهرسك وكوسوفا وغيرهـا .. ومـن العجيب أن أسبق الناس إلى الإغاثة والنجدة في مثل هذه الظـروف القاسـية ليسوا هم المسلمين !!

رابعاً : وسائل العمل

استخدم القائمون على أمر التنصير كل وسيلة تسـاعدهم علـى تحقيـق أغراضهم وغاياتهم، وهم يضيفون إلى وسائلهم المعتـادة ، التـى يقومـون بتطبيقها كل وسيلة جديدة يتفتق عنها الذهن، أو يعين عليها تطور العلـم، أو تدعو إليها الحاجة العملية، القائمة على الممارسة الفعلية . وقد أشرنا من قبل إلى استخدام الطب في عملية التنصير، ويمكن أن نضيف إلى ذلك عدداً مـن الوسائل نشير إليها في إيجاز:

---

(١) انظر : الغارة : ص ٧٦ .

أ-تيسير الحصول على المعلومات المتعلقة بالدين المسيحى لكل راغب فيها، وذلك عن طريق ترجمة الأناجيل والكتب إلى لغات البلاد التى يتم التنصير فيها؛ بل إلى اللهجات المحلية التى ينطق الناس بها، حتى لا تكون اللغة حاجزاً يمنعهم من القراءة والمطالعة . وقد أعلنت -مثلاً - هيئة تسمى اتحاد جمعيات الإنجيل أن لها نشاطاً يمتد إلى (١٥٠) دولة، وأن الإنجيل قد تمت ترجمته إلى (٤٩٨) لغة إفريقية، وأن العمل جار لترجمته إلى (٢٠٠) لغة أخرى. وتدلنا أقوال المنصرين أنفسهم على أن الإناجيل قد تمت ترجمتها إلى كل لغات المسلمين الرئيسية وإلى كثير من اللغات الثانوية، وهى تطبع أحياناً – مصحوبة برسوم كرتونية . وفي المناطق التى تنتشر فيها الأمية أعدت ترجمات مسجلة على أشرطة كاسيت مصحوبة في بعض الأحيان بموسيقى محلية [1] .

وتقوم الإذاعات -بدورها -في توصيل المعلومات إلى كل مكان، ولا تكتفى هذه الإذاعات بالبرامج الموجهة؛ بل إنها على استعداد تام ودائم لإرسال الكتب إلى من يطلبها مجاناً وهم يفعلون ذلك بانتظام وإلحاح يصل إلى حد المطاردة أحياناً [2] .

ومن الوسائل المستحدثة : استخدام أشرطة التسجيل (الكاسيت) وقد لجأوا إلى نوع جديد منها، لا يعتمد على الكهرباء أو البطاريات الجافة بل يعتمد على التشغيل اليدوى، تقليلاً للتكلفة وتيسيراً للتشغيل؛ وذلك ليمكن الوصول إلى الأماكن البعيدة، ويحدث مثل ذلك في بنجلاديش .

ب-لا يكتفى المنصّرون بأن يتولى عملية التنصير دعاة من جنسيات أجنبية من أوروبا وأمريكا مثلاً، بل إنهم يبذلون أقصى ما في وسعهم لكى

---

(١) انظر: التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامى، ص ٥٢١ والصفحات من ٥١٠ - ٥٣٠ .

(٢) انظر مثلاً : صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ٣١ / ١٢/ ٨٨ ص ٧ .

يتولى هذه العملية أناس من أهل البلاد التى يدعون إلى النصرانية فيهـا؛ لأن هؤلاء أقدر على معرفة مواطنيهم، وأكثر تأثيراً فيهم، ويزداد تأثير هؤلاء إذا كانوا قد ارتدوا عن الإسلام وانتقلوا إلى النصرانية، لأنهم يقدمون -عندئـذ- دليلاً واقعياً عملياً على نجاح عملية التنصير (١) .

ولهذا كان من الوصايا التى جاءت في أحد مؤتمراتهم : السعى إلـى أن يكون تنصير المسلمين بواسطة واحد منهم " لأن الشجرة يجـب أن يقطعهـا أحد أعضائها " (٢) . ويحدث هذا -للأسف - في بعض البلاد الإسلامية التى يكتسب فيها المنصرون بعض النجاح ، وإن يكـن -بفضـل الله - قلـيلاً . ويؤدى هذا إلى وجود الأسر والعائلات التى تتعدد فيها الديانات، مـع أنهـا كانت في الأصل ذات دين واحد وهو الإسلام .

ج-استخدام كل الفرص والمناسبات التى تهيئ الظروف لإحداث التـأثير النفسى المطلوب ، ومن ذلك : الموسيقى، والألعاب الرياضـية والـرحلات الترفيهية والكشفية والمناسبات الاجتماعية، والزيارات والمجاملات العائليـة ونحو ذلك (٣) .

د-استخدام التعليم لنشر مبادئ النصرانية، وكذلك الدعاية الهادئة البطيئـة إلى الدخول فيها . ويقول زويمر في هذا الصدد :" إن المدارس أحسـن مـا يعول عليه المبشرون في التحكك (الاتصال) بالمسلمين . وقد قـال أحـد المبشرين : المدارس هى من أحسن الوسائل لترويج أغراض المبشرين " (٤) وقد نقل الأستاذ أحمد أمين عن بعضهم قوله : " إن أهداف المدارس والكليات

---

(١) انظر : الجذور التاريخية، ص ١٥ .

(٢) الغارة : ص ٣٢ .

(٣) انظر : التبشـير والاسـتعمار : ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، والغارة ٢٢ ، ٢٣ الخ .

(٤) الغارة : ص ٤٠ .

التي تشرف عليها الإرساليات هو التنصير، حتى الموضوعات الدنيوية التي تُعلَّم فيها تحمل معها الآراء النصرانية " وقد اشترطوا في أساتذة هذه الإرساليات أن يكون المدرسون مسيحيين، لأن دين المعلم يؤثر ولو من طريق خفي في تلاميذه ، وقد كانت هذه المدارس - قديماً - ترفض التقيد بالمنهج الرسمي للبلاد التي تقام فيها، لأن أهم ما تقصده هو التعليم الديني [1] ، وما يمكن أن يؤدي إليه مثل هذا التعليم الديني من تأثير في عقائد من يتلقونه، لاسيما إذا أحيطت عملية التعليم بجو ديني مسيحي، من حيث الرموز والملبس والاحتفالات والمناسبات، وما يعطى للطلاب من كتب ونصوص، وما يفرض عليهم المشاركة فيه من شعائر وطقوس، ويزداد التأثير إذا تم هذا في رياض الأطفال أو في المراحل الأولى من الدراسة، وإن كانوا لا يهملون المستويات العليا . وقد قيل عن الجامعة الأمريكية ببيروت إنها كانت ولا تزال مؤسسة تبشيرية [2] ولذلك كانوا يجبرون الطلاب المسلمين فيها على دخول الكنيسة الموجودة بها، وعندما احتج الطلاب المسلمون على ذلك قيل لهم صراحة " إن هذه كلية مسيحية، أسست بأموال شعب مسيحي .. وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليماً، يكون الإنجيل من مواده .. وإن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه " [3] .

هـ-ومن أخبث الوسائل التي يستخدمها بعض المنصرين لاختراق العقل المسلم وتضليله وإثارة الشبهات أمامه، وجعله نهباً للشكوك والحيرة تمهيداً

---

(١) انظر : الشرق والغرب للأستاذ أحمد امين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٥ ، ص ٦٥ ، ٦٦.

(٢) التبشير والاستعمار ، ص ٦٩ ، وانظر ١٠٤ وما بعدها .

(٣) السابق، ص ١٠٥ وانظر٦٥ وما بعدها ، وحاضر العالم الإسلامي ٤ / ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ والغارة : ٧ ، ٨ ، ٩.

لتنصيره ما يقوم به بعضهم من استخدام آيات من القرآن الكريم نفسه في تأييد بعض عقائد النصارى، وذلك بعد نزع هذه الآيات من سياقها أو التركيز على بعض أجزائها دون ملاحظة الأجزاء الأخرى منها، أو ادعاء المشابهة بين مضمونها ومضمون ما جاء في بعض الفقرات الواردة في الأناجيل، أو تفسير بعض آيات القرآن ببعض الإسرائيليات الواردة في بعض كتب التفسير، ثم تقريبها – بذلك – من آرائهم الاعتقادية، إلى غير ذلك من الأساليب الخبيثة التى يتفننون فيها لإيقاع عوام المسلمين في حبائلهم . ويقول أحدهم في ذلك " يجب أن نستخدم كتابهم (أى القرآن الكريم) – وهو أمضى سلاح فى الإسلام – ضد الإسلام نفسه، لنقضى عليه تماماً. يجب أن نُرِى هؤلاء الناس أن الصحيح في القرآن ليس جديداً، وأن الجديد فيه ليس صحيحاً " [1] . وقد قال زويمر " إنه جمع تلاميذه المسلمين مرة ووضع بين أيديهم كرة تمثل الكرة الأرضية، ثم سلط عليها نوراً قوياً، قاصداً من وراء ذلك أن يبرهن لهم على أن الأمر بصيام شهر رمضان ليس أتياً من عند الله؛ لأنه يتعذر أداء هذه الفريضة في بعض البلاد [2] . ويحتاج هذا الجانب من نشاطهم إلى جهد كبير يقوم به علماء المسلمين لتفنيد شبهاتهم ورد مفترياتهم بالحجة الناصعة والبرهان الحاسم ؛ دفاعًا عن الدين، وحماية للمسلمين .

---

(١) التشبير والاستعمار، ص ٤٠ .

(٢) الغارة ٣٩ ، وانظر نماذج لاستغلالها هذه الوسيلة مع بيان زيفها في : المستشرقون والمبشرون في العالم العربى الإسلامى : مرجع سابق، ص ٦١ – ٦٣ . ويزداد الأمر خطورة إذا علمنا أنهم يؤلفون كتباً تقوم على هذا المنهج المراوغ الذى يلبس الحق بالباطل كما كان يفعل القدامى منهم، ومن هذه الكتب على سبيل المثال : المسيحية في الإسلام، لإبراهيم لوقا وهو في مائتى صفحة، دوافع للإيمان الإنجيلى لأمير ريشاوى، وهما يحتاجان إلى دراسة خاصة لا يتسع لها المقام للأسف الشديد .

و-كانت الطريقة القديمة في التنصير تقوم على جهود موجهة نحو ما يمكن تسميته " التنصير الفردى "[1] وهو الذى يتم فيه الاتصال بالشخص المراد تنصيره، ودراسة ظروفه الخاصة، ثم إغراؤه بالدخول في المسيحية .

وقد لاحظ المنصرون أن هذه الطريقة شديدة البطء ، قليلة الجدوى ، وأن من يتحولون إلى النصرانية عن طريقها يكونون منبوذين من محيطهم الاجتماعى الذى ينفر منهم، ويقاطعهم، ويضغط عليهم لإعادتهم إلى الإسلام ، الذى كانوا يؤمنون به ، ولهذا جاء تفكيرهم فى طريقة أخرى ، يمكن تسميتها " التنصير الجماعى " الذى يتم فيه تنصير قبيلة بأكملها، أو مدينة بكل من فيها دفعة واحدة، وفي مثل هذه الحالات ينعدم الضغط الاجتماعى الذى يمثل عائقاً مهماً أمام التنصير .

ولكى يتحقق ذلك فلابد – كما يقول بعض المنصرين – من إيجاد أو استغلال أزمات معينة ومشكلات تدفع الناس إلى أن يكونوا خارج حالة التوازن التى اعتادوها، وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية كالفقر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون راجعة إلى عوامل معنوية كالتفرقة العنصرية أو الوضع الاجتماعى المتدنى، فإذا لم توجد مثل هذه الظروف فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية [2] ، ويمكن القول بأنه إذا لم تحدث هذه الظروف بطريقة طبيعية فإن من الممكن العمل على حدوثها وإيجادها، كما يحدث في بعض الحروب التى تجرى إثارتها في

---

(١) انظر : تنصير المسلمين ، أ . / عبد الرزاق ديار بكرلى، دار النفائس، الرياض، ط ١ / ٨٩ ص ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) التنصير، خطة لغزو العالم الإسلامى، ص ٢٣٠ ، وهو يضرب مثلاً على ذلك بما حدث في أندونيسيا، وما يمكن أن يحدث للمهاجرين الأتراك إلى ألمانيا وغيرها (٢٣٠ – ٢٣٣ ، ٢٣٥) والمرجع السابق ٢٣ وما بعدها .

بعض المناطق بطريقة مفتعلة أحياناً . وهكذا يتم تطوير الأساليب كى تكون ملائمة لما يجد من ظروف وأحوال اجتماعية .

ز-اللجوء إلى الخداع فيما ينشر من إحصاءات عن نتائج التنصير، وهى تميل – في معظمها – إلى حجب الحقائق، والتقليل المتعمد لأعداد من يستجيبون للتنصير، والحديث عن إخفاق مساعيهم في تحقيق أهدافهم، وقد قيل لأحد كبار المشرفين على التنصير في إفريقيا : " إنا نسمع من آن لآخر أن التبشير في إفريقيا قد أخفق .. ألا تتطلعون إلى أقاليم أخرى للتبشير " فضحك قائلاً : " إننا نحن الذين ننشر هذه الأخبار، وننشرها في مقابل دفع أجرة لها، وذلك أن التبشير في إفريقيا ناجح كل النجاح، وبلغ من نجاحه أن أصبح شوكة في ظهر السودان .

ثم ذكر أن هذا النشر يحقق فائدتين : إحداهما أن المسلمين حينما يقرأونها يستمرون في نومهم، فلا ينالنا منهم معارضة أو أذى . أما الفائدة الثانية فهى أن تنهال علينا التبرعات من أغنياء المسيحيين؛ لأن المسيحيين – أينما كانوا – يسرهم أن ينجح التبشير [1] .

خاتمة :

وسواء أكان هذا القول صادقاً أو غير صادق فإنه مما لا شك فيه، أن التنصير عمل ضخم من حيث عدد المشاركين فيه، والأموال المخصصة له، والمجال الذى يعمل فيه، والغايات التى يبتغى تحقيقها .

ثم هو عمل يخضع للتخطيط والتنظيم والمراجعة والتطوير، وأنه يستغل عوامل الضعف الموجودة في بعض مواطن العالم الإسلامى– وما تواجهه من فقر وأمية ومجاعات وحروب وتفرق – للنفاذ إلى عقائد بعض المسلمين.

---

(١) انظر : أوروبا والإسلام ، د . عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر، مطابع الأهرام التجارية ، ١٩٧٣ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

وقد يكون الفشل والإخفاق مصير كثير من المجالات التى تبذل في هذا الصدد، ولكن ربما تحقق لهم بعض النجاح أحياناً .

وعلى المسلمين جميعاً إدراك طبيعة هذا الخطر المحدق بهم، حتى تكون مواجهتهم له على بصيرة، وأن يكون لديهم من الخطط والبرامج والوسائل ما لا يقل في دقته وإحكامه عما يضعه المنصرون .

ولكى يكون العمل محكماً فلابد أن يشمل مجالين متكاملين :

أولهما : العمل الموجه إلى المسلمين أنفسهم بهدف إمدادهم وتزويدهم بثقافة علمية إسلامية تؤدى إلى تحصينهم من حملات التنصير الموجهة إليهم، ووقايتهم من الوقوع في حبائلها. ويقتضى هذا أن يعرفوا ما لابد من العلم به من حقائق الإسلام وخصائصه ووجوه تميزه وكماله، وجدارته بأن يكون الدين الكامل الخاتم الذى لا يماثله؛ بل لا يقاربه دين آخر من الأديان؛ فإذا تسلح المسلم بهذا العلم كان عصياً على محاولات التنصير بما يكتسبه من المناعة والقوة . وقد أدرك المنصرون أن الأمية الدينية تمثل أفضل الظروف والفرص لعملهم. ويمكن القول هنا بأن إبعاد المسلمين عن العلم بالإسلام، بالحيلولة بينهم وبين مصادره، أو اتباع ما يُسَمَّى سياسة " تجفيف المنابع " أو تضييق وسائل قنوات العلم بالإسلام، بأى صورة من الصور – كل ذلك يجعل جمهوراً كبيراً من المسلمين مهيأ للوقوع في براثن التنصير. ولعل من نافلة القول التذكير بأن القيام بهذه المهمة العلمية الضرورية يقتضى تضافر جهود الحكومات والمؤسسات العاملة في حقل التعليم والإعلام والدعوة، مع العمل على تكامل هذه الجهود .

*وإذا كان العلم بالإسلام شديد الأهمية فإن العمل على تأكيد الأخوة الإسلامية وما تقتضيه من تراحم وتضامن وتعاون في السراء والضراء لا يقل عن ذلك أهمية، وهذا هو الذى يتفق مع الإيمان بأن المؤمنين إخوة، وأنهم أمة واحدة، وأنهم ينبغى أن يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو

تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وهم مطـالبون بـذلك : أفـراداً وجماعات وحكومات، فإذا كانوا كذلك فإنهم يقيمون سداً آخر أمام التنصـير، الذى يستغل حاجة المحتاج وفقر الفقير ومرض المريض لكى يحقق أغراضه وأهدافه .

وأما المجال الثانى : فإنه يختص بإبلاغ دعـوة الله تعـالى إلـى غيـر المسلمين في كل مكان، وقد أوجب الله ذلك على الأمة في مثل قوله تعـالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِـالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنكَرِ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران : ١٠٤) .

وفي مثل قوله ﷺ في حجة الوداع : (.. ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه " [١] .

ويقتضى القيام بهذا الواجب تحقيق أمور كثيرة، منها :

❋أن تكون الدعوة إلى الله تعالى من جملة الوظائف والمهام التـى تقـوم بها الدول والحكومات الإسلامية؛ إذ هى مكلفة تكليفاً شرعياً عامـاً بحراسـة الدين وسياسة الدنيا به، كما قال ابن خلدون [٢] ، وهى ليست مكلفة – فقط – بحراسة الثغور، وحماية الحدود، وتوفير الأمن والقيام بحاجات الأمـة مـن صحة وتعليم ونحوهما، بل إنها مكلفة – كذلك – بالدعوة إلـى الله تعـالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (الحج : ٤١) .

❋إذا كان الكاثوليك والبروتستانت يعملون على توحيد جهودهم في حقـل التنصير فمن باب أولى أن تتحد كلمة المسلمين للقيام بهذا الواجب الشـرعى

---

(١) صحيح البخارى : كتاب العلم، باب قول النبى ﷺ ، رب مبلغ أوعى مـن سـامع . طبعة ستانبول (١/٢٤، ٢٥) .

(٢) انظر : المقدمة، طبعة الشعب ، القاهرة، ص ١٧٠، ١٧١.

في دعوة الناس إلى الإسلام، دون حصر للإسلام في فرقة بعينها أو مذهب دينى بعينه، بل يجب أن تكون الدعوة موجهة إلى تعريف الناس بأصول الإسلام التى حددها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولاشك أن الاختلاف والتنازع في هذا المجال يصرف الناس عن الإسلام، ويعود بأوخم العواقب على الدعوة، ويوقع في إثم التقصير وفي غضب الله تعالى الذى يقول : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

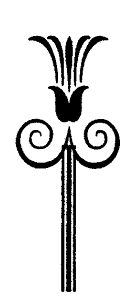
*ويترتب على هذا أن تعتمد الدعوة على العمل الجماعى القائم على التكامل بين الهيئات العاملة في ميدان الدعوة الإسلامية في سائر البلاد الإسلامية، بحيث تتولى إعداد الدعاة إعداداً علمياً عالياً، يتناسب مع جلال المهمة التى يتهيأون للقيام بها، ويدخل في هذا الإعداد - إلى جانب الدراسات والعلوم الإسلامية - العلم ببعض العلوم المساعدة كعلم النفس والتاريخ والاجتماع وتاريخ الأديان، والعلم بلغات البلاد التى سيذهب الدعاة للدعوة إلى الله فيها . وأن يزودوا بترجمات دقيقة لمعانى القرآن الكريم، ولجوامع من السنة النبوية، مع حصيلة جيدة من الفتاوى الفقهية المتعلقة بالمستجدات في حياة الناس .

وعلى الدعاة أن يكونوا - مع هذا كله - مثلاً صالحاً، وقدوة حسنة وأن تكون الدعوة لديهم " رسالة " لا وظيفة أو مغنماً .

وبهذا - وأمثاله - تقوم الأمة والعلماء بحق الله عليها، وتتحقق لهم الأدوات التى يواجهون بها مساعى المنصرين الذين يستميتون لتحقيق أهدافهم مستغلين تقصير المسلمين :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (يوسف : ٢١) .

۞ ۞ ۞



القسم الثالث

من أعلام الفكر الإسلامى

الدين والفلسفة عند محمد إقبال

تمهيد :

محمد إقبال شاعر ومفكر إسلامى كبير، ولد بالهند في العقد الثامن من القرن التاسع عشر الميلادى (١٨٧٣ أو ١٨٧٧) بمدينة سيالكوت ، بمقاطعة البنجاب، لأسرة ذات أصل برهمى عريق، أسلم أحد أجداده قبل ميلاده بقرنين من الزمان . ويرى بعض دراسيه أنه كان أقدم من ذلك بكثير .

وقد نشأ في ظل أبوين يتصفان بالتقوى والورع والحرص على شعائر الإسلام وأخلاقه . وقد كان أبوه حريصاً على أن يتعلم " إقبال " اللغة العربية، وأن يكون حافظاً للقرآن الكريم، مداوماً على تلاوته بتدبير ووعى، وكان لذلك – كما صرح هو بذلك – أثر واضح في شعره ونثره، وتكوينه الوجدانى والفكرى .

وقد اتسمت ثقافته بطابع موسوعى تآلفت فيه الثقافة الإسلامية والأجنبية، وتكاملت فيه العلوم الشرقية والغربية. وكان من العلوم الإسلامية التى عنى بها : الفقه والأصول ، وتاريخ التشريع ، والتاريخ الإسلامى، وعلم الكلام والتصوف والفلسفة ، وكان له – فيما كتبه عنها– نظرات منهجية وآراء نقدية، ينصب كثير منها على العلوم الثلاثة الأخيرة . وكان متقناً أو ذا إلمام واسع ببعض اللغات الشرقية كالفارسية والعربية، والسنسكريتية، وببعض اللغات الغربية كالإنجليزية والألمانية والفرنسية، وكانت اللغة الغربية معيناً له على أن يضرب بسهم وافر في مجالات ثقافية متنوعة كالاقتصاد والقانون والأخلاق والفلسفة، وقد نال في بعضها شهادات عليا ما بين سنة ١٩٠٥ ، ١٩٠٨ ، فنال درجة علمية فى فلسفة الأخلاق من انجلترا ، كما حصل على درجة الدكتوراه من ألمانيا عن تطور الميتايزيقيا في فارس، ثم

عاد إلى لندن لينال منها شهادة أخرى في القانون، وليلتحق بإحدى مدارس العلوم السياسية فيها فترة من الوقت .

وقد التقى في الهند وفي أسفاره المتكررة- للدراسة أحياناً ، وللإسهام في النشاط السياسى المتعلق بمستقبل الهند أحياناً أخرى- بعدد من كبار المستشرقين أمثال : توماس ارنولد، وبراون، وأسين بلاسيوس، كما التقى ببعض كبار الفلاسفة الأوروبيين مثل الفيلسوف الفرنسى هنرى برجسون . وأتاحت له إقامته بأوروبا الفرصة ليتعرف على فكر فلاسفتها وأعلامها، وأن يتعرف على مواطن القوة والضعف في حضارتها. وأن يكون حديثه عنها قائماً على الخبرة والمعرفة المباشرة .

ولم تَحُلْ هذه الاهتمامات الثقافية الواسعة دون اهتمام إقبال بمشكلات أمته، فقد كان من كبار المشتغلِين بها، وسافر من أجل ذلك إلى انجلترا مرات متعددة ليشارك في مؤتمر المائدة المستديرة الذى عقد بها ما بين ١٩٣٠ ، ١٩٣٢ ، كذلك رأس مؤتمر مسلمى الهند أكثر من مرة، وكان أول من نادى ١٩٣٠ بإنشاء دولة مستقلة لهم، ولكن أمله هذا لم يتحقق في حياته، بل أدركته المنية ١٩٣٨ قبل أن تتأسس دولة باكستان المستقلة عام ١٩٤٧ [1] .

(١) يمكن الرجوع في ذلك كله، ولمعرفة أوفى عن حياته، إلى عدد من المؤلفات التى كتبت عنه بالعربية . ومن أهمها :

- محمد اقبال : سيرته وفلسفته وشعره ، للدكتور عبد الوهاب عزام . طبع باكستان ١٩٥٤ .
- روائع إقبال ، للسيد / أبى الحسن الندوى . طبع دار الفكر بدمشق ١٩٦٠ .
- العلامة محمد إقبال : حياته وآثاره . د / أحمد معوض . طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١٩٨٠/١ .
- فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية في الهند وباكستان . للأستاذين محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان – القاهرة ١٩٥٠ .

وقد ترك محمد إقبال مؤلفات، ودواوين شعرية كثيرة، ضمنها خلاصة آرائه وأفكاره وآماله [1] ، وهى تدل على تلك الروح النقدية البناءة في نظرته إلى التراث الإسلامى، كما تدل على تلك الرغبة المتوهجة في بعث روح الحياة والقوة في حياة المسلمين، حتى يتمكنوا من أن ينفضوا عن كاهلهم غبار التخلف والجمود، وأن يواجهوا مشكلاتهم الواقعية، وأن يشاركوا في حضارة عصرهم، دون تفريط في ولائهم لدينهم وتراثهم، ومقومات أصالتهم وشخصيتهم، ولذلك يمكن اعتباره واحداً من كبار مجددى الفكر الإسلامى في العصر الحديث. ولا يتسع المقام – هنا – لحديث مستوعب لجوانب فكره، وعناصر التجديد فيه، ولذا سنكتفى بتناول جانب محدد من فكره ، وهو الجانب الذى يتعلق ببيان رأيه في الموازنة بين الدين والفلسفة ، وما يترتب على ذلك من نتائج تتعلق برأيه في الفلسفة اليونانية ثم الفلسفة الإسلامية .

---

(١) من أهم كتبه ودواوينه :

- تجديد التفكير الدينى في الإسلام، ترجمة الأستاذ عباس محمود . مراجعة الشيخ عبد العزيز المراغى والدكتور مهدى علام.طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٨ .
- تطور الميتافيزيقا في فارس . ترجمه عن الإنجليزية د / حسن محمود الشافعى ، ود / محمد السعيد جمال الدين . طبع الدار الفنية للنشر والتوزيع ١٩٨٩ .
- ديوان الأسرار والرموز – ترجمه عن الفارسية د / عبد الوهاب عزام ، دار المعارف ١٩٥٥ .
- رسالة الخلود : ترجمها عن الفارسية د / محمد السعيد جمال الدين . مطبعة سجل العرب ١٩٧٤ .

أولاً : الموازنة بين الدين والفلسفة :

يذكر إقبال أن الدين والفلسفة والشعر الرفيع [1] تتناول المسائل الكبرى، المتعلقة بالوجود والأخلاق، وهى تقدم –أو تحاول أن تقدم – إجابات عن تلك التساؤلات التى تشغل العقل الإنسانى، الذى لا يستطيع أن يتجاهل هذه التساؤلات بسبب أهميتها الجوهرية . وهى أهمية تجعلها دائمة الإلحاح عليه، بغية الوصول إلى إجابات يطمئن إليها، ويعتمد عليها . ومن هذه التساؤلات ما يتعلق بطبيعة الكون الذى نعيش فيه، وبنائه العام، والبحث عن جوهره

---

(١) لا غرابة في أن يهتم اقبال بالشعر، وأن يجعل له هذه المكانة الرفيعة، فلقد كان شاعراً كبيراً، وله عدد من الدواوين بالفارسية والأوردية يزيد على عشرة. ولم يكن الشعر لديه مجرد تعبير عن مشاعر ذاتية أو تجارب خاصة، ولكنه كان ذا رسالة عبر عنها بقوله : .

الشعر فيه من الحياة رسالة ... أبدية لا تقبل التبديلا

إن كان من جبريل فيه نغمة ... أو كان فيه صورُ إسرافيلا

أى أنه يكتسب هذه المكانة إن كانت فيه نفحة من الدين أو فيه روح اليقظة والبعث انظر : ص ٣ من مقدمة د / عبد الوهاب عزام لترجمة ديوان : ضرب كليم، مطبعة مصر ١٩٥٢ . وقد ضمن محمد إقبال شعره قدراً كبيراً من آرائه ، بحيث لا يصح – من الناحية المنهجية – تجاهله عند دراسة آرائه وتحديد ملامح فكره، وقد تنوعت موضوعاته تنوعا كبيرا، وتناول فيه موضوعات دينية، وفلسفية، وسياسية واجتماعية، وذاتية وجدانية ، ولقد كان كما يقول الندوى فخوراً بشعره الذى يقول عنه : إنه يوقظ العقول، ويهز النفوس، ويربى الآمال في الصدور ولا عجب إذا كان شعرى يملأ القلوب حماسة وإيماناً، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً، فقد سالت في شعرى دموعى ودمائى، وفاضت فيه مهجتى. الندوى : روائع اقبال ٨٧، وليس من الغريب – إذن– أن يكون للشعر عنده هذا المقام الرفيع، ولكن هذه المكانة التى للشعر ليست مطلقة، كما سيتضح بعد قليل .

الثابت الذى يكمن خلف التغيرات البادية فيه، ثم البحث عن مكـان الإنسـان ومكانته في هذا الكون، وعن طبيعة السلوك الذى يتفق مع هذه المكانة التـى يحتلها الإنسان في الوجود . وعلى الرغم من أن الدين والفلسفة والشعر تهتم بهذه المسائل الجوهرية الحيوية فإن الإجابات والتفسيرات التى تقـدمها لهـا ليست في درجة واحدة من حيث معرفة الحقيقة، ولا مـن حيـث مسـتواها، ولا من حيث السبل التى تسلكها إلى هذه المعرفة، ولا من حيث مقدار الوثاقة واليقين فيها :

فالمعرفة المستفادة من هواتف الشعر– كما يقـول إقبـال « شخصـية بالضرورة، في نوعها وفي طبيعتها، وهى مجازية مبهمـة غيـر محـددة . والدين – في أكمل صورة – يسمو فوق الشعر، فهو يتخطـى الفـرد إلـى الجماعة، وفي موقفه من الحقيقة الكليـة يتعـارض مـع عجـز الإنسـان وقصوره، فهو يفسح مطالبه، ويستمسك بأمل لا يقل – في شيء – ... عـن شهود الحق شهوداً مباشراً » [1] .ويشير إقبال في هذا النص إلى عـدد مـن الفروق بين الدين والشعر، فالرؤية الخاصة بالشعر ذاتية، وهـى– كـذلك – تتجه وجهة المجاز والرمز الذى يضفى عليها نوعاً من الإبهام والغمـوض، الذى يكتسب قيمة في الشعر إذا كان قائماً على أسس فنية، ويترتب على ذلك أن تكون هذه " هذه الرؤيا الشعرية " مقصورة على صاحبها، قاصرة عـن أن تقدم رؤية عامة أو منهجاً شاملاً للعلـم والفهـم والتفسـير والسـلوك . ولا يرقى الشعر– هنا – إلى مجال المقارنة مع الدين؛ لأن الدين – من حيث المعرفة – يتجاوز الفرد إلى الجماعة، ويتخطى الخيال إلى الحقيقـة، ويلجـأ إلى الوضوح والتصريح أكثر مما يلجأ إلى الرمز والإبهام، ويحيط بالحقيقـة إحاطة شاملة لا يرقى الشعر إليها بسبب عجـز الإنسـان، وقصـوره عـن الإحاطة بها .

---

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى في الإسلام ترجمة عباس محمود ص ٥.

فإذا خرج الشعر – بسبب هذه الفروق – من مجال المقارنة بقى الدين والفلسفة، وهما نظامان للعلم ظهرا على مدار التاريخ، تجاورا أحياناً، وتصارعا أحياناً أخرى، وانفرد أحدهما عن صاحبه في بعض الأحيان، وليس يعنى ذلك أنهما يستويان في الدرجة، أو أن حقائقهما لها نفس المكانة، فكل منهما له منهجه ووسائله وغاياته، وبينهما – في هذه الجوانب كلها – فروق واختلافات، وبينهما – قبل ذلك – خلاف في مصدر كل منهما، فالدين يرجع إلى الوحى، والفلسفة ترجع إلى العقل، ويترتب على هذا الفرق الجوهرى فروق كثيرة، ومن هذه الفروق التى أشار إليها إقبال ما يأتى :

أ- أن الفلسفة تمثل سعى الإنسان الدائب إلى المعرفة بنفسه وبالعالم من حوله، وهى جهد بشرى يخطئ ويصيب، وقد يعجز العقل، -أحياناً – عن معرفة الحقيقة القصوى ، ويقنع -عندئذ- بمعرفة جزئية لها، بل إنه قد لا يتمكن – في بعض الأحيان – من التوصل إلى معرفة يقينية حول بعض المسائل الهامة التى تفرض نفسها عليه، ويظهر هذا العجز في تلك الإجابات المختلفة التى قد تصل- أحيانا – إلى التناقض والتضارب، حول موضوع واحد ينظر العقل إليه من زوايا مختلفة .

والأمثلة على هذا كثيرة يزخر بها تاريخ الفلسفة قديماً وحديثاً. ومن الأمثلة التى نجدها لدى إقبال ما ذكره من تساؤل صاغه على النحو التالى :

ما العالم ؟ ما آدم ؟ ما الحق ؟ وكأن إقبالاً يشير بهذه الأسئلة إلى المباحث الكبرى في الفلسفة حول الوجود والمعرفة والقيم، أو حول الطبيعة والإنسان [1] . ويجيب إقبال على هذه الأسئلة إجابة يقتبسها من أحد كبار

---

(١) يذكر إقبال أن الثالوث المقدس للفلسفة هو : الله والعالم والإنسان . راجع : تطور الفكر الفلسفى في إيران ص ١٨.

شعراء الفرس وهو حافظ الشيرازى الذى يقول « .. ولا تبحث في شؤون الدهر، فلم يحل أحد بالفلسفة، ولن يحل هذا اللغز »[١] . أما الدين فإنه – في موقفه من الحقيقة الكلية – يعلو على عجز الإنسان وقصوره كما سبق القول، وهو يسدد مسيرة العقل في طلبه للحقيقة، ويسمو به نحو الكمال، ويعاونه على التخلص من عجزه وقصوره، أو هو بتعبير إقبال « يعطى للفكر جناح جبريل »[٢] ، ولذلك لا يصل منكر النبوة إلى كمال الفكر، بل يظل يتخبط في ظلمات الجهل والشك والحيرة، ومن ثم يوصى إقبال أهل الفكر بضرورة الإيمان بالنبوة، والاستمداد منها « فلا تجمح منها، ولو كنت عقلاً كليلاً .. »[٣] .

ب- ومن الفروق بين الفلسفة والدين أن المعرفة التى تتوصل إليها الفلسفة – بعامة- تختلف عن المعرفة التى يمكن تحصيلها من الدين، فالمعرفة في الفلسفة حصيلة جهد عقلى نظرى يقوم به العقل لموضوع بحثه، محاولاً فهم أسراره، وكشف غموضه، فإذا توصل صاحب هذا العقل إلى شيء من الفهم أو التفسير فإنه يقوم بصياغته صياغة يراعى فيها مذهبه الذى ارتضاه لنفسه، ومبادئه التى اقتنع بصحتها وسلامتها، مراعياً ألا يقع في تناقض مع الأسس التى يرى صوابها، والأمر – في جملته – لا يزيد عن كونه نشاطاً عقلياً نظرياً خالصاً، وهذا الطابع النظرى يشمل مراحله كلها، منذ بداية تحديد المشكلة، إلى حلها، وسواء في ذلك ما يتعلق بعرضها، أو بالمنهج الذى يسلكه إلى حلها، أو بالبرهان على ما يتوصل إليه من رأى فيها، وقد لا يزيد الأمر – أحياناً – عن عرض وجهات النظر في المسألة موضوع البحث ،دون اختيار موقف محدد إزاءها، بسبب صعوبتها أو تكافؤ

---

(١) محمد إقبال : رسالة الخلو ص ٩٨.

(٢) السابق (١١٤) .

(٣) السابق (١١٤).

الأدلة المتعلقة بالجوانب المختلفة فيها. ويلاحظ أن غلبة الطابع النظرى على الفلسفة– في الجانب الأعظم من تاريخها ونشاطها – قد عرضها للهجوم من بعض المدارس الحديثة في الفلسفة وإن اختلفت دوافع هذا الهجوم ومنطلقاته . فالفلسفة الماركسية– مثلاً – لا تكتفى بأن تكون وظيفة الفلسفة هى تفسير طبيعة العالم، بل تطلب منها أن تسعى إلى تغيير هذا العالم، ولن تكون الفلسفة – عندئذ – نشاطاً نظرياً خالصاً، بل إنها ستكون رائدة للفعل، وثيقة الصلة به [1] . والفلسفة البراجماتية – كذلك– لا تنظر إلى الفكرة في ذاتها كما تفعل الفلسفة غالباً، وإنما تنظر إليها في ضوء الآثار التى تترتب عليها، فتكون الفكرة صادقة إذا كانت مفيدة لحياتنا، وتكون كاذبة إذا كانت ضارة لها، وبهذا تتحرر الفلسفة عند أقطاب هذه النظرية من التجريد، وتكتسب سجية العلم، وعريكة الحياة العملية، وتُنْزِل المثالىَّ من مثاليته إلى الأشياء الواقعية . والعبرة –عندئذ– بالنتائج لا بالتصورات المجردة [2] .

ويختلف الدين – عند اقبال – عن الفلسفة من هذه الناحية، فالدين لا يكتفى بالجانب النظرى أو المعرفة فيما يسوقه من المبادئ، أو فيما يعرضه من الحقائق، بل إنه يدفع الإنسان دفعاً إلى شهود الحق شهوداً مباشراً [3] والفلسفة – إذن – كما يقول إقبال « نظريات، أما الدين فتجربة حية ومشاركة واتصال وثيق »[4] .

---

(١) انظر : جورج بوليترز، جى بيس، موريس كافين : أصول الفلسفة الماركسية تعريب شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية – بيروت دون تاريخ ٢٢ –٢٧.

(٢) انظر : بيرى (رالف بارتون) : أفكار وشخصية وليام جيمس، ترجمة د / محمد على العريان. طبع دار النهضة العربية ١٩٦٥ ص ٤٠٦ ، ٤٠٨ – ٤١٠.

(٣) انظر إقبال : تجديد .. مرجع سابق ص ٥ .

(٤) المرجع السابق : ٧٤ وانظر كذلك : ١٠٣ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .

وقد تلقى اقبال هذا الدرس عن الدين منذ نعومة أظفاره، وكان أبوه هو الذى لقنه إياه عندما عَوَّدَهُ على تلاوة القرآن الكريم كل يوم بعد صلاة الصبح، وكان يسأله في كل يوم عما يفعله بعد الصلاة فيجيبه بأنه يقرأ القرآن ، وظل على ذلك ثلاث سنوات، يسأله السؤال نفسه، ويتلقى منه الإجابة نفسها، وذات يوم قال له إقبال « ما بالك يا أبى تسألنى نفس السؤال، وأجيبك جواباً واحداً، ثم لا يمنعك ذلك عن إعادة السؤال من غد. فقال : إنما أردت أن أقول لك : يا ولدى اقرأ القرآن كأنما نزل عليك» [١] وليست القراءة – على هذا النحو – تلاوة باللسان وحده ، وإنما هى تلاوة بقلب يقظ ، وشعور مرهف، ووعى متفتح وذهن حاضر، وهى اتصال متجدد يمنح القلب صفاء وجدة وحياة، بحيث يكاد يخلق خلقا جديداً .

ولقد كان لهذا الدرس الذى تعلمه من أبيه أثر بالغ في حياته كلها، كما كان ذا أثر واضح في تفكيره ،وفي نظرته إلى الدين وشعائره ، التى كان حريصاً على أن تنجو من إِلْف العادة، وجمود الأداء الظاهرى الخالى من الخشوع والحضور بين يدى المعبود . فكلمة التوحيد – بحسب تعبيره – ليست مجرد قول، إنها ليست سوى سيف لا يرحم « ولا إله إلا الله : ضرب ، وضرب فعال » [٢] فهى في قلب المؤمن قوة لا تقهر، وهى تمنحه الصلابة والكرامة والعزة، وهى – في يده – سلاح من أمضى الأسلحة ، التى تحطم الشرك والبغى والظلم ، وتحرره من الضعف والهوان والاستخذاء . والصلاة تلبية لشوق كامن في النفس الإنسانية للاتصال والمشاهدة، وهى تعرف وتأمل، ولكنها فى أسمى مراتبها تزيد كثيراً على التأمل المجرد، إنها سمو فوق التفكير لتحصيل الحقيقة ذاتها، وهى لا تكفى –

---

(١) الندوى : روائع إقبال : مرجع سابق ٣١ ، وانظر د / أحمد معوض : العلامة محمد إقبال .. مرجع سابق ص ٢٣ .

(٢) إقبال : رسالة الخلود ٣٢٣.

كما تفعل الفلسفة – بالبحث عن الآثار، بل إنها نوع من المعرفة التى تبتغى الفوز بالمطلوب ذاته لا بآثاره، والدين – إذن – لا يقنع بمجرد الادراك، بل ببحث عن علم أوثق، وعن اتصال آكد بموضوع علمه [1] .

وإذا كان إقبال قد تعلم هذا الدرس من أبيه، ثم تأثر به في نظرته إلى الدين وشعائره فقد أراد أن يكون لولده نصيب مما تعلمه، ولذلك أوصاه بألا يكتفى بترديد شهادة التوحيد دون استحضار لمضمونها، ودن تحقق بمقتضياتها « يا بنى خذ منى الاحتراق في : لا إله إلا الله، خذ منى هذا الحنين إلى العودة إلى الحبيب، وخذ منى وقف القلب عليه وحده دون سواه، فإن قلت : لا إله إلا الله فقلها – إذن – بالروح، كى تهب روائح الحبيب من كيانك » [2] .

ج- وقد رتب إقبال على هذا الفرق بين الدين والفلسفة فرقاً آخر هو أن الدين – بسبب ماله من هيمنة على الإنسان في جملته - : عقلاً وشعوراً – قادر على التأثير في الإنسان وتحريكه، وإيقاظ قواه الكامنة، وتغيير سلوكه، أما الفلسفة فإنها – في رأيه – عاجزه عن هذا التأثير والتغيير . ويوضح إقبال فكرته هذه بقوله « إن التجربة بينت أن الحقيقة التى يكشفها العقل المحض لا قدرة لها على إشعال جذوة الإيمان الصادق، تلك الجذوة التى يستطيع الدين وحده أن يشعلها، وهذا هو السبب في أن التفكير المجرد لم يؤثر في الناس – إلا قليلاً – في حين أن الدين استطاع – دائماً – أن ينهض بالأفراد، ويبدل الجماعات، بقضها وقضيضها ، وينقلهم من حال إلى حال » [3] .

---

(١)انظر : تجديد .. ١٠٣ – ١٠٨ .

(٢)إقبال : رسالة الخلود ٣٢٢.

(٣)تجديد .. ٢٠٧ وانظر ٢١٣ .

ويمكن القول بأن هذه الملاحظة التى يبديها اقبال –هنا – صـــادقة فيمـــا يتعلق بالدين، وفيما يتعلق بالفلسفة على حد سواء، فالأنبياء والرســـل كـــانوا ذوى تأثير – لا يكاد يلحق – في تاريخ المجتمعات البشرية التى جاءوا إليها، والرسالات التى جاءوا بها تظلّ – من بعدهم ، فى أحيان كثيــرة – صـــالحة لإحداث هذه التغييرات فى المجتمعات التى تعتنقها وتتمسك بها، ومن جهـــة أخرى لا تملك الفلسفة هذه الميزة، بل إنها تكون عاجزة عن التأثير والتغييـــر إلا إذا تحولت إلى عقيدة أو أيديولوجية ، فإذا حدث لها هـــذا التحـــول فـــي نفوس أصحابها وأتباعها فإنها تكون قد انتقلت انتقالاً يقربها من الدين، ويكون لها – عندئذ – من الهيمنة على من يؤمن بها ما يجعلها قادرة علـــى التـــأثير فيه، بل قد يصل الأمر إلى حد افتدائها والتضحية من أجلها، أمـــا إذا ظلـــت الفلسفة أفكاراً مجردة فإنها تفتقد الحقيقة والحرارة المؤثرة في القلب ، ويعبـــر إقبال عن ذلك بقوله « حين لا يصبح للمعرفة نصيب من العشـــق لا تكـــون سوى مسرح للأفكار، هذا المسرح هو سحر السامرى.. »[(١)] .

د– ومن الفروق التى ألمح إليها إقبال هذا الفرق المنهجـــى الهـــام بـــين الدين والفلسفة، وهو فرق يترتب عليه اختلاف موقف المتبع للدين عن موقف الفيلسوف .

فالفلسفة بحث عقلى حر ليس فيه مُسَلّمات، وهى تضع كل شيء موضع الشك، ويخضع كل شيء فيها للنقد والتمحيص، ولا يعلو فيها شـــيء علـــى التساؤل وتوجيه الملاحظات، واستقصاء الاحتمالات، والمفاضلة بينها إذا كان ذلك ممكناً، واختيار أقواها حجة، وأرجحها برهاناً، فإذا لم يكن ذلك ممكناً فلا ضير على الفيلسوف أن يعلن أنه لم يتمكن من الوصـــول إلـــى رأى نهـــائى حاسم.

---

(١) رسالة الخلود ٦٢ .

وأن الاحتمال هو أقصى ما يمكن الوصول إليه في المسألة بسبب صعوبتها وتعقيدها، ولا ينال ذلك من قدر الفلسفة عند أصحابها لأن المهم – لديهم – هو مقدار ما يتحقق للمفكر من حرية البحث والفكر، بحيث لا يكون نشاطه العقلى خاضعاً لشيء ، إلا لمقتضيات البحث ذاته [(1)].

ويختلف هذا الموقف عن موقف المؤمن بدين أو عقيدة، لأن الدين يتطلب من المؤمن به الاتباع والتسليم له [(2)] وهناك – كما قال أبو سليمان المنطقى – من قبل – في رده على اخوان الصفا « يسقط لم ؟ ويبطل كيف؟. ويزول هلا ! ويذهب لو وليت في الريح، لأن هذه المواد عنها محسومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودة .. » [(3)] .

*ولم يَخْفَ على إقبال أن هذا الفرق بين الدين والفلسفة رُبَّما أوحى بأن الدين لا صلة له بالفكر، أو أنه يقهر العقل ويسلبه نعمة الحرية التى تزدهى بها الفلسفة . ولذلك كان حريصاً على الرد على مثل هذه الإيحاءات التى تغض من قدر الدين، وتنقص من قدر التدين والمتدينين .

وقد أوضح – في هذا الصدد – أن التدين شيء أكبر من مجرد الشعور « إنه يشبه رضا النفس عن علم ومعرفة » [(4)] ومعنى ذلك أن الفكر عنصر جوهرى من عناصره، فهو ليس سكينة قلبية، أو طمأنينة وجدانية فحسب، بل إنه – كذلك، بل قبل ذلك– اختيار عقلى ناشئ عن تأمل واقتناع ، يترتب عليهما هذا الرضا وتلك السكينة التى يشعر بها المتدين إزاء المبدأ الذى يؤمن

---

(1) انظر : تجديد ص ٥ .

(2) يعبر إقبال عن ذلك تعبيراً لا يخلو من مسحة شاعرية بأن الإيمان كالطائر، يعرف طريقة الخالى من المعالم غير مسترشد بالعقل. تجديد .. ص ٥ .

(3) أبو حيان التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، نشر دار مكتبة الحياة بيروت ٢/٧.

(4) تجديد .. ص ٦ .

به ، ويتحول في وعيه وشعوره إلى قوة دافعة محركة. ويلفت إقبال النظر هنا إلى علاقة الدين بالأخلاق، التى تؤثر في سلوك الإنسان، وهى علاقة عضوية، لأن الدين – حسب تعريف هويتهد (١٩٤٧) له [١] –هو «نظام أو مجموعة من الحقائق العامة لها تأثير فى تكييف الخلق، إذا صدق الاعتقاد بها، وفهمت فهماً واضحاً قوياً [٢] »وما دام الأمر كذلك فإن الأخلاق لا تقوم بهذا التأثير في الإنسان إلا إذا كان على علم بها، وكان لديه الاقتناع بصوابها وصدقها، ومن ثم تكون موضع ثقته، وهذا كله مرهون بالعلم بها أولاً، والعلم – إذن – متقدم على السلوك سابق له، فما من أحد من الناس كما يقول إقبال « يقامر بالاقدام على عمل ما، انطلاقاً من مبدأ خلقى مشكوك في قيمته »[٣] .

على أن الدين لا يكتفى بالجانب الأخلاقى الذى يحتل مكانة هامة بين معطياته، بل إنه يقدم – كذلك – تفسيراً عاماً للوجود وطبيعته، ثم لوجود الإنسان ومكانته ومصيره، وهو يقدم هذا العلم هداية للإنسان، ومعاونة له

---

(١) هوايتهد : رياضى ومنطقى وفيلسوف انجليزى (١٨٦١ – ١٩٤٧) أستاذ من كبار أساتذة الرياضيات التطبيقية والميكانيكا بكمبردج ولندن، ثم أستاذ للفلسفة بهافارد، نشر بالتعاون مع برتراند رسل كتاب: مبادئ الرياضيات في ثلاث أجزاء (١٩١٠ – ١٩١٣) وقد كانت له تأملات واسعة تتعلق بعلم الاجتماع الثقافى والتربية والميتافيزيقا والدين .. ومن مؤلفاته : مبادئ المعرفة الطبيعية، معنى الطبيعة، تكون الدين، أهداف التربية. انظر: يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف ط ١٩٦٩/٥ ص ٤٢٩، ٤٣٠ .وانظر :

Dictionnaire universel des noms propres , sous la direction de paul Robert , Paris ١٩٧٥ . p ١٩٥٥ .

(٢) تجديد ص ٦ ويوجد مثل هذا المعنى بعبارة مقاربة جدا في كتاب هوايتهد : العقيدة تتكون . ترجمة د / وليم فرج حنا طبع الانجلو المصرية ١٩٨٥ انظر ص ٢٣ .

(٣) تجديد ص ٦ .

على التكيف مع الوجود من حوله، وعلى ضبط علاقاته مع الآخرين . والعلم الذى يقدمه الدين هنا هو علم بكل مقاييس العلم، بل إن الدين -وخاصة الدين الصحيح الذى يرجع إلى مصدر إلهى وثيق - يقدم - في بعض المسائل - علماً لا يستطيع الإنسان أن يتوصل إليه . والدين محتاج إلى تقديم أساس عقلى لمبادئه ، يتقبلها العقل ، ويذعن لها ؛ بل إنه - نظرا لوظيفته كما يقول إقبال- محتاج إلى هذا الأساس العقلى أكثر من المبادئ العلمية المسلّمة نفسها، فالعلم البشرى القائم على الملاحظة والتجربة، والتعامل مع الكون المحسوس لا يدخل في نطاقه بحث موضوع الإلهيات، لكن الدين لا يستطيع تجاهل هذا الجانب الجوهرى للدين وللإنسان على حد سواء ، ولذلك « فقد أصبح من الجلى أن الحقائق التى يشتمل عليها الدين ينبغى ألا تبقى غير مقررة » [(١)] ، ولهذا نجد الأستاذ هويتهد يلاحظ- بحق كما يذكر إقبال = « أن عصور الإيمان هى عصور النظر العقلى » [(٢)] .

وإذا كان الدين -بصفة عامة - يحتاج إلى تقرير أسسه وتوضيح مبادئه ، وبيان الأسس العقلية التى يقوم عليها فإن ذلك ينطبق - أكثر ما ينطبق - على الإسلام الذى كفل حرية الفكر، وأعلى من شأن العقل، ودفعه إلى النظر والاستنباط والاعتبار، واحترم ما يتوصل إليه من نتائج وثمرات . وقد أوضح إقبال أن ما تضمنه القرآن الكريم من أسس وقواعد تشريعية عامة هو أبعد ما يكون عن سد الطريق أمام التفكير الإنسانى [(٣)] وقد دعا الإسلام إلى طلب الحكمة وتحصيلها من أى مكان وجدت فيه، ومع أن

(١) قارن : العقيدة تتكون ص ٧٧ .

(٢) تجديد ص ٦.

(٣) انظر : تجديد ١٩٢ .

الرسول ﷺ له في الإسلام مكانة لا تقاربها مكانة فقد أمـره الله تعـالى أن يقول : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [1] (طه : ١١٤).

*ويلفت إقبال النظر إلى ما تتضمنه بعض مبادئ الإسلام ذاتهـا مـن حركة فكرية ذات آثار واضحة في ميدان المعرفة، وقد أشـار – فـي هـذا الصدد بصفة خاصة – إلى عقيدة ختم النبوة التى تعبر – في رأيـه – عـن فكرة عظيمة لم تقدر قدرها، ولم تُعْرَفْ قيمتها فـي الثقافـة الإسـلامية [2] ويوضح إقبال بعض جوانب هذه الفكرة حين يشير إلى أن ختم النبوة يعنـى اعترافاً من الدين، بأن العقل الإنسانى قادرعلى الاعتماد على نفسه، وأن لديه إمكانات مركوزة فيه، يستطيع بها أن يجد مصادر أخرى للمعرفة بجانب ما يمده به الوحى، وأن ذلك يعنى صلاحيته للفهم والاستنباط والاستدلال، ومـن أجل تمكين العقل من القيام بوظائفه يَسَّرَ له الإسلام أن يعتمد علـى وسـائله الخاصة به، ولذلك أبطل الإسلام الرهبنة، التى تؤدى إلـى احتكـار العلـم، وألغى وراثة الملك، وناشد العقل أن يعتمد على النظر والتجربة، وأصر على ضرورة النظر في الكون وفهم ظواهره عن طريق التجربـة، ودعـا إلـى الوقوف على أخبار الأولين، واعترف – بذلك – بهذين المصدرين الهـامين من مصادر المعرفة الإنسانية، وكل ذلك – عنده – صُوَرٌ مـن فكـرة خـتم النبوة، وهو اعتراف بكمال العقل ورشاده، وإزاحة للعقبات التـى يمكـن أن تقف في طريقه، ولذلك لا يجد إقبال مانعاً من أن يعلن أن مولد الإسلام هـو

---

(١) انظر : رسالة الخلود ٧١٦٠ ، ١٦١.

(٢) انظر : د / عزام . محمد إقبال : سيرته .. ص ١١٩ .

مولد للعقل الاستدلالى [1] وأنه يتضمن في مبادئه ما يصفه بتلك الديمقراطية الروحية التى هى منتهى غاية الإسلام ومقصده [2] .

وقد كان إقبال حريصاً على بيان أن النظر العقلى في الدين لا يعنى التسليم بتعالى الفلسفة على الدين، فللدين خصائصه التى تجعل كفته أرجح من كفتها، وليس ذلك بمانع للفلسفة من أن تجعل الدين موضوعاً من موضوعات بحثها، وأن تتصدى لتقديره، ولكنها مطالبة – من الناحية المنهجية الخالصة – أن تراعى طبيعة الدين وخصائصه، وأن تنزله المكانة الجديرة به، وألا تغفل عن المعايير والشرائط التى لابد من استحضارها عند دراسته والحكم عليه، فإذا لم تلاحظ هذا كله فإن حكمها سيكون قاصراً أو خاطئاً « فالدين ليس أمرا جزئياً، ليس فكراً مجرداً فحسب، ولا عملا مجرداً ، بل هو تعبير عن الإنسان كله . ولهذا يجب على الفلسفة – عند تقديرها للدين – أن تعترف بوضعه الأساسى، ولا مناص لها عن التسليم بأن له شأناً جوهرياً في التأليف بين ذلك كله ، تأليفاً يقوم على التفكير »[3] .

ويستخلص اقبال من تأمله للفلسفات السائدة في عصره شرقاً وغرباً، – وقد كان على علم كبير بها – أنها عاجزة عن حل مشكلة الإنسان، ومعضلة مصيره، باعتراف كثير من الفلاسفة الغربيين أنفسهم، ويرجع هذا العجز إلى غلبة النظرة المادية إلى الوجود عليها، وقد أدى ذلك إلى يأس من المستقبل، كما أدى إلى شلل فكرى، وحيرة بائسة تزداد حدة وشدة، بسبب افتقاد الإنسان للجوانب الروحية التى تتغلغل في أعماق نفسه، وتهدئ من حدة الصراع الذى يخوضه الإنسان ضد الآخرين، بل ضد ذاته أيضاً . « فهو –

---

(١) انظر : تجديد ١٤٢ – ١٤٤ والمرجع السابق للدكتور عزام ١١٩ ، ١٢٠ وتحتاج فكرته عن ختم النبوة إلى تفصيل لا يتسع له المقام .

(٢) انظر : تجديد ٢٠٧ ، ٢٠٨.

(٣) تجديد : ص ٧.

في حلبة الفكر – في صراع صريح مع نفسه، وهــو فـــي مضـــمار الحيـــاة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره، وهو يجد نفسه غير قـــادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال – حبا طاغياً – يقتل كل ما فيـــه مـــن نضال سام ، شيئاً فشيئاً .. وقد استغرق في الواقع أى فـــي مصـــدر الحـــس الظاهر للعيان، فأصبح مقطوع الصلة بأعماق وجوده »[1] ويكشف هذا كلـــه عن " أزمة " خطيرة في تاريخ الثقافة العصرية كما يقول إقبال، وهى أزمـــة لا تجد حلاً لها إلا في رحاب الدين ، بسبب ما تحقق له، من عناصر الكمـــال التى ترتقى بالإنسان في جوانبه الروحية والأخلاقية والفكرية، وبسبب قدرته على بث الطمأنينة والسكينة في النفس البشرية، التى تؤرقها الحيـــرة العقليـــة الناشئة عن العجز عن كشف حجـــاب المجهـــول المتعلـــق بمبـــدأ الإنســـان ومصيره، والتى يُعَنِّيها الصراع النفسى الناشئ عن غلبة النظرة المادية إلـــى الوجود، ومن ثم فالدين « الذى هو في أسمى مظاهره ليس عقيـــدة فحســـب، أو كهنوتاً أو شعيرة من الشـــعائر هـــو – وحـــده – القـــادر علـــى إعـــداد الإنسان العصرى إعداداً خلقياً، يؤهله لتحمل التبعة العظمى، التـــى لابـــد أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث، وأن يرد إليه هذه النزعة من الإيمان، التـــى تجعله قادرا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا، والاحتفاظ بهـــا فـــى دار البقاء . إن السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله، ولمستقبله، ومن أين جاء، وإلى أين المصير . هو – وحده – الذى يكفل له، -آخـــر الأمـــر- الفوزُ فـــى مجتمـــع يحركـــه تنـــافس وحشـــى، وعلـــى حضـــارة فقـــدت وحدتها الروحية، بما انطوت عليه من صراع بـــين القـــيم الدينيـــة والقـــيم السياسية »[2] وهذا هو دور الدين الذى تعجز الفلسفات عن القيام بـــه ، كمـــا يقول إقبال .

---

(١) تجديد : ٢١٥، ٢١٦ .

(٢) تجديد : ٢١٧ .

ثانياً : رأيه في الفلسفة اليونانية :

يمكن القول بأن نظرة اقبال إلى الفلسفة اليونانية كانت أثراً من آثار نظرته إلى الفلسفة بصفة عامة ، وهى النظرة التى تناولناها في الفقرة السابقة، كما كانت – كذلك – وليدة تأمل خاص للفلسفة اليونانية، ولتأثيرها التاريخى في حقل الثقافة الإسلامية .

ويصف إقبال هذه الفلسفة بأنها كانت قوة ثقافية عظيمة في تاريخ الإسلام، حيث وسعت آفاق النظر العقلى عند بعض مفكريه، كما أثارت روح البحث النقدى عند فريق آخر منهم ، وهم علماء الكلام (١) ولكن هذه الفلسفة – على الرغم من ذلك –كانت سبباً من أسباب إبعادهم عن الفهم الحقيقى للقرآن ، وأنها كانت بمثابة غشاوة حجبت أبصارهم عن إدراك روحه ومراميه (٢) .

ويوضح إقبال ذلك بأن الروح اليونانية التى عَبَّرَتْ عن نفسها في هذه الفلسفة كانت تنزع إلى تجاهل العالم الطبيعى، وتركز جهدها على التأمل الباطنى للإنسان، وظهر ذلك جلياً في فلسفة سقراط الذى دعا إلى النظر في الإنسان نفسه، دون اهتمام بملاحظة الكون من حوله، وهذا الموقف يتعارض مع دعوة القرآن الكريم إلى النظر في أرجاء الكون ، ودراسة ظواهره الطبيعية والفلكية، وملاحظة ما يقع فيه من تغيرات، وما يوجد فيه من كائنات فالقرآن يدعو إلى النظر في تصريف الرياح، وفي تعاقب الليل والنهار، كما يدعو – في الوقت ذاته – إلى العناية بملاحظة ما قد تغفل العقول أحياناً عن ملاحظته، فالقرآن الكريم يرى في النحل –على ضآله شأنه– محلاً للالهام الذى عبر عنه القرآن بالوحى (٣) . وإغفالُ النظر في

---

(١) انظر : تجديد ص ٨ وكذا : تطور الفلسفى في إيران : ٩٥.

(٢) تجديد : ص ٨.

(٣) راجع آيتى ٦٨ ، ٦٩ من سورة النحل.

الكون وما يحتويه – على نحو ما جاء فى فلسفة سقراط – يعد متعارضاً مع هذه الروح القرآنية .

وقد كان أفلاطون وفياً لتعاليم أستاذه سقراط، عندما قدح في الإدراك الحسى، وجعله موصلاً إلى الظن، غير مؤد إلى اليقين [1] وقد وصفه إقبال – في مقام آخر – بأنه فكر فيما ليس بمحسوس، وأعرض عن الحواس، وضل طرفه في ظلمة المعقول، وأنه تحدث عن عالم خامد هامد، وأنه من دعاة الضعف والموت [2] ويتعارض هذا الموقف الأفلاطونى مع نظرة القرآن الإيجابية إلى العالم، كما أن رأيه في المعرفة الحسية يتعارض مع حديث القرآن عن معرفة السمع والبصر، ومسؤولية الإنسان عنهما حيث تتكاملان مع معرفة الفؤاد، وتزودان الإنسان – معه – بالعلم الذى يكتسبه منذ أن تطرق قدماه عتبات الوجود، ولذلك كانا من أجل نعم الله على عباده [3] وما ذكره اقبال على فلسفة سقراط وأفلاطون صحيح في جملته، فسقراط هو الذى يوصف بأنه أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، أى أنه هو الذى صرف النظر عن الاهتمام بالمسائل الطبيعية والفلكية التى غلبت على الفلاسفة من قبله، وركز اهتمامه على النفس والأخلاق، معطياً الجانب التأملى النظرى مكاناً رفيعاً، بوصفه أمثل الطرق للوصول إلى السعادة، وهو يوصف لدى بعض مؤرخى الفلسفة بأنه موجد فلسفة المعانى أو الماهيات، وهى فلسفة ترى في الوجود مجموعة أشياء عقلية ومعقولة .

أما أفلاطون فهو صاحب نظرية المثل المشهورة، وقد ذهب فيها إلى أن العالم الحسى ليس هو عالم الوجود الحقيقى، بل هو عالم الظلال والأشباح، وأن الوجود الحقيقى يتمثل في عالم المثل الذى يتضمن الحقائق الثابتة

---

(١) تجديد : ٩ .

(٢) إقبال : ديوان الأسرار والرموز ص ٣٠ ، ٣١ .

(٣) راجع الآية ٣٦ من سورة الإسراء ، والآية ٧٨ من سورة النحل .

الخالدة، البعيدة عن التغير والكثرة والنقص. وجاءت نظريته في المعرفة متناسبة مع نظرته إلى الوجود، بحيث يكون إدراك المثل هو أرفع درجات المعرفة، ويتم ذلك عن طريق النظر العقلى الخالص [1] .

لكن هل تعد هذه الملاحظة التى أبداها إقبال حول الطابع النظرى للفلسفة اليونانية صحيحة بالنسبة لأرسطو وهو الذى يمثل الضلع الثالث من أضلاع المثلث، الذى يشكل عصراً من أزهى عصور الفلسفة اليونانية إن لم يكن أزهى عصورها ؟

أن الأمر قد يختلف هنا قليلاً حيث عنى أرسطو بدراسة الواقع في بحوثه الفلكية والطبيعية ، ودراساته عن التاريخ الطبيعى وعلوم الحيوان ومؤلفاته عن الإنسان في مجالات متعددة كالسياسة والأخلاق وغيرها .

ولكننا يمكن – مع ذلك – أن نقول إن فلسفة أرسطو فلسفة نظرية تأملية في درجاتها العليا، فالتأمل العقلى – لديه – هو غاية الفيلسوف ومبتغاه، وأشرف الفضائل – عنده – هى فضيلة النظر العقلى، التى يقوم بها العقل، وهو أشرف جزء فينا، وهذا النظر العقلى هو – عنده – وظيفة الآلهة وفضيلتهم !! ، والسمو إليه هو الذى يجعل الفيلسوف شبيهاً بالآلهة [2] ويتسق هذا الفهم مع ما صرح به كثير من الباحثين في مفهوم الوجود عند أرسطو بأنه معقول، إذ لا تسوقهم الأدلة إلا إلى أن الموجود عنده لا يخرج عن أن

---

(١) انظر عن سقراط : الأستاذ يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية، لجنة التأليف والترجمة والنشر ط٥ /١٩٦٦ ص ٥٢، ٥٣ وانظر لأفلاطون : الجمهورية . ترجمة د / فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ص ٤١٤ – ٤١٧.

(٢) انظر : يوسف كرم : المرجع السابق ١٩٩ ، ٢٠٠.

يكون متعقلاً، فالمدرك الحى يتحدد لديه بقوى نفسية نابعة من الذات العارفة [1] .

ومهما يكن من شيء فقد ذكر إقبال أن المتقدمين من علماء الإسلام لم يلحظوا هذا التعارض بين دعوة القرآن إلى العناية بالكون وبالواقع وهذه الروح اليونانية، وهو تعارض أدى عدم إدراكه لدى المتقدمين من علماء الإسلام إلى الإخفاق « لأن روح القرآن تتجلى فيها النظرة الواقعية، على حين امتازت الفلسفة اليونانية بالتفكير النظرى المجرد، واغفال الواقع المحسوس » [2] .

وكان من نتائج هذا الاخفاق أنهم قرأوا القرآن على ضوء الفكر اليونانى، وظلوا على ذلك فترة من الزمن « قبل أن يتبين لهم بوضوح غير كاف القرآن تتعارض – في جوهرها– مع تعاليم الفلسفة القديمة » [3] .

ويوجه إقبال النظر إلى وجه آخر من أوجه الاختلاف بين الروح اليونانية والروح الإسلامية، ويتمثل هذا الاختلاف في نظرة كل منهما إلى الطبيعة أو الكون، فالثقافة الإسلامية لا تتجاهل هذا الكون، وإنما تحاول فهمه، وهى تبدأ هذا الفهم بالمعرفة الحسية التى تستقيها من الحواس، ولكنها لا تقف عند هذا المستوى من المعرفة – وهو مستوى لا يلقى نصيباً من العناية لدى اليونانيين كما سبق القول – بل إنها تتجاوزه إلى المعرفة العقلية التى يقوم العقل فيها بنقد هذه المعرفة الحسية وتنظيمها وتصنيفها، وهو يفعل ذلك بمقتضى ما له من هيمنة على الحواس، فإذا نفذ العقل ببصيرته إلى تلك المعرفة الحسية تيسر له الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس . ولكن

---

(١) انظر : تفصيل هذه الفكرة : لدى د / فوقية محمود : مقالات في أصالة المفكر المسلم. دار الفكر العربى ط١/ ١٩٧٦ في صفحات كثيرة لاسيما من ٦١ – ٦٦.

(٢) تجديد ص ١٤٦ ، ١٤٧.

(٣) تجديد ص ٩.

مما تجدر الإشارة إليه أن العقل المسلم لا يجعل نفسه أسيراً لهذا الكون المتناهي، الذي يؤدي التوقف عنده إلى الحيرة والتردد والجمود الذي لا يؤدي بالعقل المتأمل إلى شيء، ولهذا يتجاوز العقل المسلم المتناهي إلى اللامتناهي، وينتقل من الكون إلى خالقه، وهنا يستخدم اقبال براعته لتأييد هذه الفكرة بدليل قرآني يتمثل في فهمه لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى ﴾ (النجم : ٤٢) وهذه الفكرة – فيما يقول – « تنطوي على فكرة من أعمق الفكر التي وردت في القرآن، لأنها تشير – على وجه قاطع– إلى أن المنتهى الأخير يجب ألا يُبْحَثَ عنه في حركة الأفلاك، وإنما يبحث عنه في وجود كوني روحاني لا نهاية له » . فالعقل اليوناني يحصر نفسه في النظر العقلي إلى الطبيعة باحثاً فيها عن فكرة النظام والتناسب، التي هي المثل الأعلى عند اليونان كما يقول شبنجلر، أما التفكير الإسلامي فإنه اتجه وِجْهَة اللانهائية، وعلى حين استغرق العقل اليوناني في الكون المتناهي في الخارج بحدوده المعينة، حاول العقل الإسلامي – في مجالات متعددة – الوصول إلى اللامتناهي، وإسعاد النفس به [1] .

وقد كان من حسن الحظ أن التأثر بتلك الروح اليونانية لم يستمر طويلاً، بل تنبه المسلمون إلى ما دعا إليه الإسلام من نظرفي الكون، وعناية بالواقع، وملاحظة لظواهره، وظهر أثر هذا التنبه في تلك الروح النقدية التي نظرت بها فئات مختلفة من المسلمين إلى الفلسفة اليونانية عامة، وإلى المنطق خاصة. وكان من هؤلاء معتزلة كالنظام، وأشاعرة كالغزالي والرازي والآمدي، وكان منهم سلفيون كابن تيمية، بل كان منهم صوفية كشهاب الدين السهروردي(٦٣٢هـ) الذي حاول قصاراه أن يثبت عجز العقل الخاص بنقده للفكر اليوناني في كتابه الذي جعل عنوانه : رشف النصائح اليونانية وكشف

---

(١) تجديد ١٥١ ، ١٥٢ وانظر كذلك ١٤٦ .

الفضائح اليونانية [1] وقد كان نقدهم للمنطق نقداً علمياً منظماً، ويظهر ذلك – بصفة خاصة – لدى أبى بكر الرازى الطبيب في نقده للشكل الأول، كما يظهر لدى السهروردى المقتول (٥٨٧هـ)، وكذا ابن تيمية(٧٢٨هـ) الذى أوضح في ثنايا نقده للمنطق أن الاستقراء هو الطريقة الوحيدة الموصلة إلى اليقين [2] .

وقد كان إقبال شديد العناية بإبراز هذا الجانب من جوانب الثقافة الإسلامية، لكونه ذا دلالة على اصالة العقلية الإسلامية، ذات الخصائص المستمدة من انتمائها إلى الروح القرآنية، التى تميزت بها عن الروح النظرية اليونانية . وقد بين أنه يقوم « بأبحاث معينة في عمل العلماء المسلمين عن المنطق الاستقرائى، وكل تقدم استطاعوا أن يحرزوه عن عمل المنطقيين الإغريق » [3] .

---

(١) ينظر : تطور الفكر الفلسفى في ايران : ٩٦ ويلاحظ إن إقبالا نسب كتاب : رشح النصائح .. إلى السهروردى المقتول الذى عرض فلسفته عرضاً وافياً في كتاب تطور .. ٩٦ – ١١٠ ولكن هذه النسبة ليست صحيحة ، بل هو لسهروردى آخر هو شهاب الدين عمر بن محمد السهروردى أحد أقطاب التصوف في بغداد وصاحب كتاب عوارف المعارف (ت ٦٣٢) ينظر في نسبة الكتاب إليه : ابن خلكان : وفيات الأعيان، تحقيق د / إحسان عباس. طبع بيروت ، ٧ /٣٢٣ تعليق ٤٩٦ ويذكر المحقق أن الكتاب توجد نسخة منه بمكتبة برلين .

(٢) ينظر : تجديد ١٤٧، ١٤٨ ويلاحظ إقبال أن بعض الفقهاء كالأحناف تأثروا بالمنطق الأرسطى، ولكنه يصف هذا التأثر بأنه أدى إلى ضرر بالغ . انظر : تجديد ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٣) د . أحمد معوض : العلامة محمد اقبال : حياته وآثاره ٣٠٧ ويبدو أن إقبالا لم يتمكن من انجاز هذا الذى طمح إلى تحقيقه، ولكن يمكن اعتباره – مع ذلك – طليعة للباحثين، لاسيما الدكتور على سامى النشار في كتابه المنهجى الهام : مناهج البحث عند مفكرى الإسلام. وقد رجع في كتابه هذا إلى كتاب إقبال : تجديد التفكير الدينى في الإسلام في نسخته الانجليزية، واقتبس منه بعض النصوص انظر مناهج البحث .. دار المعارف ط ٤ / ١٩٧٨ ص ٢٧٦ ، ٢٨٩.

وقد انتهى إقبال من هذا العرض لأفكاره إلى نتيجتين هامتين :

أولاهما :

أن المسلمين – بسبب الروح العلمية الواقعية التى وجه القرآن الكريم أنظارهم إليها –كانوا هم الذين وضعوا أسس المنهج التجريبى، القائم على الملاحظة والتجربة، وأنهم هم الذين جعلوا للملاحظة والتجربة هذه المكانة الرفيعة التى أصبحت لهما في المنهج الاستقرائى، ولذلك فإن الأنصاف يقتضى نسبة هذا المنهج – الذى هو أساس نهضة أوروبا وتقدمها – إلى المسلمين، لا إلى أوروبا « فالزعم بأن أوروبا هى التى استحدثت المنهج التجريبى زعم خاطئ »[1] .

وكان من وسائل إثبات بنوة المنهج التجريبى للمسلمين أن إقبالاً أوضح أن العلماء الأوروبيين الذين ظهر لديهم هذا المنهج قد تأثروا بما تعلموه من العلوم على أيدى المسلمين في جامعات الأندلس وغيرها، ومن هؤلاء روجر بيكون الذى تأثر بابن الهيثم في كتابه المناظر، كما تأثر بابن حزم تأثراً واضحاً، واستشهد اقبال – لإثبات هذه الفكرة – بشهادات المنصفين من علماء أوروبا أنفسهم ، ومن هؤلاء بريفولت في كتابه " بناء الإنسانية " الذى يقول فيه « إن روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية في مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه العرب في الأندلس . وليس لروجر بيكون ولا سَمِيُّهُ الذى جاء بعده (يقصد فرنسيس بيكون) الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبى، فلم يكن روجر بيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية،

---

(١) تجديد ١٤٨.

وهو لم يمل – قط – من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربيـــة وعلـــوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة »[1] .

ويرى بريفولت أنه لا توجد ناحية من نـــواحى الازدهـــار الأوروبـــى إلا ويمكن ارجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، ولكن أوروبا لا تدين للمسلمين بهذا وحده، ولا بما قدموه لها من كشوف مدهشـــة، بل إنها تدين لهم بتلك الطاقة المحركة التى أدت إلى نشأة العلـــم وازدهـــاره، وهى تتمثل في منهج البحث، الذى هو ثمرة لما تعلمته أوروبـــا علـــى يـــدى المسلمين .

وأوضح بريفولت أن اليونان غلبت عليهم العنايـــة بوضـــع النظريـــات وتقعيد المذاهب، وتعميم الأحكام، ولكـــنهم لـــم يعنـــوا بجمـــع المعلومـــات وتركيزها، ولم يهتوا بالملاحظات الدقيقة المســـتمرة، ولا بوضـــع المنـــاهج التفصيلية، إن ذلك كله كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى « أما ما ندعوه العلم فقد ظهر في أوروبا نتيجة لروح من البحـــث جديـــدة، ولطـــرق مـــن الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربـــة، والملاحظـــة والمقـــاييس، ولتطـــور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوروبى »[2] .

أما النتيجة الثانية : فهى أن الفلسفة اليونانية لم تكن هى التـــى شـــكلت طبيعة الثقافة الإسلامية، بل إنها – على العكس من ذلك – كانت عائقاً حجب هذه الثقافة عن النهوض والإبداع، وكان عليها أن تخـــوض صـــراعاً بعيـــد المدى، حتى تستكشف خصائصها الحقيقية وملاحها المميزة، ولكى يـــتخلص من التأثيرات التى تسللت إليها، وحين تمكنت من ذلك اســـتطاعت أن تقـــدم إسهاماتها الكثيرة المتنوعة في مجال العلوم والحضارة.وقد كان إقبال شـــديد

---

(١) المرجع السابق ١٤٩ وقارن كتاب الدكتور النشار السابق الإشارة إليه ٢٧٦ ، ٢٧٧.
(٢) تجديد ١٥٠ و د / النشار : المرجع السابق، الموضع نفسه.

الحرص على تسجيل هذه النتيجة وتأكيدها في لغة حاسمة ويظهر هـذا فـي قوله « ولهذا فإنى أود أن أستأصل تلك الفكرة الخاطئة التى تزعم أن الفكـر اليونانى شكل طبيعة الثقافة الإسلامية »[1] .

ولعل السبب في استخدامه لهذه اللغة الحاسمة أنه كان يستحضـر فـي ذهنه بعض الأحكام القاسية التى أصدرها بعض الدارسـين الغـربيين علـى الفكر الإسلامى، حيث وصموه بالتبعية للفكر اليونانى، وجردوه من مظـاهر الأصالة، وأنكروا دوره في نهضة العلم والحضارة . ومن هؤلاء الذين أشار إقبال إلى آرائهم الأستاذ ماكدونالد الذى وصفه بأنه لم يفهم روح القرآن، التى خلقت الحركة الثقافية، التى انتهت إلى ميلاد النزعة التجريبيـة الحديثـة [2] ولعل من هؤلاء ديبور الذى رجع إقبال إلى كتابه : تاريخ الفلسفة في الإسلام مرات متعددة [3] وقد كان لديبور هذا أحكام على الفكر الإسلامى تتعـارض مع تلك النتائج التى توصل إليها إقبال . وكان مما قاله مثلا « وقـد أظهـر علماء المسلمين فيما بعد من الاحترام لكتب العلوم اليونانية مثل مـا أظهـره محمد (عليه الصلاة والسلام) من احترام لكتب اليهود والنصارى المقدسـة، وكان هؤلاء العلماء أعرف بالكتب التى رجعوا إليها، ولكنهم كانوا أقل حظـاً من الابتكار، كانوا يرون أن لقدماء الفلاسفة سلطاناً في العلم يجب الخضـوع

---

(١) تجديد ١٥١.

(٢) تجديد ٢٥ ومن أشهر مؤلفات ماكدونالد كتاب عن علم الكلام الإسلامى . وقد رجـع إليه إقبال كثيراً . انظر : تطور الفكر الفلسفى في إيران ٥٥، ٦١ ، ٦٧ هامش ١٨ ، ٣١ وانظر تجديد ٨١ .

(٣) انظر تطور .. حيث تدل تعليقاته على قراءته للكتاب قراءة مستوعبة فاحصة. انظـر ص ٤٦ هامش ١ ، ص ٦٩ هامش ٤٢، ٤٣.

له، وكان المفكرون الأولون في الإسلام مؤمنين بسمو العلم اليوناني، حتى لم يكن يخالط نفوسهم ريب في أنه قد أبلغ أعلى درجات اليقين !! »[١] .

وليس من البعيد أن يكون لهذه الأحكام أثر في عناية إقبال بتوضيح هذه النتائج التي أثبتها، وتحديدها على هذا النحو القاطع .

وربما كان من مقاصده أن يحرك في مسلمي عصره نوازع اليقظة المفقودة، والقوة المسلوبة، حتى ينهضوا دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم، باذلين جهدهم ليتخلصوا من استعمار أوروبا وهيمنتها على العالم الإسلامي، فكأن اقبالاً كان يحدد هذه النتائج، وعينُه على العالم الإسلامي الذي يرجو له أن يستأنف مسيرة الحضارة، متخذاً من عصوره الزاهرة، وإسهاماته السابقة نبراساً يهتدي به ويسير على هداه، ومعنى ذلك ألا ينسى ماضيه، وإلا وقع في الحيرة والعدم « وإنما تكون معرفة الذات بذكر الماضي.. فاضبط التاريخ، واجعله صرحاً قائماً ..فمن الماضي يولد حاضرك، ومن حالك ينبثق مستقبلك، ولا تقطع خيط الماضي عن الحاضر والمستقبل، إن أردت الحياة الأبدية »[٢] .

ثالثاً :

إذا كان إقبال قد انتهى إلى تلك النظرات النقدية للفلسفة اليونانية فإن من المتوقع أن نجد لديه نظرات مثلها تتعلق بالفلاسفة الإسلاميين، بسبب العلاقة الوثيقة بين فلسفتهم وفلسفة سابقيهم من اليونانيين .

---

(١) ديبور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ، ترجمة ، د / محمد عبد الهادى أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ ص ٣٣ وانظر نماذج أخرى للاحكام التي أصدرها على الإسلام وعلمائه من المتكلمين والنحاة والفقهاء وغيرهم ، ص ٣٤ ،٣٥ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٧٣ ، ٢٨٥.

(٢)د/ أحمد معوض : العلامة محمد اقبال .. ص ٩٥.

١-وقد كان بعض النقد الذى وجهه إقبال إلى هؤلاء الفلاسفة منصباً على أنهم لم يبذلوا جهداً كافياً في التعرف على حقيقة الفلسفة التى نقلت إليهم، وأنهم أسلموا أنفسهم إلى بعض المترجمين الذين لم يكن لديهم دراية حقيقة بمذاهب اليونانيين، وترتب على ذلك أنهم خلطوا هذه المذاهب بعضها ببعض، وانتقل هذا الخلط إلى الفلاسفة الإسلاميين الذى لم ينتبهوا إلى أنه لم يكن ممكناً أن يعرفوا حقيقة هذه المذاهب الفلسفية ، دون خلط بينها ، من غير أن يكونوا على علم باللغة اليونانية ذاتها ، ولو تحقق هذا الشرط المنهجى لأفلت هؤلاء الفلاسفة من أخطاء المترجمين وغيرهم من المنشغلين بالفلسفة، وخاصة من السريان الذين توهموا أن الافلاطونية المحدثة هى الفلسفة المشائية الحقيقية لأرسطو . لكن عدم تحقق ذلك أدى إلى أنهم « ظلوا يتجادلون حول ما حسبوا أنه التعاليم الحقيقية لكل من أفلاطون وأرسطو .. لقد بلغ من جهلهم بحقيقة التمييز بين النظامين الفلسفيين أن ترجمة موجزة لتاسوعات أفلوطين شاعت بينهم على أنها ثيولوجيا أرسطو . ومضت بعد ذلك عدة قرون، حتى أمكنهم التمييز بين تعاليم هذين القطبين من أقطاب الفكر الإغريقى، وإن كان من المشكوك فيه أن يكونوا قد فهموا فلسفة كل منهما فهماً دقيقاً »[١] .

ويشير إقبال في هذا النص إلى تلك المسألة المشهورة المتعلقة بكتاب ثيولوجيا أو الربوبية، الذى نسب خطأ إلى أرسطو، بينما هو في الحقيقة بعض من فصول كتاب التاسوعات لأفلوطين . ولا يختلف أحد مع إقبال حول أهمية الرجوع إلى الفكر اليونانى بلغته الأصلية، وأن التقصير في ذلك يجعل المقصر جديرا باللوم، ولكن ينبغى – مع التسليم بذلك– أن نلاحظ بعض الأمور التى تخفف من حدة الهجوم على هؤلاء الفلاسفة، بل قد تؤدى

(١) تطور الفكر الفلسفى في إيران ٣٢ ، ٣٣.

إلى التماس بعض العذر لهم، لأنهم لم يتعمدوا الخلط أو الخطأ ، بـل كـانوا ضحية له .

ومن بين الملاحظات أن هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا هـم الـذين نسـبوا الكتاب إلى أرسطو، بل نُسِب – من قبلهم – إليه عدد من الكتب المنحولة مثل كتاب التفاحة والإيضاح في الخير المحض . وقد كان للسريان دخل في ذلـك كما ذكر إقبال نفسه . و جاء المترجمون فنقلوا الكتاب إلى العربيـة دون أن يتنبهوا إلى ما وقع فيه السابقون من خطأ النسبة . ولم يكن لـدى الفلاسـفة –عندئذ– كما يقول ديبور « ما لدينا مـن وسـائل لتمييـز كتـب أرسـطو الصحيحة من الكتب المنحولة »(١) .

ولعل مما يقدم بعض العذر لهم – زيادة على ما سبق – أنه ربما كـان من العسير اكتشاف هذا الخطأ في ظل الاتجاه العامّ إلى التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، وهو اتجاه قديم ظهر لدى اتباع الأفلاطونية المحدثة من اليونـانيين أنفسهم ، ثم لدى السريان من بعدهم . ومن أشهر الدعاة إلـى هـذا الاتجـاه أمونيوس ساكاس، وبورفير، وجامبليك وسـيريانوس ، ومـنهم – كـذلك– يامبليخوس وسامبليقيوس (٢) .

ولم يكن غريباً – في ظل هذه الظروف – أن يظل هذا الكتاب منسـوبًا إلى أرسطو إلى وقت قريب جداً، بلغ إلى أواسط القرن التاسع عشـر حـين بدأت الشكوك تراود بعض الدراسيين الغربيين حول المؤلف الحقيقـي لـه . وقد استمر البحث الجاد الذى تعاون على القيام به عديد من الدراسين حتـى

---

(١) ديبور : تاريخ الفلسفة في الإسلام ص ٣٢.

(٢) انظـر : Serouya , Henri : La pensee Arabe P.U. F . Paris p ٩٠
وكذا : تاريخ الفلسفة اليونانية مرجع سابق : ٢٨٦ ، ٢٩٨، ٣٠٣ .

تبين لهم – عن طريق النقد الداخلى ومقارنة النصوص – خطأ نسبته إلى أرسطو (1) .

على أن مما تجدر الإشارة إليه أن إقبالاً لم يكن يقصد من وراء هذا النقد أن يغمط هؤلاء الفلاسفة حقهم، أو أن يرميهم بالتقليد أو الخضوع لسابقيهم، فالقول بذلك – في رأيه – نوع من عدم الإنصاف .لكن هذا الميل إلى الإنصاف لم يمنعه من أن يسجل هذه الملاحظة التى توشك أن تكون نوعاً من الاشفاق أو الرثاء لهؤلاء الفلاسفة وفي ذلك يقول « وتاريخ جهودهم العقلية ليس إلا حلقة في سلسلة المحاولات، للخوض في هذا الخضم الهائل من النصوص السخيفة التى خلقها مترجمون غير أكفاء، للفلسفة الإغريقية » (2) .

٢-ويضيف إقبال إلى ما سبق أن الفلسفة عند الإسلاميين قد احتفظت بالطابع النظرى الموروث من الفلسفة اليونانية، وقد أورثها ذلك عزلة عن المجتمع، وعجزاً عن التأثير فيه، وانشغالاً بالفكر ، أفقدها حرارة الحياة، ونبض الكفاح، والقدرة على التغيير. ويعبر اقبال عن ذلك شعراً فيقول :

سمعت بمكتبتي ليلة ... يناجى الفراشةَ سُوسُ الكتاب

يقول مررت بكتْب ابن سينا ... ونقبت في كتب الفارابى

ولم أدر حكمة هذى الحياة ... وما زلت من ظلمتى في حجاب

تجيب الفراشة في حرقة ... أرى نكتة لا تُرى في كتاب

---

(1) انظر : د / عبد الرحمن بدوى : أفلوطين عند العرب، وكالة المطبوعات الكويت ط ٣ / ٧٧ ص ٣ وما بعدها.

(2) تطور الفكر الفلسفى في إيران ٣٣.

رأيــت الكفـــاح يعــدُ الحيـــاة   رأيت الكفـــاح يمــد الحيـــاة [1]

وقد خالفت الفلسفة بمسلكها هذا روح الإسلام،الذى أثار في اتباعه روح الكفاح والعناية بالواقع ، ويتفق معه في هذا الاتجاه الواقعى العلوم والطبيعية التى تلتقى معه على الجد والعمل،والبعد عن الانشغال ببحوث لا جدوى منها.

وقد أوضح إقبال أن انشغال الشرق بالجدل والمباحثات المتعلقة بالفلسفة الإلهية، بدلاً من الاهتمام بالجوانب العملية، قد اســتهلك قــواه، وأدى إلـــى ضعفه وتأخره . وقد تعرضت أوروبا لهذه الظــاهرة فـــي بعــض فتـــرات تاريخها، لكنها ثارت على هذا الاستغراق في بحوث ما بعد الطبيعة، وبدأت تشتغل بعلوم الطبيعة المجدية، وكان ذلك من أسباب نهضتها وقوتها وهيمنتها على العالم [2] .

*ولا يقصر إقبال هذا النقد على الفلاســفة وحــدهم ، وإنمــا يتوجـــه به – كذلك – إلى علماء الكلام الذين يصفهم بأنهم حولوا الدين من قوة حيوية إلى جدل نظرى أو إلى كلام، وقطعوا بذلك الصلةَ التى لا ينبغـــى أن تقطـــع بين العقيدة والعمل ، وأصبحت كلمة التوحيد تشبه الغمد الذى لا ســيف فيـــه وفي ذلك يقول شعراً :

قائد الجيش قد رأيــت غُمُــوداً   من هو الله ما بها مــن حســام

ما درى الشيخ أن توحيــد فكــر   دون فعــل يعــد لغــو كــلام [3]

ويخص إقبال المعتزلةَ – من بين الكلاميين – بنصيب أوفى مـــن هـــذا النقد، حيث تحول الدين عندهم إلى مجموعة من العقائد النظرية، متجـــاهلين

---

(١) د/ عزام : محمد إقبال : سيرته .. ص ١٨٠ .

(٢) انظر الندوى : روائع اقبال ٦ ، ٧.

(٣) إقبال : ضرب الكليم ترجمة د / عزام ، وهو يشير بقوله : قل هو الله إلى قوله تعالى في سورة الإخلاص (قل هو الله أحد).

أنه حقيقة حيوية، وأرجعوا الدين إلى نسق من المعاني المنطقية، انتهى به إلى موقف سلبي بحت [1] ، وكان الاهتمام بالفكر والتصور على حساب ما يطمح إليه الدين من تأثير وتغيير .

*وإذا كانت الفلسفة قد خالفت الدين بهذا الطابع النظرى الذى غلب عليها فإنها – بسببه أيضا– تعد عاجزة عن أن تكون أداة للنهضة والتطوير للمجتمع الإسلامى، وتلك ثمرة متوقعة لعجزها عن تحديد مشكلاته وأدوائه ، وقصورها عن ملاحقة ما يتعرض له من عوامل التأثير الطارئة أو الوافدة، ثم قصورها – تبعاً لذلك كله – عن رسم منهج لمواجهة هذه المشكلات وعلاجها .

وقد أفضى إقبال بهذا النقد في مقام حديثه عن تأثير الأحداث السياسية في العالم الإسلامى، الذى احتلت أوروبا أرضه، وسعت إلى تثبيت هيمنتها عليه، وعلى حين كان الواقع الذى يعيشه العالم الإسلامى يدعو إلى اليأس، كان إقبال يرى – في– الثلاثينات من هذا القرن – أن المسلمين سوف ينهضون لمواجهة التحدى، وسوف يكون الاحتلال نفسه عاملاً من عوامل إيقاظ روح المقاومة فيهم، وبعث عناصر القوة المذخورة لديهم، وسوف يتحول اليأس والضعف إلى أمل وقوة « إذا رأيت النجوم شاحبة منكدرة

---

(١) انظر تجديد ص ١٠ ويمكن القول بأن هذا النقد لا ينطبق على فكر المعتزلة في جملته، حيث إنهم جعلوا العمل جزءاً من الإيمان، وجعلوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصلاً من أصولهم الخمسة .ومن شأن ذلك أن يجعل للعمل جانباً مهماً في فكرهم، ولكن ربما قصد إقبال بهذا النقد موقفهم من الصفات الإلهية حيث تحدثوا عنها حديثاً يغلب عليه طابع النفى والسلب ، وكادت الذات الإلهية – بحسب تصورهم – تتحول إلى فكرة مجردة، ومن أجل هذا نُسِبَ المعتزلة إلى التعطيل. انظر : الأشعرى : الإبانة عن أصول الديانة تحقيق د / فوقية محمود . طبع دار الكتاب ط ٢ / ١٩٨٧ جـ ٢٤٣/٢وانظر الملل والنحل للشهرستانى بهامش الفصل لابن حزم . طبع المطبعة الأدبية ١٣١٧ هـ ١/ ٥٧ ، ٥٨.

تخفق، فاعلم أن الفجر قريب، ها هى الشمس قد قر قرنها فى الأفق، وولى الليل على أدباره . إن عاصفة الغرب قد أعادت المسلم إلى الإسلام، فإنما تتكون اللآلئ في البحر المتلاطم الهائج . لقد دب دبيب الحياة في الشرق، وجرى الدم الفائر في عروقه الميتة، وذلك سر لا يفهمه ابن سينا والفارابى »[1] .

ويحكى إقبال أن صديقاً له ينحدر من سلالة بنى هاشم كان شديد الإعجاب بالفلسفة كثير التعصب لها، فكتب إليه إقبال عن رأيه في الفلسفة، مبيناً المفارقة الواضحة في قيامه – وهو ذو الأصل البرهمى – بنصيحة هذا الصديق ذى الأصل العربى الهاشمى . وقد أوضح له أن الفلسفة قد امتزجت بلحمه ودمه، وجرت منه مجرى الروح، وأن حديثه عنها حديث العارف الخبير، ولكن تبين له – بعد طول الدرس والتعمق – أن الحكمة الفلسفية ليست إلا حجاباً للحقيقة، وأنها لا تزيد صاحبها إلا بعدا عن صميم الحياة ! وأن بعض مذاهبها البراقة تشبه أن تكون صدفة خالية من اللؤلؤ . ومادام الأمر كذلك فإن على المرء أن يبحث عن منهج أو مبدأ يستعين به على إتقان الحياة وتحقيق الخلود، وهذا أمر تعجز عنه الفلسفة ولا ينهض به إلا الدين « إن الدين هو الذى ينظم الحياة، وإنه لا يكتسب إلا من إبراهيم ومحمد ﷺ ، فعليك أيها السيد بتعاليم جدك ﷺ . إلى متى يا ابن على تقلد أبا على ؟ ! إذا لم تكن بصيراً بالطريق فالقائد القرشى خير لك من القائد البخارى »[2] .ولم يكن اختيار الدين هنا مستغرباً فهو – من جهة – محكوم بنظرة إقبال العامة إلى العلاقة بين الدين والفلسفة، وهو – من جهة أخرى

---

(١) الندوى : روائع اقبال ٦٩.

(٢) السابق : ٤٧ ، ٤٨ وانظر ضرب الكليم ص ١٠ والمقصود من ابن على أنه ينتسب إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه أما أبو على فهو ابن سينا . والمقصود بالقائد القرشى : الرسول ﷺ .أما القائد البخارى فهو ابن سينا.

– مرتبط بنظرته العامة إلى الطريق الذى يجب على العـالم الإسـلامى أن يسلكه إذا أراد أن يشفى من أمراضه التى وقع فريسـة لهـا فـي عصـوره الأخيرة، وكانت سبباً فيما يعانيه من ضعف وتخلف وتبعية فكرية، وقد بـين أن الدين هو الطريق الأمثل للإصلاح والنجاة، وذلك هو دور الإسلام الـذى سما – فيما مضى – على فلسفة اليونان وحكمة الرومان وملك الفرس، وغير ذلك من تراث العالم القديم [1] وهو قادر في الحاضـر والمسـتقبل علـى أن ينهض بالبشرية مرة أخرى، ولذلك كان إقبال ينادى المسـلمين أن يمسـكوا بأهداب القرآن إذا أرادوا النجاة [2] .

وهكذا كانت رغبته في إصلاح أحوال المجتمع الإسلامى إحدى الركائز التى حكمت نظرته إلى الفلسفة بصفة عامة، وإلى الفلسفة الإسـلامية بصـفة خاصة، لأنه لم يكن يبحث عن نسق عقلى يستحوذ على إعجابه بما ينطـوى عليه من إحكام وانسجام، دون أن تكون له ثمرة فعلية فـي المجتمـع وفـي الحياة، وإنما كان يبحث عن منهج يتحقق به الإحياء والإصـلاح والنهضـة، وكان الدين هو هذا المنهج، حيث يتحقق فيه سمو المصدر، وكمـال النظـرة إلى الإنسان : فكراً وإرادة وشعوراً وسلوكاً، وتقديم الإجابة علـى تسـاؤلات الإنسان حول وجوده وخلوده، ولذا رجحت عنده كفه الدين على الفلسفة .

ويمكن القول بأن ما انتهى إليه من رأى لم يكن نابعاً من فكـرة عـابرة أو تأمل سريع، بل كان ثمرة تفكير طويل وتأمل عميق، وقد جاء التعبير عن هذا الرأى في مؤلفات كثيرة نثرية وشعرية، ظهرت على فتـرات متباعـدة يرجع أقدمها إلى عهد كتابته لرسالة الدكتوراه فـي ألمانيـا ١٩٠٨ ويرجـع أحدثها إلى عام ١٩٣٧ أى إلى ما قبل وفاته بعام، وكان تعبيره عنه ذا صبغة

---

(١)انظر : محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان : فلسفة اقبال . طبع الحلبـى ١٩٥٠ ص ٨٦.

(٢)انظر رسالة الخلود ١٥٨.

منهجية لا ينقصها البرهان . ولئن كان بعض ما ساقه من أفكار يتسع لوجهات أخرى من النظر فإن ذلك لا يقلل من قيمتها أو يهون من أصالتها، وأفضل ما نجده لديه – في سياق حديثه عن العلاقة بين الدين والفلسفة – يتمثل فيما وجه النظر إليه من أن المسلمين قاموا – بتأثير الروح القرآنية – بنقد المنطق اليونانى، وإسهامهم في وضع أسس المنهج الاستقرائى ثم إسهامهم –نتيجة لذلك – في تطور العلم وبناء الحضارة الإنسانية، وقد كان – بهذا – أحد الرواد الذين نبهوا إلى هذه المسألة في قوة مبنية على البرهان . وليس بمستبعد أن يكون لآرائه هذه أثر كبير فى توجيه الباحثين من بعده لاستيفاء البحث حول هذه الأفكار على نحو أكثر شمولاً وتفصيلاً، لاسيما وأن بعضهم [1] يرجع إلى بعض كتبه، ويستشهد ببعض أفكاره . وذلك أمر يحمد له على كل حال .

۞ ۞ ۞

(١) انظر الهامش رقم ٥٠ هنا.

المشروع الحضاري لمالك بن نبي
ودور العقيدة فيه

تمهيد :-

مالك بن نبي مفكر إسلامي معاصر (١٩٠٥ – ١٩٧٣م) . ولد بالجزائر ، وتوفي بها ، وقضي شطرا كبيرا من حياته في فرنسا . وقد حصل منها علي شهادة في الهندسة ١٩٣٥ ، وعاش بالقاهرة بعض سنوات عمـره ، بعـد أن لجأ إليها عام ١٩٥٦ وألقي عديداً من المحاضرات بها ، كما ألف بها بعـض كتبه ، كما ألقي بعض المحاضرات في سوريا وفي لبنان[١] ..

ويعد مالك بن نبي واحدا من أبرز وأكثر الذين شُـغلوا – فـي الفكـر الإسـلامي المعاصـر – بموضـوع الحضـارة فـي قيامهـا وازدهارهـا واضمحلالها ، وكان من الطبيعي أن تكون الحضارة الإسلامية فـي بـؤرة اهتمامه . وكان سؤال (النهضة) هو السؤال الكبير الذي ألح علي عقلـه ، شأنه في ذلك شأن أمثاله من المفكرين منذ رفاعة الطهطاوى ، ومـن جـاء من بعده كالأفغاني وخير الدين التونسي ، وعبد الرحمن الكواكبى ،ومحمـد عبده ، وشكيب أرسلان ، ورشيد رضا وغيرهم . وقد انشغل هؤلاء بقضـية النهضة ، وتعددت مناهجهم في درسها ، كما اختلفـت الطـرق والوسـائل لتحقيقها ، وتحديد السبل التي تعين الأمة الإسلامية علي الخروج من الوهـدة الحضارية التي ألمت بها في القرون الأخيرة من تاريخها . وقد فرضت هـذه القضية المصيرية الحاسمة نفسها علي عقولهم ، ولم يكـن هنـاك بـد مـن مواجهتها .

---

(١) ترجم مالك بنفسه للنصف الأول من حياته إلى عام ١٩٣٩ ، الذى قامت فيه الحـرب العالمية الثانية ، وجاءت هذه الترجمة تحت عنوان : مذكرات شاهد للقرن ، وطبـع بإشراف ندوة مالك بن نبى ، دار الفكر ،سوريا ط ٢/ ١٩٨٤ .

وكان علي مالك بن نبي أن يسهم بنصيبه فيها ، وقد كانت النهضة فكرة جوهرية لديه ، ظهرت في العديد من كتبه ، والكثير من مقالاته ، كما تجلت في جهوده العملية التي اتسم بها نشاطه الدءوب .

أ –ولم يكن اهتمامه بهذه القضية مجرد استجابة لشواغل فكرية ، كما لم تكن دراستها تلبية لدوافع فلسفية خالصة ، بل إن ذلك كان استجابة – كذلك – لدوافع عملية ترجع إلي تكوينه الفكري والمهني ، فهو مهندس كهرباء ، وهو – بحسب خبرته في هذا المجال – يتجه وجهة عملية ، تُعني بتحديد المشكلات ، والبحث عن أسبابها ، والعمل علي تقديم حلول عملية لها، دون استغراق في فروض نظرية تجريدية ، وهو – في العادة – لا يلجأ إلي مثل هذه الفروض إلا إذا كانت سبيلا أو مدخلا لحل المشكلات التي يواجهها ، وقد كان هذا التكوين العملي من وراء اختياره لبعض أنواع العلاج التي يقترحها لمواجهة حالة التخلف التي يواجهها العالم الإسلامي ، وتمثل ذلك في حديثه عما أسماه المنطق العملي الذي يرتبط بالواقع والوسط الاجتماعي ، وما يشتمل عليه من إمكانيات ، وما يوجد فيه من عقبات ، وقد بين أننا (أحوج ما نكون إلي هذا المنطق العملي في حياتنا ؛ لأن العقل المجرد متوفر في بلادنا ، غير أن العقل التطبيقي الذي يتكون في جوهره من الإرادة والانتباه فشئ يكاد يكون معدوماً) ثم يقول (إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة ، ولكن منطق العمل والحركة ، فهو لا يفكر ليعمل ، بل ليقول كلاماً مجرداً ، بل أكثر من ذلك ، فهو أحياناً يبغض أولئك الذين يفكرون تفكيراً مؤثراً ، ويقولون كلاماً منطقياً، من شأنه أن يتحول في الحال إلي عمل ونشاط ، ومن هنا يأتي عقمناً الاجتماعي ، فنحن حالمون ، ينقصنا المنطق العملي ..) [1].

---

(١) مالك بن نبى : شروط النهضة ، ترجمة عمر كامل مسقاوى ، د/ عبد الصبور شاهين ، دار الفكر ط٣ / ١٩٦٩ ص ١٤٥ – ١٤٧ .

ولم يكن ذلك غضاً من قيمة الفكر والنظر والتأمل والفلسفة ، عند مالك بن نبي ، فلقد قدم هو نفسه – أعمالا فكرية من طراز رفيع ، وقد تضمنت من شمول الرؤية ، وتكامل الأبعاد ، وعمق التحليل وانسجام التكوين ما يجعلها جديرة بإدراجها ضمن الرؤى الفلسفية الناضجة ، ولكنه كان حريصاً علي الالتصاق بالواقع ، والنفاذ إلي أعماقه ، وحل مشكلاته ، دون توقف عند مستوى التحليل والتنظير ؛ لأنه كان راغباً في تغيير الواقع المرير الذي يعيشه المسلمون . وقد كان حريصاً علي أن يبين للمسلمين أن أزمتهم تتمثل في الركود الذي يعيشون فيه ، وفي عزوفهم عن الحركة ، وفي قعودهم عن السير في ركب التاريخ . وكان يرى أن من أوجب الواجبات (أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ) [١].

ولعل هذه النزعة – لديه – ترجع كذلك إلي تكوينه الديني الإسلامي الذي يمثل عنصراً أساسياً من عناصر ثقافته . ففي الإسلام ارتباط وثيق بين الإيمان والعمل الصالح ، والعمل فيه ركن من أركان الإيمان أو ثمرة ضرورية له ، وقد كان المسلك العملي للرسول صلي الله عليه وسلم – فضلاً عن أقواله التي نهت عن الجدال والمراء – خير هادٍ إلي هذا التوجه العملي (فعندما كان المسلمون الأول يشيدون مسجدهم الأول بالمدينة ، كان هذا أول ساحة للعمل ، صنعت فيها الحضارة الإسلامية . فلو أننا نظرنا إلي هذه الساحة – في بساطتها وقلة شأنها في ذلك الوقت – لدعانا المشهد إلي الابتسام

ولكن ، أليس هنالك قد تلقي بنّاءو الحضارة الإسلامية دروس العمل ؟ أوليسوا – هنالك – قد قبضوا لأول مرة علي عصا التاريخ ؟) [٢].

---

(١) السابق : ١١٣، ١١٤.

(٢) السابق ١٦٢ ، ١٦٣.

ومادام الأمر كذلك فإنه كان حريصاً علي توجيه الأنظار والعقول إلى هذا الطابع العملي الذي هو من أهم شروط النهضة ، وكان من بواعث الأسى – لديه – أن يرى هذا العنصر متخلفاً في واقع المسلمين ، وظهر ذلك في مثل قوله (ولقد يقال : إن المجتمع الإسلامي يعيش طبقاً لمبادئ القرآن ، ومع ذلك فمن الأصوب أن نقول : إنه يتكلم طبقا لمبادىء القرآن ، لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه) [١].

ولم يكن لمالك بن نبي – بسبب تلك النزعة العملية لديه – أن يتجاهل ذلك الواقع المؤسف الذي تمر به الأمة الإسلامية في أقطارها المختلفة ، حيث تشيع الأمية ، ويطغى الجمود والركود والتقليد والتخلف والتجزئة ، ويخضع العالم الإسلامي – في معظمه – للاستعمار الذي يسعى إلي فرض ثقافته ونظمه ، وإشاعة أفكاره وتوجهاته بين المسلمين .

ب – وقد كان هذا الاستعمار نفسه أحد الأسباب التي دفعته إلي الاهتمام بقضية النهضة ، فلقد التقي مالك بالحضارة الأوروبية – التي كانت بلادها تحتل أكثر بلاد العالم الإسلامي – لقاء مباشراً ، وقد عاش في ظلها ، أثناء إقامته وطلبه للعلم في فرنسا ما يزيد على ربع قرن . ودفعه ذلك – وهو في سنوات الشباب والتكوين الفكري – إلي المقارنة والموازنة بين ما يراه في فرنسا وما يراه في العالم الإسلامي ، وكان حريصاً علي تحديد مواطن القوة والضعف ، ومعرفة أسبابهما ، وكانت المقارنة تشعره بالأسى في كثير من الأحيان (ونظرة إلي واقعنا لنرى الرجل الأوروبي والرجل المسلم : أيهما ذو نشاط وعزم وحركة دائبة ؟ ليس هو الرجل المسلم بكل أسف) [٢] .

---

(١) السابق ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) السابق ١٤٧ وانظر ١٧٢ ، وإن كان ذلك لا يعنى أن أوروبا فى الموضع الأفضل دائماً ، بل إنها فى بعض الأمور الاجتماعية تعانى مشكلات خطيرة ، انظر : السابق ١٧٨ – ١٨٠ .

وقد كان هذا الواقع يستفز قواه الفكرية والنفسية ، ويدفعه دفعاً إلي العناية بتخليص العالم الإسلامي من عوامل ضعفه ، وتحديد معالم الطريق الذي يستعيد به تجربته الحضارية الكبرى التي كانت له في عهده القديم ، والتي يمكن له أن يقوم بمثلها ، إذا تحققت له شروط النهضة التي أثمرت حضارته السابقة ، وهي مرتبطة بالسنن الإلهية في قيام الحضارات وانحسارها . ولقد كان شوقه إلي تحقيق هذا الأمل يدفعه إلي التذكير بعناصر القوة الكامنة في الأمة الإسلامية ، علي الرغم من الضعف المخيم عليها ، ولعله كان يُغالب بذلك حالةَ اليأس التي يمكن أن تتسلل إلي بعض النفوس ، فتشل إراداتها ، وتبدد قواها ، مما يزيدها ضعفاً وإخفاقاً . إنه – علي العكس من ذلك – يقول (فهناك ملايين السواعد العاملة ، والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية ، صالحة لأن تستخدم في كل وقت . والمهم هو أن ندير هذا الجهاز الهائل ، المكون من ملايين السواعد والعقول ، في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه) [1].

ج – علي أن من أسباب اهتمامه بقضية النهضة أنه كان يرى بعض الشواهد التي تؤذن بقرب ميلادها ، كما كان يلاحظ تعدد الأصوات التي تبشر بها وتدعو إليها ، وما تثمره تلك الدعوات من يقظة في الشعور وبعث للهمم ، وتجميع للقوى ، وهذا يؤذن بتغير الأحوال إلي ما هو أفضل . وفي ذلك يقول (لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهراً طويلاً ، كأن لم يكن له هدف ... وقبيل ميلاد هذا القرن سمع من يُذَكِّره بمرضه ، ومن يحدثه عن العناية الإلهية التي استقرت علي وسادته ، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ، ولديه الشعور بالألم . وبهذه الصحوة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الإسلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها النهضة) [2].

---

(١) السابق : ١١٧.

(٢) السابق : ٥٧ .

ومن المعلوم أن مجرد الخروج من السبات – وما يصحبه من شعور بالألم – لا يمثل صحوة ، ولا نهضة ، ولكنه يمثل بادرة صحوة ومقدمة نهضة ، وهو شرط ضرورى للحركة ، والنهضة والتقدم ، وهو يماثل اقتناع المريض بأنه مريض ، فبِدون هذا الاقتناع لن يذهب إلي الطبيب ، ولن يبحث عن علاج ، ومن ثم كان الإحساس بالواقع المؤلم مقدمة للعمل علي تغييره ، وكان طبيعياً أن يصف مالك ذلك الإحساس بأنه صحوة خافتة ، وهي مقدمة ضرورية لا غني عنها للخروج من الأزمة الحضارية التي كان العالم الإسلامي يعيش مستسلما لها ، ولعله – في لحظات ضعفه وعجزه – قد فقد الأمل في الخروج منها أو فقد القدرة علي ذلك . لكن شعوره بالأمل ، ورغبته في تغيير واقعه ، وإثبات وجوده ، واستعداده لتحمل آلام المخاض الجديد – كل ذلك كان بشيراً بهذا التحول الذي يدل علي سريان الدماء في عروقه ، وتجدد الأمل في نفسه ، علي نحو يؤذن بتغير واقعه ، وتجديد حياته وتخطي أزمته الحضارية ، المتمثلة في سباته الطويل خلال القرون الأخيرة ، وعليه – إذن – أن يحاول أن يؤدي نشاطه من جديد كما سبق أن فعل ، يوم كان ممسكا بمشعل الحضارة[1]ويتفق هذا مع حديث مالك ، المتكرر عن أهمية الإرادة الإنسانية ، واعتبارها نقطة البدء لكل تجديد أو تغيير أو حركة أو عمل ، وكثيراً ما كان مالك يردد الآية القرآنية التي تدل علي ذلك وهي قوله تعالي : ﴿ **إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [الرعد : ١١] .

والتغيير – إذن – يبدأ في النفس أولا ، ثم ينتقل إلي الحياة الاجتماعية ،وهذا هو الشرط الجوهري لكل تحول اجتماعي رشيد [٢].

---

(١) انظر : ميلاد مجتمع. ترجمة (د) عبد الصبور شاهين دار العروبة ، القاهرة ط١ / ١٩٦٢ جـ ١ / ٤، ٣ .

(٢) انظر مثلا : شروط النهضة ٣٢ ، ٤٢ ، ٧٢ ومواطن أخرى .

وهكذا كان مالك حفياً بهذه اليقظة ، ناظراً إلي ما يمكن أن يترتب عليها من نتائج ، ولا يخلو حديثه عنها من نزعة تفاؤلية ، ليست بمستغربة علي أمثاله من الدعاة إلي النهضة والتغيير ، وهي تمدهم بزاد من الطاقة والتحمل ، وقدح الفكر والذهن : بحثاً ودرساً وتأملاً ، ولكن تكوينه النفسي ، ومنطقه العملي كانا يردانه إلي الواقع ليزداد فهماً له ، وتنقيباً عن العلل والأمراض الكامنة فيه . وقد تبين له – بطول التأمل – أن محنة العالم الإسلامي ترجع إلي سببين : **أولهما : أن الأفكار التي أثبتت فعاليتها في بناء الحضارة الإسلامية منذ ألف عام ، قد فقدت التصاقها بالواقع ، ومن ثم لم** تعد قادرة علي التأثير فيه ، ومن ناحية **ثانية** فإن أفكار أوروبا التي أدت إلي تشييد الحضارة الأوروبية ليست بقادرة علي النهوض بالعالم الإسلامي ، لأنها وافدة من ثقافة أخري غير ثقافته ، ولم يتح لهذه الأفكار أن تؤثر في الواقع الإسلامي كما أثرت في بلد كاليابان . والمحنة – إذن – مركبة (ونحن – اليوم – نقاسي هذا التدهور المزدوج . فالأفكار المخذولة في هذا الجانب أو ذاك لها انتقام رهيب) [1] .

ويرى مالك أن الخطوة الأولي ، التي ينبغي أن تكون سابقة علي كل شيء، هي تحديد مواطن الداء ، وتشخيص الأمراض التي أدت إلي الوصول بالمجتمع الإسلامي إلي ما هو عليه من ضعف وتفكك وجمود ، وأن يتم ذلك التحديد والتشخيص بطريقة منهجية كلية لا تستغرقها التفصيلات ، ولا تشتتها الجزئيات ؛ لأن مثل هذه النظرات الجزئية تتسم بالقصور عن معرفة الداء ، ورسم الطريق إلي العلاج . وقد أشار مالك إلي أنه توجد دراسات ووثائق ومقالات ومؤتمرات

---

(١) مالك بن نبى : مشكلة الأفكار فى العالم الإسلامى ، ترجمة د/ بسام بركة ، د/أحمد شعبو ، دار الفكر ، سوريا ، ط١/ ١٩٨٨ ص ١٥٩ ، ١٦٠.

(تتصل بموضوع النهضة . هذه الدراسات تعالج الاستعمار والجهل هنا ، والفقر والبؤس هناك ، وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى . ولكن ليس فيها تحليل منجهي للمرض ، أعني دراسة مرضية للمجتمع الإسلامي ، بحيث لا تدع مجالاً للظن حول المرض ، الذي يتألم منه منذ قرون) [١].

وقد كان هذا من أوجه النقد التي وجهها إلي جهود بعض المصلحين المهمومين بقضية النهضة ، فقد وصف كل منهم أوضاع المجتمع الإسلامي وأمراضه ، تبعاً لرأيه أو لمزاجه أو مهنته ، علي حين أن كل هذه التشخيصات لا تتناول جوهر المرض ، بل تتحدث عن أعراضه، ولا تتناوله في جملته بل في أجزائه. وقد نتج عن هذا أنهم ظلوا نصف قرن لا يعالجون المرض نفسه ، وإنما يعالجون أعراضه[٢].

ثم نجده – في مناسبة أخري – يؤكد علي النظرة الشاملة ، والمنهجية في التعامل مع المشكلات ، لأن ذلك هو المدخل الطبيعي الناجح لحسن فهمها ، ووضع السبل الناجعة لمواجهتها ، يقول : (وآيا ما كان الأمر فإن عملية إعادة التنظيم والتوجيه ينبغي أن تكون المهمة الأولي في خطة النهضة الإسلامية ، لأن تحقيقها هو الذي يوجد الشرط الأول لتحويل الجهود في نطاق هذه النهضة إلي جهود فعالة) [٣] .

وقد كان مالك حريصاً علي أن يربط بين ضرورة التشخيص المنهجي الشامل للمرض ، دون وقوف عند أعراضه الظاهرة ، وبين المواجهة الحقيقية له ؛ لأن التشخيص الدقيق دون علاج لن يؤدي إلي التغلب عليه

---

(١) شروط النهضة : ٥٨.

(٢) السابق ٥٨ ، ٥٩.

(٣) وجهة العالم الإسلامى ، ترجمة د/ عبد الصبور شاهين . دار الفكر ، سوريا ١٩٨٦ ، ص ١٣٩ وانظر ٨٨ ، ٨٩ .

أو الشفاء منه (فإن الحديث عن المرض أو الشعور به لا يعني بداهة الدواء) [1]. ويكشف هذا القول عن إحدى خصائص تفكير مالك ، وهي تلك التي تعنى بالربط بين الفكر والعمل ، كما يكشف عن منطقه العملي الذي طالما تحدث عنه ، وجعل الإعراض عنه سبباً من الأسباب التي أدت إلي تخلف المسلمين .

وانطلاقا من هذا التصور المنهجي الشامل الذي دعا إليه مالك وجدناه ينظر إلي النهضة المأمولة من ناحيتين :

١-تلك التي تتصل بالماضي ، أي بخلاصة التدهور ، وتشعبها في الأنفس والأشياء .

٢-تلك التي تتصل بخمائر المصير ، وجذور المستقبل[2] .

ومن الطبيعي أن تحظي الناحية الأولي بالأولوية والسبق ، فالتخلية قبل التحلية كما يقول الصوفية ، ودرء المفاسد مقدم علي جلب المصالح كما يقول الفقهاء والأصوليون ، ومن هنا وجدناه يدعو إلي معرفة الجوانب السلبية أولا (وربما رأينا أن من الضرورى – علي الأقل – أن تقوم ألوان النشاط الدالة علي يقظة الضمير الإسلامي في مختلف قطاعات الحياة الاجتماعية ، علي أساس دراسة علمية للعوامل السلبية ، وأسباب العطل ، الضارب بطنبه في حياتنا) [3].

والهدم – إذن – ينبغي أن يكون سابقا علي البناء ، لأن العوامل السلبية تنال من قوة الأساس وصلابته ، وتؤدى إلي إصابته بالضعف والهشاشة ، ولذلك كان من أول الواجبات لديه (تصفية عاداتنا وتقاليدنا ، وإطارنا الخلقي

---

(١) شروط النهضة : ٥٧ .

(٢) شروط النهضة ١٢٠ ، ومشكلة الثقافة ، إصدار ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر . سوريا ط ٢ / ١٩٩ ص ٦٨ .

(٣) وجهة العالم الإسلامى ، ص٣٣ .

والاجتماعي مما فيه من عوامل قتالة ، ورمم لا فائدة منها ، حتـــي يصـــفو الجو للعوامل الحية والداعية للحياة . ولن تتأتي هذه التصفية إلا بفكر جديد ، يؤدي إلي نقل المجتمع من وضع التدهور إلي وضع النهضة) [1].

ويمكن – بناء علي هذه النصوص وأمثالها لدي مالك – أن نقسم حديثـــه عن النهضة إلي قسمين ، يمثلان منهجه ونظريته الشاملة للمســـألة والقســـم الأول منهما ذو طابع نقدي ، أما الثاني فهو الجانب الإيجابي .

أولا : الجانب النقدى :

وينقسم هذا الجانب – كذلك – إلي قسمين ، يهتم **أولهما** بموقفه من أهـــم حركات الإصلاح والتجديد التي ظهرت – قبله – فـــي العـــالم الإســـلامي . ويتجه **الثاني** إلي نقد الجوانب الفكرية والنفســـية والاجتماعيـــة والســـلوكية السائدة في المجتمع الإسلامي ، والتي تعد من معوقات النهضة ، بحيث يعـــد التخلص منها أو تصحيحها من العوامل الضرورية التي يلـــزم القيـــام بهـــا لتحقيق هذه النهضة المرجوة .

١ – حركات النهضة :

يقسم مالك هذه الحركات إلي تيارين :

أ – تيار الإصلاح الذي ارتبط بالضمير المسلم ، والمفـــاهيم الإســـلامية والتجربة التاريخية الإسلامية العريقة التي شهدها المجتمع الإســـلامي عـــدة قرون .

ب – تيار التجديد الذي يمثل مطامح وتوجهات طائفة اجتماعية جديـــدة تخرجت في المدرسة الغربية كما يقول.

وينتمي إلي التيار الأول عديد من المفكرين من أمثال الشيخ محمد بـــن عبد الوهاب وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال . وينتمي إلـــي

---

(١) شروط النهضة ١٢٠ ، ١٢١ ومشكلة الثقافة ٦٨ ، ووجهة العالم الإسلامى ٧٤ .

التيار الثاني دعاة التجديد علي الطريقة الغربية من أمثال السير أحمد خان في الهند، ومصطفي كمال أتاتورك في تركيا ، والشيخ علي عبد الـــرازق فـــي مصر[1].

ويربط مالك بين تيار الإصلاح وفكر ابن تيمية (٧٢٨هـ) الذي يصفه بأنه لم يكن مجرد عالم كسائر الشيوخ . ولا متصوفا كالغزالي (٥٠٥هـــ) (ولكنه كان مجاهداً يدعو إلي التجديد الروحـــي والاجتمـــاعي فـــي العـــالم الإسلامي) [2]. وقد وجـــدت أفكـــاره الفرصـــة للتطبيـــق عنـــدما اعتنقتهـــا الحركة الوهابية التي رفع لواءها الشيخ محمد بن عبـــد الوهـــاب ، والتـــي اكتسحها محمد علي بإيعاز من الدولة العثمانية ، وتأييد من الـــدول الغربيـــة ١٨٢٠م[3] .

ثم وجدت هذه الحركة الضميرَ الذي يعكسها في العالم الإســـلامي الحـــديث ، وتمثل ذلك في جمال الدين الأفغاني الذي كان رجلا ذا ثقافة فريدة ، اعتبرت فاتحة عهد رجل الثقافة والعلم في العالم الإسلامي الحديث .

وقد بذل الأفغاني جهده في جانبين :

---

(١) انظر : وجهة العالم الإسلامى ٤٢ – ٤٦ ، ٥٦ ، ٥٧ ومشكلة الأفكـــار ١٣٨ وقـــد أشرنا إلى هؤلاء على أنهم نماذج فقط ، وإلا فانه يشير إلى آخرين غيـــرهم ، ومـــن أهم من ترد الإشارة إليهم مـــن أعـــلام التيـــار الأول : الشـــيخ عبـــد الحميـــد بـــن باديس ، ومن أهم من ترد الإشارة إليهم من أعلام التيار الثانى وإن تكن إشاراته إليه موجزة: الدكتور طه حسين . انظر مـــثلا : وجهـــة العـــالم الإســـلامى ٤٥ ، ٧٩ ، ١٤٥ – ١٤٩ومواطن أخرى . وكلامه عن هؤلاء جميعا يطول ، وليس أمامنا مـــن سبيل إلا الإيجاز ، والاكتفاء بالإشارة إلى أهم مـــا تحـــدث بـــه عـــنهم : عرضـــا ونقدا .

(٢) وجهة العالم الإسلامى :٤٣.

(٣) السابق : الموضع نفسه ، وانظر لرأيه فى الحركة الوهابية واعتزازه بها : مـــذكرات شاهد للقرن ٣٠٦ ثم ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢ ومواطن أخرى .

- مقاومة نظم الحكم القائمة آنذاك ، كما يعيد بناء التنظيم السياسي في العالم الإسلامي علي أساس الأخوة الإسلامية ، التي تمزقت في صِفِّين ، وبددتها النظم الاستعمارية نهائياً .
- أن يكافح المذهب الطبيعي المادي الذي عززته نظرية التطور التي قال بها دارون ، والذي تسللت أفكاره إلي بعض دعاة التجديد في العالم الإسلامي كأحمد خان في الهند[1].

ويري مالك أن الأفغاني قد أحيا الضمير المسلم ، وفجر المأساة التي يعيشها المسلمون ، وأيقظ شعورهم بها ، ولقد كان رائدا من رواد الحركة الإصلاحية الحديثة بما حمل من قلق ،كان ينقله معه أينما حل ، وهو القلق الذي أخرج الحياة الإسلامية من الركود والسبات والسكون ، ودفعها للبحث عن طريق جديد . وقد كان – كذلك – رائدا فيما بذله من جهد لإعادة التنظيم السياسي للعالم الإسلامي ، ولعل مالكاً يشير هنا إلي دعوة الأفغاني إلي **الجامعة الإسلامية** التي يرجى من ورائها العمل علي توحيد العالم الإسلامي ، وتحرير أرضه من الاستعمار الغربي [2].

وعلي الرغم من هذا الدور الكبير الذى قام به الأفغانى في البحث والإحياء ، والدعوة إلي الوحدة الإسلامية ، والحرية السياسية ، والتخلص من براثن الاستعمار – يرى مالك أن دور الأفغاني لم يكن دور مفكر ، يتعمق المشكلات لينضج حلولها ؛ فإن مزاجه الحاد لم يكن ليسمح له بذلك ، ولكنه كان ثائراً مجاهدا يبذر بذور الثورة فى كل مكان حل به ، دون أن يضع خططا أو يؤصل منهجاً للتنفيذ والتغيير .

---

(١) انظر وجهة العالم الإسلامى ٤٤ .

(٢) السابق : ٤٥ .

ويمكن القول – هنا – بأن ذلك هو شأن المفكرين في العادة ، وهو القدر المستطاع بالنسبة لهم ، فحسبهم أن يوقظوا العقول ، ويثيروا الأفكار ، ويحددوا الوجهة ، ويرسموا معالم الطريق ، ثم يأتي غيرهم ممن تتاح لهم فرصة التطبيق والتنفيذ لينقلوا ذلك من الفكر إلي العمل ، ومن الحلم إلي الواقع ، وهذا هو الفرق ما بين المفكر الفيلسوف ، ورجل الدولة أو الثائر .

وهذا ما ينطبق علي مالك نفسه ، وعلي غيره من دعاة الإصلاح أو التجديد . ولو حاكمنا مالكا إلي هذا الوجه من أوجه النقد لانطبق عليه كما انطبق من قبل – في رأيه – علي الأفغاني .

ويضيف مالك – إلي ما سبق – أن جهود الأفغاني الرامية إلي إعادة تنظيم العالم الإسلامي قد اتجهت إلي تنظيم جموع الشعب وإصلاح القوانين ، ولكنه لم يقصد إصلاح الإنسان من أوجه الضعف التى توطنت نفسه وقيمه منذ عصر ما بعد الموحدين [١].

ولقائل أن يقول : إن إصلاح النظم والقوانين ذو تأثير فعال في إصلاح النفوس ، وتغيير منظومة القيم السائدة إلي ما هو أفضل ، ولعل انشغاله بالسياسة ، وتنقلاته الكثيرة في أرجاء العالم الإسلامي ، وعلاقاته المضطربة بالحكام في كثير من البلاد التي عاش فيها كان لها الأثر الأكبر في تحديد اهتماماته وأولوياته ، ولعله لو أتيح له قدر مناسب من الاستقرار والهدوء اللازم لإنضاج الأفكار ،وشمول الرؤية ، والبحث عن الوسائل الملائمة للتطبيق لجاءت أفكاره أكثر شمولا، ولكن ذلك كله لم يكن متاحاً له علي النحو الذي يريد .

---

(١) السابق ٤٤ ، ٤٥ .

وينتهي مالك إلي القول بأنه إذا كان جمـال الـدين (باعـث الحركـة الإصلاحية ، ورائدها ، ومازال بطلها الأسطورى في العصر الحديث ، فإنـه لم يكن في ذاته مصلحا بمعني الكلمة) [1].

ولعل هذا الحكم لا يخلو من قدر من التجنـي ، إذا روعيـت ظـروف الواقع الذى عاش فيه الأفغاني ، ووطأة القوى والعوامل المؤثرة فيه ، وهـي ظروف وقوى لا يكفي لزحزتها رجل واحد ، مهما كانت مواهبـه ، ولـذلك كان العالم الإسلامي بحاجة إلي جهود كثيرة متوالية يكمل بعضـها بعضـا ، حتي تتحقق له غاياته في الحرية والتقدم والنهضة .

وجاء الشيخ محمد عبده (١٩٠٥) ليتسلم الراية من شيخه الأفغـاني ، ويقول مالك إن الشيخ محمد عبده قد نظر ألي المأساة الإسلامية نظرة أخرى غير نظرة الأفغاني ، فقد نظر إليها بوصفها مشكلة **اجتماعية** ، علي حين أن أستاذه الأفغاني نظر إليها بوصفها مشكلة **سياسية** . وقد رأى أن يبدأ خطواته الأولي في الإصلاح الاجتماعي بإصلاح الفرد . ووجد أساس هذه الفكرة في كتاب الله ، حيث قال : إن الله لا يغير ما بقوم حتـى يغيـروا مـا بأنفسـهم (الرعد : ١١) ويدل ذلك علي أنه وضع يده علي البداية الصحيحة للإصلاح ولكن الشيخ ما لبث أن اتخذ لذلك وسيلة ستكون موضع مؤاخذة مالـك فـي تقويمه لهذه الجهود ، ذلك أن الشيخ محمد عبده جعل وسيلته إلـي إصـلاح الفرد أن يبدأ بإصلاح علم الكلام ، ليكون سبيلا إلي تغيير النفس .

وهنا يتوجه مالك بالنقد الأول الذي يذكر فيه أن المسلم لم يتخـل عـن عقيدته ، فلقد ظل مؤمنا متدينا (ولكن عقيدته تجردت من فاعليتهـا ، لأنهـا فقدت إشعاعها الاجتماعي .. وعليه ، فليست المشكلة أن نُعلّم المسلم عقيـدة يملكها ، وإنما المهم أن نرد إلي هذه العقيدة فاعليتهـا وقوتهـا الإيجابيـة ، وتأثيرها الاجتماعي . وفي كلمة واحدة ، إن مشكلتنا ليست فـي أن نبـرهن

---

(١) السابق ٤٦ .

للمسلم علي وجود الله ، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده ، ونملأ به نفسه ، باعتباره مصدرا للطاقة .. وليس هذا من شأن علم الكلام) [1]. وكـان ممـا أخذه علي علم الكلام أيضا أنه يمجد الجدال وتباين الآراء ، ثم هـو - فـي الوقت ذاته - يشوه المشكلة الإسلامية ويفسد طبيعتها ، حين يفصل ما بـين المسلم والنموذج الأول الذي عاشه المسلمون الأوائـل ، وإذن فهـو يفصـل ما بينه وبين السلف الأولين ، ولهذا (لا يواجه مشكلة الوظيفـة الاجتماعيـة للدين ؛ لأن المؤمن لا يفيد شيئا من مدرسة تعلمه وجوده الله فحسـب ، دون أن تلقنه مبادئ الرجوع للسلف) [2].

ولسنا في مقام تقويم هذه الانتقادات الموجهة إلي علم الكـلام ، ولكننـا نشير إلي ما يلي :

✦ إن جهود الشيخ محمد عبده لم تقتصر علـي تجديـد علـم الكـلام أو إصلاحه، بل إن جهوده كانت شاملة ، فقـد دعـا إلـي إصـلاح اللغـة العربية ، كما دعا إلى إصلاح الأزهر والإفتاء ، وتجديد الحيـاة الإسـلامية بصفة عامة ، كما كانت له جهوده فى مناقشة بعض المستشرقين وغيرهم من المفكرين كفرح أنطون وغيره ، وقد كتب الكتب والرسائل فى بيان فضـائل الإسلام بوصفه دين العلم والمدنية . ولم تكن جهود الشيخ مقصـورة علـى تأليف رسالة التوحيد ، كما يفهم من كلام مالك ، بل كانت جهـوده شـاملة ، كما تدل عليها كتاباته النظرية ، ومواقفه العملية[3].

---

(١) السابق ٤٨ . وهو يشير - كذلك - إلى أن التصوف لا يصلح لذلك أيضا . الموضع نفسه .

(٢) السابق ٤٩ .

(٣) راجع هنا : الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ، جمع وتقـديم وتحقيـق د / محمـد عمارة فى خمسة مجلدات ، طبع دار الشروق ، ط١ /١٩٩٣ .

ولعل مالكا – بسبب ظروف وجوده فى الجزائر وفرنسا – لم تتح له فرصة الاتصال بهذا التراث كله ، ولعل معرفته بفكر الشيخ محمد عبده قد اعتمدت – فى المقام الأول – على كتاب رسالة التوحيد ، وهذا ما يفسر تصويره لجهود الشيخ وحصرها بتجديد علم الكلام . ولكن الدارية الكاملة بما قدمه الشيخ توضح أن الدائرة كانت أوسع بكثير ما ذكره مالك عنه .

ثم يمكن الإشارة إلى أن جهود الشيخ محمد عبده فى مجال تجديد علم الكلام قد اتجهت – فى بعض جوانبها – إلى مسائل ذات صلة وثيقة بالإصلاح والنهضة بالمفهوم الصحيح لها .

ويكفى أن نستحضر هنا – على سبيل المثال فقط – ما قام به الشيخ محمد عبده من بيان للفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر التى فهمها بعض الناس خطأ على أنها عقيدة فى الجبر ، وإلغاء الإرادة الإنسانية ، ومن شأن هذا الفهم الخاطىء أن يقعد الناس عن السعى والكدح والبناء والتغيير ، وأن يجعلهم أسرى لمفاهيم مغلوطة من الاستسلام والرضا ، وقد كان الشيخ محمد عبده حريصا على بيان الفهم الصحيح لهذه العقيدة ، وما يترتب عليها من حركة ونشاط وتعمير(١)وينطبق ذلك على حديثه عن التوكل والخلط بينه وبين التواكل (٢)، وعلى حديثه عن تحرير الفهم من التقليد ، وإعادة الاعتبار إلى العقل ، والإفادة مما أودعه الله فيه من القوى وبيان جناية الجمود على المسلمين (٣).

على أن هذه الملاحظات النقدية التى وجهها مالك بن بنى إلى ما قدمه الشيخ محمد عبده لم تمنعه من الإشادة به والثناء عليه . وكان مما قاله – فى

---

(١) انظر : الأعمال الكاملة فى مواطن عديدة منها مجلد ٣ / ٢٢٥ – ٢٢٩ ، ٤٠٢ – ٤٠٦ ، ٤٩٥ – ٥٠٠.

(٢) السابق ٣ / ١٦٣ –١٦٥ .

(٣) السابق ٣ /٢٩٦ وما بعدها ، ٣٣٩ وما بعدها ، ٣٥٨ وما بعدها .

هذا الصدد – أن جزءا كبيرا مما حققه العالم الإسلامي ، راجع إلى مجهود الشيخ ومدرسته ، وأنه أحدث حركة فكرية لم يقع مثلها منذ عهد ابن خلدون ، وأن عمله فى الأزهر قد مزق الصمت الذى خيم على الجامعات الإسلامية القديمة ، يضاف إلى ذلك أن توجهه الأصلاحى قد أدى إلى أن يظهر فى الثقافة الإسلامية التقليدية اتجاه إلى مقاومة ضغوط الأفكار الغربية[1].

✦ أما تيار التجديد فقد حظى ببعض الإشارات فى كلام مالك بن نبى . وحديثه عنها يتسم بالإيجاز الذى لا يتكافأ مع تأثيره فى العالم الإسلامى ، من الناحية السياسية والثقافية ، ولعل ذلك يرجع إلى موقفه المبدئى ، واختياره الأساسى للإسلام بوصفه الطريق الأمثل للنهضة ، وأن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها[2]وأن العالم الإسلامى لا يستطيع فى غمرة الفوضى التى تحيط بالعالم كله أن يجد هداه خارج حدوده [3] .

ولا يخلو كلامه – على كل حال – من بعض الانتقادات التى يوجهها إلى هذا التيار ، وليس هذا بمستغرب ، إذا ما تذكرنا انتقاداته التى وجهها إلى أفكار الأفغانى ومحمد عبده . وهو يصفه بأنه " أقل عمقا وأكثر سطحية "[4] وهو يأخذ على بعض اتجاهاته اللجوء إلى العنف ، وكان يشير

---

(١)انظر : وجهة العالم الإسلامي ٤٩ ، ٥٠ وانظر :مشكلة الأفكار ١٣٨ وهو يقول عن كتاب رسالة التوحيد إنه أحد كتابين أثَّرا فى تكوينه وتحوله الفكرى . انظر : مذكرات شاهد للقرن ص٦٦ .

(٢) انظر ميلاد مجتمع ١ / ٤.

(٣) انظر : وجهة العالم الإسلامي ١٢ .

(٤) السابق : ٤٢.

بذلك إلى الحركة الكمالية فى تركيا[1] كما يأخذ على بعض الاتجاهات الأخرى أنها بالغت فى نزعتها التحررية حتى وصلت إلى حد التناقض مع الأسس والقيم الإسلامية الثابتة. وينطبق ذلك على الشيخ على عبد الرازق صاحب كتاب : الإسلام وأصول الحكم . وهو الأزهري القديم ، الذى أصبح تلميذ أكسفورد ، الذى " لا يصل إلى حد التحرر من الكلاسيكية المزيفة لما بعد الموحدين فحسب ، بل إن تحرره تجاوز ذلك إلى التخلص من منهج الأصل الإسلامى ، حين يجعل موضع التساؤل قيمه وأفكاره الأساسية ، وذلك عندما ناقش مثلا فكرة الخلافة "[2] .

وقد كان مما أخذه على هذا التيار – بصفة عامة – أن أصحابه لم يتصلوا بأصول الفكر الغربى ، ولم يعرفوا الحياة – لدى الغربيين – على حقيقتها ، ولم يهتموا بواقعها ، ولم يدرسوا جذورها ومراحل تطورها ، أى أنهم اهتموا بالشكل دون المضمون . ثم إنهم قد انعدمت لديهم فكرة النهضة ذاتها ، لأنهم لم يخالطوا حياة بلادهم إلا فى الميدان السياسى ، ولم يروا مشكلة الفرد المسلم ، بل رأوا مشكلة النظم السياسية على النمط الأوروبى " والأمر– بعد هذا – لا يعدو أن يكون غراما بالمستحدثات . فسبيلها الوحيد هو أن تجعل من المسلم زبونا مقلدا ، دون أصالة ، لحضارة غربية ، تفتح أبواب متاجرها ، أكثر من أن تفتح أبواب مدارسها[3] .

ومع هذا النقد الحاسم لأفكار هذا التيار – يذكر مالك أن هذا الاتجاه لا يخلو من جوانب ايجابية ، لعل من أبرزها ما أصابه أصحابه من نجاح فى بلورة الوعى الجماعى للجماهير المسلمة ، وأنهم قد دَلّوا الناس على أهداف عملية صالحة لا تنزاع هذه الجماهير من نزعات الاستهتار والركود " أما فى

---

(١) السابق : ٥٦.

(٢) مشكلة الأفكار ١٣٨.

(٣) وجهة العالم الإسلامي ٦٤ ، ٦٥.

المجال الفكرى : فإذا كانت الحركة الحديثة لم تأت بعناصر ثقافية جديدة لعدم اتصالها الواقعى بالحضارة الحديثة ، ولانفصالها الفعلى عن ماضى ما بعد الموحدين ، فإنها قد خلقت – بما جلبت من الغرب – تيارا من الأفكار ، صالحا للمناقشة . واليه يرجع الفضل فى أنه وضع على بساط البحث جميع المقاييس التقليدية » [1].

✦ ويتوجه مالك بن نبى بعدد من الانتقادات التى يشترك فيها دعاة الاصلاح والتجديد معا . ومن هذه الانتقادات ما يلى :

أ – عدم تشخيص غاية النهضة بصورة واضحة .

ب – عدم تشخيص المشكلات الاجتماعية تشخيصا صحيحا .

ج – عدم تحديد الوسائل تحديدا يناسب الغاية المنشودة والإمكانات.

ويتحدث عن العنصر الأول من هذه العناصر فيقول : " وإن نظرة واحدة إلى نهضتنا البعيدة ، حينما نهضنا على صوت زعمائنا الأقدمين كجمال الدين ومحمد عبده والشيخ رشيد رضا ، حينما سمعنا هذه الأصوات الجليلة ، وأيقظتنا من سباتنا ، أين توجهنا ؟ اننا توجهنا بالطبع إلى طريق الحضارة ، ولكنا بكل أسف ، من غير أن نحدد الهدف ، ونوضح معالم الطريق » [2] وينطبق ذلك على الحركة الحديثة التى لم يكن لها فى الواقع نظرية محددة ، لا فى الأهداف ولا فى الوسائل [3] ويدلل مالك على صحة هذا النقد بالمقارنة بين الاتجاه إلى النهضة فى العالم الإسلامى ، وبين التجربة اليابانية التى كان المجتمع فيها أشبه بخلية نحل ، تعمل فيها كل نحلة لمصلحة عامة فى إطار فكرة عامة ، لكن العرب لم يكونوا كذلك. وقد

---

(١) السابق ٦٦.

(٢) مالك بن نبى : تأملات ، إصدار ندوة مالك بن نبى ، دار الفكر ١٩٧٩ص ١٨٦ .
وانظر مواطن أخرى للنقد فى : وجهة العالم الإسلامي ٥٥ ، ٦٣ –٦٦ ، ٧٥ ، ٧٦.

(٣) تأملات ١٦٢ .

اختلف -- كذلك -- موقف الحضارتين من الحضارة الغربية التي تمسك بمفاتيح القوة والتقدم المادى فى العصر الحديث ، وهو يلخص ذلك فى عبارة حاسمة بقوله : ان اليابان وقفت من الحضارة الغربية موقف التلميذ ، ووقفنا منها موقف الزبون ، وأنهم استوردوا من أوربا أفكارا ، بينما استوردنا منها الأشياء ، بل استوردنا الرذائل فى كثير من الأحيان ، قبل أن نأخذ منها بعض الأشياء الطيبة[1]وكان على الجميع أن ينتبهوا إلى أن حاجتنا لم تكن هى أن نجمع العناصر من هنا وهناك ، لكى نؤلف منها تلفيقا ، بل كان علينا أن نوجد – بواسطة منهج يقوم على التحليل – العناصر الأساسية التى تسهم فى خلق تركيب حضارى[2] .

٢ – نقده للجوانب الفكرية والاجتماعية :-

جاء نقد مالك لهذه الجوانب شاملا لكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والفردية ، وقد كان حريصا على تتبعها تتبعا يكاد يصل إلى حد الاستقصاء ، وكانت ملاحظته لهذه الجوانب ثمرة لاحتكاكه المباشر بالظواهر الاجتماعية أحيانا ، كما كانت وليدة لتأمله العميق فى محنة العالم الإسلامى أحيانا أخرى ، وكان إدراكه للقصور فى بعض الجوانب أثرا من آثار المقارنة بين حياة المسلمين : أفراداً وجماعات ونظما ، وحياة شعوب وأمم أخرى فى اليابان والهند ، وفى الحضارة الأوربية على وجه الخصوص .

ولن يتأتى لنا – هنا ، بسبب ضيق المقام – أن نستقصى كل ملاحظاته وانتقاداته ، ولكننا سنشير إلى بعض ما هو مهم منها :

---

(١) وجهة العالم الإسلامي ٦٥.

(٢) تأملات ١٦٢ – ١٦٤ ، ١٨٥ ، وانظر كذلك : القضايا الكبرى ، مالك بن نبى ، دار الفكر سوريا ، دار الفكر المعاصر ، لبنان ط ٢٠٠٠ ٥٢ – ٥٤ .

وكان من أهم ما لاحظه من تلك الأمراض والسلبيات التى تنخر فى بنية المجتمع الإسلامى : انطفاء جذوة العقيدة المحركة ، وتحولها إلى طقوس وتقاليد جوفاء ، خالية من الحياة والتأثير . وأدى ذلك إلى توقف العالم الإسلامي عن تلك الحركة التى أثمرتها الدفعة القرآنية ، وأدت إلى نشوء الحضارة الإسلامية فى الماضى ، وهو يشبه هذا التوقف بتوقف المحرك عندما يستنفد آخر قطرة من الوقود " وما كان لأى معوض زمنى (أى دنيوى غير دينى) أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية ، ألا وهو الإيمان . ولذا لم تستطيع النهضة الحديثة أن تمنح العالم الإسلامي حركة ، لم يعد هو فى ذاته يملك مصدرها "(١) .

ثم يأتى خمود الفكر وانطفاء جذوته ليمثل مرضا آخر ، يصيب المجتمع الإسلامي بالعجز ويفقده الحيوية ، والقدرة على مواجهة المشكلات . ويشير مالك هنا إلى تخلف الاجتهاد ، الذى كان هو الوجهة الأساسية للفكر الإسلامي فى عصره الذهبى (٢) .

ولكن التقليد حل محل هذا الاجتهاد ، وعجز الفكر عن ملاحقة الواقع ، وأصيبت العقول بالتوقف عن الإبداع ، وشاعت فى أفق المجتمع أفكار ميتة ، يُعَدُّ استمرارها من عوائق التطور والتجديد والنهضة ؛ لأن " تصفية الأفكار الميتة ، وتنقية الأفكار المميتة يعتبران الأساس الأول لأية نهضة حقة "(٣) .

✦ ثم وقعت القطيعة والانفصال بين الفكر والعمل ، اللذين يلزم أن يكون بينهما رباط منطقى ، وتلازم عضوى . فالفكر يقود العمل ويوجهه ،

---

(١) وجهة العالم الإسلامي ٨٨ ، ٨٩.

(٢) مالك بن بنى : فكرة الإفريقية الأسيوية فى ضوء مؤتمر باندونج ط٢ ، دار الفكر ، بيروت ١٩٧١ ص ٢٣٤.

(٣) وجهة العالم الإسلامي ٧٨.

والعمل يحقق الفكر ، وينميه ويصوبه ، ويؤدى هذا التكامل إلى إثراء الفكـر والحياة الاجتماعية ، لكن الأفكار تحولت – فى حياة المسلمين – إلى كـلام ، ليس له تأثير فى الواقع " وإذا انعدمت العلاقة بين الكلام والعمل أصبح الكلام هذرا "[1] وأصبحنا بين خطرين " فإما فكرة لا تحقق ، وإما عمل لا يتصـل بجهد فكرى "[2] ويحدث ذلك على مستوى الحيـاة الاجتماعيـة ، والحيـاة الفردية على حد سواء[3]ولذلك يمكن القول بأن المجتمع الإسلامي لـم يعـد يعيش طبقا لمبادئ الإسلامي " بل الأصح أن يقال : انه يتكلم تبعـا لمبـادئ القرآن ، لعدم وجود المنطق العملى فى سلوكه "[4] .

وفى ظل هذا الفصل بين الفكر والعمل يسـود الجـدل . ومـن الآثـار الخطيرة للجدل أن المتجادلين لم يكونوا يبحثون عن حقائق يمكـن اختبارهـا والتأكد منها بل إنهم كانوا يبحثون عن براهين ، ولم يكـن المجـادل معنيـا بالاستماع لمحدثه ، بل إنه كان يغرقه فى طوفان من الكلام . ويشير مالـك إلى خطورة الجدل وآثاره على المجتمع فيقول " والجدل من أضـر الأمـور على كيان الأمة ، إذ هـو يقـوم – فـى عمومـه – علـى هيـام أحمـق بالكلمات " [5]ومما يزيد من خطر هذا الداء أن الغرام بالكلمات أعظم خطـرا من الغرام بالمعدن أو الرخام أو الحجر ، وهو يؤدى إلى أن يفقـد الإنسـان حاسة تقدير الأمور على وجهها الصحيح ، وهو أمر لازم لكل جهد إيجـابى

---

(١) السابق : ٧٢.

(٢) السابق ٦٣.

(٣) السابق ٧٥.

(٤) السابق ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .

(٥) شروط النهضة ١٤٦ ، ١٤٧ ومشكلة الثقافة ٨٤.

من أجل البناء " [1]ويشير مالك إلى أن المثل الأعلى قد ظل متمثلا فى أن يصبح الإنسان بحر علم ، يزدرد العلم ، دون أن يكون له دور اجتماعى . ويذكر مالك مثالا لا يخلو من الأسى فيقول " وأى درس فى التفسير يتيح لنا ملاحظة تفاهة ثقافتنا الراهنة التى استعبدتها الألفاظ ، فلم تعد تعبر عن اهتمام بالعمل ، بل عن مجرد الشهوة إلى الكلام " [2] .

وصحب ذلك ارتباط الفكر بالماضى ، وعدم ارتباطه بالحاضر والمستقبل ، وبذلك فقد الفكر ريادته ، وعجز عن الاستشراف المستقبل ، والتنبؤ به ، وعنى بالترديد ، بدلا من التجديد [3] .

✦ ولم يقتصر الأمر على هذه الآفات الجسيمة ، التى تتصل بالعقيدة والفكر وما يترتب عليه من عمل ، بل إنه امتد إلى نطاق الحياة الاجتماعية ، التى سادها التفكك ، وتقطعت فيها الأواصر ، وافتقدت الترابط ، الذى هو سمة من سمات المجتمعات الحية الناهضة . ويرى مالك أن علاج هذه الأدواء الاجتماعية لا يتحقق بمجرد الدعوة إلى الأخوة ، بل إنه يحتاج إلى ما هو أكثر قوة وتأثيرا ، إن هذه المجتمعات تحتاج إلى المؤاخاة يقول ".وما كان لثورة إسلامية أن تكون ذات أثر خلاق إلا إذا قامت على أساس المؤاخاة بين المسلمين ، لاعلى أساس الأخوة الإسلامية . وفرق ما بين المؤاخاة وبين الأخوة ، فإن الأولى تقوم على فعل ديناميكى ، بينما الثانية عنوان على معنى مجرد أو شعور تحجر فى نطاق الأدبيات " ويكشف مالك عن المصدر الذى

---

(١) وجهة العالم الإسلامي ٥٢ . ويضرب مثالا للغرام بالكلام الذى ليس له دلالة واقعية بالألقاب الفخمة التى تتقدم أسماء بعض ذوى المناصب العليا فى المجتمعات الإسلامية.

(٢) السابق نفسه .

(٣) السابق : ٥٣.

استقى منه فكرته هذه عندما يقول " والمؤاخاة الفعلية هى الأساس الذى قام عليه المجتمع الإسلامى ، مجتمع المهاجرين والأنصار» [١] .

✦ ويوجه مالك النظر إلى غلبة المواريث المتخلفة المنحدرة إلى الحياة الاجتماعية عبر القرون ، وهى مواريث كانت ثمرة لجو شاع فيه الإفلاس الخلقى والاجتماعى والفلسفى والسياسى ، وما يزال لهذه المواريث وجود وحضور فى الحياة المعاصرة ، وهى أساس لكثير من النقائص التى مازالت الشعوب الإسلامية تعانى منها [٢].

وقد ضرب نماذج لهذه العيوب الفتاكة ، فذكر منها : التفكير الذرى الجزئى الذى يفتقد إلى الرؤية الكلية ، والجهل ، والفقر ، وهو يذكر أن لدينا كثيرا من المتعلمين والمثقفين ، ولكنهم لا يفعلون شياء للقضاء على أمية الآخرين ، كما يفعل آخرون ممن ينتسبون إلى مجتمعات أخرى غير إسلامية ، أما الفقر فإنه ليس بالضخامة التى قد يتصورها بعض الناس ، بل إنه يصف الفقر فى بعض البلاد الإسلامية بأنه أسطورة . لكن الأغنياء الذين ليسوا قلة لا يهتمون برعاية اليتامى ، ولا برعاية عمل ذى فائدة عامة ، ثم إن إنفاقهم يخضع لألوان من السرف والبذخ ، وتضييع الأموال فيما لا يفيد ، ويظهر ذلك فى المناسبات الاجتماعية كالأعياد والمواسم والزواج والمآتم ونحوها [٣].

ويعترف مالك بان الاستعمار من أشد ما تعرض له المجتمع الإسلامى ، وهو ماحق للبلاد المستعَمرة ، ومستنزف لثرواتها ، وموجه لثقافتها ، وموقع لها فى التبعية ، وهو يتعامل معها بالاستبداد والهيمنة ، وهو لا يستولى

---

(١) السابق : ٥٤.

(٢) السابق :٤٦

(٣) السابق : ٣٢ وما بعدها.

على الأرض والثروة فحسب ، ولكنه يحاول الاستيلاء على النفس أيضا. [1] .

لكن هناك ما هو أخطر من الاستعمار ، إنه **القابلية للاستعمار** ، بحسب التعبير الذى استخدمه مالك بن نبى ، وهو تعبير كان أثيرا لديه ، وكثيراما ردده فى كتبه[2] وهو يقصد به أن يفرق بين الاستعمار الظاهر الذى تقوم فيه دولة أجنبية باحتلال دولة أخرى ، وبين التقبل النفسى لآثار هذا الاستعمار ، والرضا به ، والتبعية له ، وتقليده والخضوع له ، وتحويل الحياة فى هذا المجتمع – حتى بعد جلاء الاستعمار عن أرضه – إلى صورة من حياة المستعمر وثقافته ، ومعنى ذلك أن يمتد تأثيره ويستمر ، كما لو ظل الاستعمار على حاله ، وهذه هى القابلية للاستعمار ، وهى المسئولة عن كل الآثار المترتبة على الاستعمار نفسه ، ولابد من التخلص منها أولا لكى يمكن التخلص من آثار الاستعمار ، فالاستعمار نفسه لا يؤثر ، ولا يستطيع التأثير إذا لم تساعده القابلية للاستعمار " وبعبارة أخرى :

فالاستعمار وحده لا يستطيع شيئا "[3] وإذا كانت بعض البلاد الإسلامية – فى عصر مالك – قد تحررت من الاستعمار فإن عليها أن تمحو آثاره النفسية والاجتماعية حتى تكتمل حريتها ، وتتضح هويتها ، وتنجح فى تحديد طريقها بما يتلاءم مع ثقافتها . وقيمها الحضارية .

---

(١) السابق ٨٠ – ٨٢.

(٢) مالك بن نبى : فى مهب المعركة : إرهاصات الثورة ، إصدار ندوة مالك بن نبى ، دار الفكر سوريا ١٩٨١ ص ١٧ وما بعدها إلى ص ٤٧ ، ووجهة العالم الإسلامي ٩٩ وما بعدها ، ١٢٥ ، ١٢٦.

(٣) انظر مثلا : شروط النهضة ٢٢٠ ، ٢٢٩ وما بعدها ، فى مهب المعركة ٢١ ، ٣٧ ، بين الرشاد والتيه ، دار الفكر ١٩٨٦ ص ٣٥ ، ١٧٤ ، وجهة العالم الإسلامي ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٤٣ الخ.

وهكذا يتعقب مالك بن نبى هذه العيوب والأمراض النفسية والاجتماعية ، الداخلية منها والخارجية ، ويضع يده على مواطن الداء ؛ لأن ذلك من المقدمات الضرورية اللازمة للشفاء .

وفى ذلك يقول " وطالما ظل مجتمعنا عاجزا عن تصفية هذه الوارثة السلبية التى أسقطته منذ ستة قرون ، ومادام متقاعسا عن تجديد كيان الإنسان طبقا للتعاليم الإسلامية ، ومناهج العلم الحديثة – فإن سعيه إلى توازن جديد لحياته ، وتركيب جديد لتاريخه سيكون باطلا عديم الجدوى " (١) .

ثانياً : الجانب البنائى :

لم يكن النقد للعوامل السلبية مقصودا لذاته عند مالك بن نبى ، وإنما كان مقدمه ضرورية للبناء السليم الذى ينبغى أن تقوم عليه الحضارة .

وقد ذهب مالك إلى أن من الممكن أن تعرف الحضارة بأنها " جملة العوامل المعنوية والمادية التى تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره " (٢) ويلاحظ أن الحضارة تأتى – هنا – بمفهوم شامل للعناصر المعنوية والمادية، ثم تأتى العوامل المعنوية سابقة على المادية ، تأكيدا على قيمتها وأهميتها ، وتأثيرها فى العوامل المادية ، ويرتبط هذا بأهمية الدين والأخلاق لبناء الحضارة ، كما سيتضح هذا بعد قليل. ويلاحظ – كذلك – ان مالكا يعرف الحضارة فى حالة حركة وتطور ، وهذا هو الوضع الأمثل للحضارة ، التى تفقد فعاليتها وهويتها فى حالة الركود أو السكون .

ويشير التعريف إلى أن الحضارة ذات صبغة اجتماعية، لأن الفرد لا يصنع حضارة ، لأنه " اذا ركن إلى قدرته وحدها ، وإرادته وحدها فإن

---

(١) بين الرشاد والتيه ١٧٤ ، وانظر وجهة العالم الإسلامي ٨٧ ، ٩٨.

(٢) وجهة العالم الإسلامى ٣٢.

هذا الفرد المنعزل والمنقطع عن كل اتصال بجماعته يصبح مجرد قشة ضعيفة " والفرد – إذن – يحق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه .. وإنما تنبعان من المجتمع الذى هو جزء منه [1] .

والعلاقة وثيقة بين الحضارة والثقافة ، إذ " أن أى تفكير فى مشكلة الحضارة هو فى جوهره تفكير فى مشكلة الثقافة ، وبذلك تكون الحضارة فى جوهرها عبارة عن مجموع من القيم الثقافية المحقَّقَة "[2] .

والثقافة – عنده – هى المحيط الذى يحيط بالإنسان ، وهى الإطار الذى يغذى جنين الحضارة فى أحشائه ، وهى الوسط والذى تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر ، وفيه تتشكل جميع خصائصه ، وفيها تكون العادات المتجانسة ، والعبقريات المتقاربة ، والتقاليد المتكاملة ، والأذواق المتناسبة " وبعبارة جامعة هى كل ما يعطى الحضارة سِمَتَها الخاصة " [3] .

وللحضارة عناصر ومكونات ، كما أن للنهضة الحضارية شروطا ومقتضيات ، وقد أطال مالك الحديث عن ذلك ، وسنشير إلى شيء من ذلك فيما يأتى .

١ – عناصر بناء الحضارة :

تتكون الحضارة – عند مالك – من ثلاثة عناصر أساسية ، هى الإنسان ، والتراب والوقت ، وقد تحدث عن هذه العناصر فى مؤلفاته

---

(١) مشكلة الأفكار ٤٢.

(٢) السابق ٤٢ ويبدو فى هذا التعريف والتحديد تقليل من قوى الفرد وإمكاناته الذاتية ، التى تتحول فى بعض الأحيان إلى قوة موجهة للمجتمع كله ، وربما كان المقصود الإشارة إلى أن الفرد – وحده – لا يصنع حضارة . وهذا معنى صحيح ، ولكن التعبير عنه جاء على هذا النحو من المبالغة

(٣) مشكلة الثقافة : ٩٨.

الأولى ، مثل شروط النهضة ، وظل حريصا عليها ، فيما ظهر بعد ذلك من مؤلفات ، حتى إنه ليقول فى واحد من مؤلفاته الأخيرة " ولو سمح لى أن ألخص وجهة نظر عبرت عنها منذ ربع قرن لقلت : انه ليس من الضرورى (ولا من الممكن) أن يكون لمجتمع فقير ، المليارات من الذهب كى ينهض ، وإنما ينهض بالرصيد الذى لا يستطيع الدهر أن ينقص من قيمته شيئا ، الرصيد الذى وضعته العناية الإلهية بين يديه : الإنسان والتراب والوقت "(١) .

أ – وليست هذه العناصر أو الأضلاع الثلاثة على درجة واحدة من الأهمية ، بل إن الإنسان هو أهم هذه العناصر والأضلاع ، لأن الإنسان هو صانع التاريخ والحضارة، وهو بانى المجتمعات ومقيم العمران ، ولا يتحقق ذلك له إلا إذا استثمر طاقاته ومواهبه وأحسن توجيهها. فإذا فعل ذلك فإنه يغير وجه التاريخ ، أما إذا أصابه الخمول والخمود ، وتحول من كائن اجتماعى ناهض إلى إنسان خام فانه لا يحرك ساكنا ، ومن ثم يعجز عن تحريك التاريخ وبناء الحضارة (٢) .

---

(١)السابق ٧٣ ، ٧٤ وشروط النهضة ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، والخلاف فى تعريف كل من الثقافة والحضارة ، وتحديد العلاقة بينهما خلاف مشهور ، حيث تساق التعريفات بالعشرات ، وقد يُنظر إلى الحضارة على أنها الكل الجامع الذى تمثل الثقافة الجزء المعنوى منه ، وقد يكون الأمر بالعكس ، وقد يستخدم المصطلحان على سبيل الترادف ، وربما تخصصت الحضارة فى الجانب المادى والعمرانى ، واختصت الثقافة بالجانب المعنوى من النشاط الإنسانى . وانظر على سبيل التذكرة : الحضارة للدكتور حسين مؤنس ، عالم المعرفة ، الكويت ط٢ / ١٩٩٨ ونظرية الثقافة ، تأليف مجموعة من الكتاب ، ترجمة د/ على الصاوى ، عالم المعرفة ، الكويت ، ط/ ١٩٩٧ ومقدمته بقلم أ.د / الفاروق زكى يونس

(٢) بين الرشاد والتيه : ص٦٠ وانظر شروط النهضة ٦٤ ، ٦٥ ، ١١٤ ، ١٢٣ ، تأملات ١٦٨ – ١٧٠ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، القضايا الكبرى ٥٤ – ٥٧.

والإنسان – كذلك – هو مبدع الأفكار وحاملها ، وللأفكار قيمة عظمى في بناء الحضارات ، ولذلك لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من أشياء ، بل بمقدار ما فيه من أفكار . ولقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة تمحو منه عالم الأشياء محوا كاملا أو تفقده ميزة السيطرة عليه ، بعضاً من الوقت " فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على عالم الأفكار كان الخراب ماحقا . أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره فإنه يكون قد أنقذ كل شيء إذ أنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء " [١] .

والإنسان هو الذي يعطي العنصرين الآخرين قيمتهما ، فهو الذي يعمل على الإسراع بعامل الزمن ، وهو الذي يتفاعل مع العناصر المادية التي يتضمنها عنصر التراب ، ثم هو – قبل ذلك وبعده – الذي يحمل ويتلقى الشرارة الروحية التي لابد منها لحركة الحضارة .ويجب – إذن – بذل كل الجهود ليقوم الإنسان بدوره المنوط به . وتقوم التربية بدور مهم في تحقيق هذه المهمة الكبرى ، وذلك بإعداد هذا الإنسان وتزويده بعناصر أربعة هي:–

- عنصر الأخلاق لتكوين الصلات الاجتماعية .
- عنصر الجمال لتكوين الذوق العام .
- منطق عملي لتحديد أشكال النشاط العام .
- الفن التطبيقي ، الموائم لكل نوع من أنواع المجتمع ، أو الصناعة حسب تعبير ابن خلدون [٢] .

---

(١) تأملات ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤، وانظر : ميلاد مجتمع ١ / ٣٤.

(٢) ميلاد مجتمع ١ /٤٢ وهو يشير هنا إلى تجربة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية التي هزمت فيها ألمانيا هزيمة ساحقة في الحرب ، لكنها سرعان ما أعادت بناء كل شيء ، بفضل رصيدها من الأفكار.

ويقول مالك ، فيما يشبه الصرخة " إن حاجتنا الأولى هى الإنسان الجديد ، الإنسان المتحضر ، الإنسان الذى يعود إلى التاريخ[١].

وعلى الرغم من هذه الأهمية التى يتبوأها الإنسان فى بناء الحضارة وتغيير الواقع ، ودفع المجتمعات فى طريق النهضة والتطور ، يذكر مالك أن الإنسان ليس هو العنصر الوحيد المؤثر ، . " فقد يحدث – فى بعض الظروف التاريخية – أن يفقد مجتمع ما ، شخصيته ، ويمحى من التاريخ ، ومع ذلك فان عدد أفراده قد لا يتغير فى هذه الحالة ... وإنما أصبح الأفراد مجرد أنقاض لمجتمع بائد" [٢].

ب – ويمثل " التراب " [٣]العنصر الثانى من عناصر بناء الحضارة ، ويقصد به المكان أو البيئة أو الوسط الذى تبدأ فيه الفكرة فعلها مستعينة بما يتضمنه المكان من إمكانات مادية وطبيعية ، تعين الفكرة على الحياة والنمو ، وهذا العنصر مهم ،لأن الحضارة لا تنشأ من فراغ ،ولا فى فراغ .

ولابد أن تكون البيئة التى تنشأ فيها الحضارة ملائمة لكى تحدث العناصر تأثيرها فيها. فالبيئة القاحلة أو دائمة الجفاف ليست بيئة مساعدة على وجود الحضارة ، لكن الإنسان قد يتغلب – مع تطور الحضارة – على هذه العنصر المعوق . أما اذا لم يتمكن الإنسان من التغلب على الظروف الطبيعية غير الملائمة فإنه يضطر إلى الهجرة إلى مكان آخر .وليست هذه الملاءمة محصورة فى العوامل الطبيعية ، بل إنها تمتد إلى الظروف الثقافية والاجتماعية أيضا ، ولذلك قد تضطر بعض الأفكار التى يحملها البشر إلى

---

(١) شروط النهضة : ١٣١ ، ١٣٢ هو يشرح هذه العناصر شرحا مُطوّلا يستمر حتى ص١٩٦.

(٢) تأملات ص ١٩٠ ، ١٩١.

(٣) ميلاد مجتمع ١ / ١١.

الهجرة إلى بيئة أخرى تتقبل الأفكار وتحملها. وقد حدث هـذا فـي بعـض الحضارات الكبرى [1].

ج – أما العنصر الثالث فهو الزمن . وهو الوعاء الذى يسـمح بغـرس الأفكار ونموها وتطورها ،وهو الذى يمكـن اختزالـه أو إطالتـه ، بتـأثير العنصر الأول المتمثل فى الإنسان ، على حسب مقدار الفاعليـة مـن جهـة أو التراخى من جهة أخرى .

والزمن هو رأسمال الإنسان والمجتمع ، وهو " نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل .. وهو يتدفق على السواء فـي أرض كـل شـعب ، ومجـال كـل فرد ، بفيض من الساعات اليومية التى لا تغيض ، ولكنه فى مجال ما يصير ثروة ، وفى مجال آخر يتحول عدما ، فهو يمرق خلال الحياة .. ولكنه نهـر صامت ، حتى إننا ننساه أحياناً ..." [2] .

ويشير مالك – بأسى شديد – إلى المحنة الشديدة التـي تتعلـق بـالزمن أو الوقت فى العالم الإسلامى ، فالوقت فيـه ينتهـي إلـى عـدم ، والنـاس لا يدركون قيمـة أجزائـه ، ولا يشـعرون باتصـاله الوثيـق بالتـاريخ ، ولا يلاحظون علاقته بالتأثير والإنتاج . وهو معني الحياة الحاضـرة الـذي ينقصنا (هذا المعني الذي لم نكسبه بعد : هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط ، في تكوين المعاني والأشياء . فالحياة والتاريخ الخاضـعان

---

(١) يفضل مالك استخدام هذا المصطلح بدلا من مصطلح مادة ، لكى يتحاشى اللبس الذى يمكن أن يجُرّ إليه استخدام مصطلح مادة ، لأنها تعنى فى بـاب الأخـلاق مفهومـا مقابلا لكلمة روح ، وتعنى فى باب العلوم التجريبية مقابلا لكلمة طاقـة ، وتسـتخدم فى الفلسفة مقابلا لمصطلح المثالية . انظر: شروط النهضة هامش ١ص ٦٤ ، ٦٥.

(٢) انظر : ميلاد مجتمع ٧٠ ، ٧١.

للتوقيت كان ومازال يفوتنا قطارهما . فنحن في حاجة ملحة إلي توقيت دقيق ، وخطوات واسعة لكي نعوض تأخيرنا) [1] .

٢ – أهمية العقيدة في بناء الحضارة : –

إذا كانت الحضارة لا تقوم إلا بالإنسان والتراب والوقت فإن الحضارة لا تبدأ عملها التاريخي ، إذا ظلت هذه العناصر منفصلة ، بعضها عن بعض ، ولا بد – إذن – من تجميع هذه العناصر وتركيبها. لكن ذلك لا يتم بصورة تلقائية ، وإلا لكان لزاما – كما يقول مالك – أن تنشئ كل جماعة من الجماعات البشرية حضارة (لكن هذا لم يحدث لأن هناك جماعات بشرية مازالت تعيش حتى الآن في حالة ما قبل الحضارة) [2].

ويختلف المؤرخون في تحديد هذا العامل المؤثر الذي يقوم بتركيب هذه العناصر ، فالمؤرخ البريطاني : توينبي يرى أن أهم العوامل في توالد الحضارة يتمثل فيما أسماه : نظرية التحدى والاستجابة ، فالتحدى يثير القوى الكامنة في المجتمع ، ويؤدى إلي تعظيم طاقتها وقدرتها علي المقاومة ، ويؤدى ذلك إلي التغلب علي الصعوبات والتحديات العارضة[3] .

---

(١) شروط النهضة ٢١١.

(٢) شروط النهضة ٢١٢ هو يقول إن ذلك يحدث فى العالم الإسلامي مع أن فلكيا عربيا مسلما هو أبو الحسن المراكشى يعتبر أول من أدرك صلة الزمن بنهضة العلم ، ويمكن أن نضيف إلى هذا أن ذلك يحدث- الآن أيضا – مع أن أحمد زويل هو الذى نجح فى اكتشاف أصغر جزء من أجزاء الزمن (حتى الآن) وهو الفيمتو ثانية.

(٣) شروط النهضة ٦٤.

لكن مالكا ينقد هذا الرأي [1] ويرتضي رأيا آخر لبعض فلاسفة الحضارة والتاريخ ممن يذهبون إلي أن الدين هو أكثر العوامل تأثيراً في بناء الحضارات[2]. وهو يدعم هذا الرأى بما يستخلصه من وقائع التاريخ التي تنتمي إلي حضارات متعددة .

ويرى مالك أن الدين في تركيبه لعناصر الحضارة أشبه بتوصيل أطراف الأسلاك الكهربية ، ويمكن تشبيهه – كذلك – بالعامل الوسيط في التفاعلات الكيميائية ، فالأكسجين والأيدروجين لا يكونان الماء تلقائيا ، بل إن ذلك التركيب يخضع لقانون معين يقتضي تدخل مُرَكّب ما ، بدونه لا تتم عملية تكون الماء . (وبالمثل ، لنا الحق في أن نقول : إن هناك ما يطلق عليه مُرَكّب الحضارة ، أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة ، بعضها ببعض) .

وهذا العامل هو الفكرة الدينية التي رافقت – دائما – تركيب الحضارة خلال التاريخ[3]ولذلك (ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها) [4].

---

(١) توينبى : مختصر دارسة التاريخ . ترجمة الأستاذ : محمد فؤاد شبل ، مراجعة الأستاذ محمد شفيق غربال . لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢ / ١٩٦٦ ، ١ /٢٣٣ ، انظر : مع أرنولد توينبى ، ترجمة محمد عبد الله الشفقى . طبع الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤ ص٣٢ ، ٣٣

(٢) انظر : القضايا الكبرى : ٥٨ ، ٥٩.

(٣) انظر شروط النهضة ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٩١ ، ميلاد مجتمع ١ / ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٧ ،والظاهرة القرآنية ، ترجمة د / عبد الصبور شاهين ، تقديم د / محمد عبد الله دراز ، والأستاذ محمود شاكر ، دار الفكر ١٩٨١ ص ٦٨

(٤) شروط النهضة : ٦٦.

وهو يقول في لهجة حاسمة ، مستندة إلي الاستقراء التـاريخي المسـتند إلي حضارات متعددة (فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صـورة وحي يهبط من السماء ... أو هي علي الأقل ، تقوم أسسها في توجيه النـاس نحو معبود غيبي بالمعني العام ، فكأنمـا قُـدِّرَ للإنسـان ألا تشـرق عليـه شـمس الحضـارة ، إلا حيـث يمتـد نظـره إلـي مـا وراء حياتـه الأرضية ...) [١]وينطبق ذلك علي الحضارة الغربية التي يبرز أثر الفكـرة المسيحية في تركيبها ، وعلي الحضارة البوذية التي يبرز الأثر الـديني فـي تركيبها[٢].

وينتهي مالك من هذه الدراسات التاريخية إلي القول بأن (قوة التركيـب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين ، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ . فجوهر الدين – حسب العبارة الشائعة – مؤثر صالح في كـل زمان ومكان) [٣].

ولايكتفى الدين بتركيب هذه العناصر الثلاثة ، بل إنه ينفخ فيها روح الحياة ، وينقلها من وضعها الفطرى البسيط إلى عناصر فعالة مثمرة ، أى أنه يمنحها قيمتها الاجتماعية ، وهذا " يجعل من **الإنسان** العضوى وحـدة اجتماعيـة ، ويجعل من **الوقت** – الذى ليس سوى مدة زمنية مقدرة بساعات تمر – وقتـا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل ، ومن **التراب** ، الذى يقـدم بصـورة فرديـة

---

(١) السابق : ٧٥ ، انظر ميلاد مجتمع ١ / ٦٦ ، ٦٧.

(٢) السابق : ٧٥ وانظر وجهة العالم الإسلامى ص٢٨.

(٣) شروط النهضة : ٨٧ وانظر مشكلة الثقافة ٨٧ وقد يقال : إن الحضارة الماركسـية الشيوعية لا يتضح فيها دور العامل الدينى ، لأنها تـرفض الـدين ، لكنـه يوجـه النظر إلى أنها تحولت عند أصحابها إلى عقيدة تماثـل فـى قوتهـا ودفعهـا عقائـد المؤمنين الأديان الكتابية. انظر : ٧٩ – ٨١ شروط النهضة وانظر : ميلاد مجتمع ١ / ٦٦.

مطلقة غذاء الإنسان ... مجالا مجهزا ، مكيفا تكييفا فنيا ، يسد حاجات الحياة الاجتماعية الكثيرة . فالدين إذاً ، هو مُرَكَّب القيم الاجتماعية "[1] .

ولا ينحصر الدين في كونه عقيدة كامنة في شعور الفرد ، بل إنه ذو أثر في سلوك الفرد والمجتمع ، وهو يؤدى إلي تماسُكِهِما ، وإقامة العلاقة بينهما علي أساس من التراحم والتضحية ، فالمجتمع لا يستطيع مجابهة أهوال الزمن إلا بجهد ، تدعمه عقيدة لا يعتريها الشك أبدا ، ثم (إن التعاون بين الدولة والفرد لا بُدَّ له ٠ من جذور في عقيدة تستطيع أن تجعل ثمن الجهد محتملا ، مهما كانت قيمته لدى صاحبه ، فيضحي هكذا بمصلحته ، وحتى بحياته في سبيل قضية مقدسة في نظره)[2].

ثم إن الدين يخلق نظاما اجتماعيا يستحيل فيه الفرد إلي أفراد كثيرين ، وكلما ضعفت العلاقة الدينية تناقص هذا العدد، والعكس صحيح ، وذلك بعض ما يدل عليه قوله صلي الله عليه وسلم : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وهذا هو الدرس الذي أراد القرآن أن يعلمه للنبي صلي الله عليه وسلم حين قال له : (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ...)[3] (الأنفال : ٦٣) وبتأثير المعني الديني في قلوب الأفراد تتجه الملايين من السواعد والعقول ، ويندفع المجتمع

---

(١) وجهة العالم الإسلامي : ٢٨.

(٢) بين الرشاد والتيه ٧٣ ، ٧٤.

(٣) انظر : ميلاد مجتمع ١ / ٦٨ ، ٦٩ ، وانظر كذلك ١ / ٩٧ -٩٩ والحديث عند البخارى فى كتاب المظالم ، باب نصر المظلوم ٣ / ٩٨ من طبعة استا نبول ١٩٨١ ، وعند مسلم فى كتاب البر الصلة ، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ، ٥ / ٤٤٦ طبعة الشعب.

لتحقيق أهدافه ، والإنسان يكتسب – عندئذ – من فكرته الدينية معني الجماعة ومعني الكفاح[١] .

ومن جهة أخري يمد الدين المجتمعات بالفضائل الخلقية التي هي قوة جوهرية في تكوين الحضارات ؛ لأن المجتمع لا يقوى علي البقاء (بمقومات الفن والعلم والعقل فحسب ، بل إن الروح ، والروح وحدها ، هي التي تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم ،فحيثما فقدت الروح سقطت الحضارة وانحطت ، لأن من يفقد القدرة علي الصعود لا يملك إلا أن يهوى بتأثير الجاذبية) [٢] .

ومن شأن الدين الحي في النفس أن يؤثر في غرائز الفرد وأن يعمل علي ضبطها وتهذيبها ، وتنظيمها في علاقة وظيفية مع مقتضيات الفكرة الدينية ، وعندئذ (يتحرر الفرد – جزئيا – من قانون الطبيعة المفطور في ذاته ، ويخضع وجوده كله للمقتضيات الروحية التي أوجدتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحالة الجديدة طبقاً لقانون الروح) [٣] وهكذا يعطي الدين القيمة والمعني والدافع والهدف ، ويحرك الطاقات البشرية[٤]ويحسن قياد الحياة الاجتماعية في مجال السياسة والاقتصاد [٥] .

ولا يقتصر دور الدين علي هذه الجوانب ، بل إن تأثيره ليمتد إلي التأثير في عقل الإنسان وفكره ، فالعقل يفقد فاعليته إذا غابت القيم الإيمانية ،

---

(١) انظر : مشكلة الثقافة : ٦٥.

(٢) وجهة العالم الإسلامي ٢٦.

(٣) ميلاد مجتمع ١ / ١٤٠ انظر ١٤١ ، ١٤٢.

(٤) انظر : تأملات ٣٦ – ٣٨.

(٥) انظر : بين الرشاد والتيه ٦٤ ، ٦٥.

ويفقد العقل معناه . فأينما يقف إشعاع الروح يخمد إشعاع العقل ؛ إذ يفقد الإنسان تعطشه إلي الفهم وإرادته للعمل ، عندما يفقد الهمة وقوة الإيمان[1].

ثم إن الدين يعطي الفرد والمجتمع لحظة التوتر ، التى تعد شرطا ضروريا للانطلاق والبناء ، فالحضارة لا يبنيها الفرد الخامد الساكن أو ما يسميه مالك : الفرد المائع ، بل يبنيها الفرد التواق . فالأول ينتمي إلي مجتمع ارتخت أوتاره ، أما الثاني فهو ينتمي إلي مجتمع ثائر فائر طموح متحرك ، والعقيدة تقوم بدورها في هذا الشأن ، ثم هي تقوم في الوقت نفسه بضبط السلوك وتصحيح الاتجاه ، عن طريق ما تبثه في المجتمع من قيم أخلاقية رشيدة [2].

ثم يمنح الدين أصحابه الاستعلاء علي الألم ، ويزودهم بالصلابة النفسية التي تعينهم علي مواجهة النكبات ، بل تجعلهم يقبلون – دون تردد – علي التضحية بالنفس من أجل المبدأ [3].

✦وإذا كان للدين – بصفة عامة – هذا التأثير في الحضارة ، فإن علاقة الإسلام – بصفة خاصة – بالحضارة الإسلامية أكثر وثاقة وارتباطا ، فلم يشهد العصر الجاهلي حضارة ذات بال ، فلما جاء الإسلام ، أعطي عناصر

---

(١) انظر : وجهة العالم الإسلامي ٢٦ وينبغى أن تتذكر أن مالكا يتحدث عن المعنى الدينى بالمعنى العام ،و ليس الحديث عن الدين الموحى به فقط ، ومع ذلك يمكن القول بأن افتقاد المعنى الروحى قد لا يُفْقِد العقلَ إشعاعه وإبداعه ، لكنه يجعله يفتقد معنى القيم ، وربما يؤدى به ذلك إلى إيذاء البشرية بما يتوصل إليه من كشوف واختراعات.

(٢) انظر بين الرشاد والتيه ٥ ، وانظر مشكلة الأفكار ٦١.

(٣) انظر : شروط النهضة ١٠١ – ١٠٣.

الحضارة ، وهي الإنسان والتراب والوقت ، الدفعة لإيجاد هذه الحضارة [1] .

ويعيد مالك إلي الأذهان ما هو معلوم من أحوال العرب قبل الإسلام ، فلقد كان العرب في الجاهلية يعيشون حالة البداوة والأمية في صحراء مجدبة ، يذهب وقتهم فيها هباء ، ومعني ذلك أن عناصر الحضارة كانت راكدة خامدة (حتى إذا ما تجلت الروح بغار حراء – كما تجلت من قبل بالوادي المقدس ، أو بمياه الأردن – نشأت من بين هذه العناصر الثلاثة المكدّسة حضارة جديدة . فكأنما ولدتها كلمة : اقرأ ، التي أدهشت النبي الأمي ، وأثارت معه ، وعليه العالم . فمن تلك اللحظة وثبت القبائل العربية علي مسرح التاريخ ، حيث ظلت قرونا طوالا ، تحمل للعالم حضارة جديدة ، وتقوده إلي التمدن والرقي) [2] .

ثم إن روح الإسلام هي التي خلقت من عناصر متفرقة من المهاجرين والأنصار أول مجتمع إسلامي ، وقد قام هذا المجتمع علي المؤاخاة لا علي مجرد الأخوة ، حتى إنهم تقاسموا أموالهم ومتاعهم ، ويكشف هذا عن أن قوة التماسك الضرورية للمجتمع الإسلامي كانت موجودة بكل وضوح في الإسلام[3].

وقد كان للإسلام الفضل في أنه نقل هذا المجتمع- بكل عناصره – من حالة الخمود والفتور التي كان عليها – بسبب غياب عقيدة صحيحة محركة – إلي حالة الحركة والحياة ، بسبب العقيدة التي حركت وجدانه وعقله ، وأحدثت لحظة التوتر التي ظهرت آثارها ومعالمها في كل جوانب حياته ، أي في الضمير والاقتصاد والجهد والعمل والجهاد وغيرها .

---

(١) انظر شروط النهضة : ٥٢ – ٥٤.

(٢) السابق : ٧٦ ، ومشكلة الأفكار : ٣٩، ٤٠.

(٣) انظر مشكلة الثقافة : ٧٨.

وقد أمده الإسلام بالمبررات الدافعة لليد والعقل والقلب ، واستطاع أن ينشئ حضارة في نصف قرن [1]ولم تتأسس هذه الحضارة علي أيدي الفلاسفة الكبار أو السياسيين أو العلماء الفطاحل ، بل إن الذين حملوها كانوا أناسا بسطاء ، لكنهم تحولوا – عندما مَسَّتْهمُ شرارة الروح – إلي دعاة وهداة ، تتمثل فيهم الحضارة الجديدة ، التي ارتفعت إلي قمة خلقية رفيعة ، انتشرت منها حياة فكرية واسعة متجددة . وقدموا بذلك نموذجا حيا لتأثير الدين في تركيب عناصر الحضارة [2].

٣ – الطريق إلي النهضة :-

وهنا يثور التساؤل لدى الباحثين عن نهضة العالم الإسلامي عن الطريق الذي ينبغي سلوكه لتحقيق هذه النهضة ، وهو السؤال الذي مازال مطروحا منذ اتصال العالم الإسلامي بأوروبا في أعقاب الحملة الفرنسية علي مصر في نهاية القرن الثامن عشر ، وبداية القرن التاسع عشر (١٧٩٨ – ١٨٠١) وقد اختلفت الإجابات علي حسب ثقافة الدارسين وانتماءاتهم الفكرية ، ووصلت في اختلافها إلي حد التناقض في بعض الأحيان ، ومال بعض المفكرين إلي محاولة التوفيق بين التجربة الإسلامية العريقة والحضارة الأوروبية ، التي تمسك بمقاليد القوة المادية في العالم الحديث ، والتي تبدو كما لو كانت في القرن العشرين (قانونا تاريخيا لعصرنا) [3]كما يقول مالك بن نبي .

ويجيب مالك علي هذا التساؤل بحسم وقوة ، معلنا ولاءه وانتماءه إلي الإسلام ، بوصفه طريق النهضة ، واستعادة روح الحضارة التي أقامها المسلمون من قبل ، والبناء عليها ، والإضافة إليها . وفي ذلك يقول : إذا

---

(١) انظر : تأملات ٣٦ – ٣٨.

(٢) انظر : شروط النهضة : ٧٦ ، ٧٧.

(٣) شروط النهضة : ٦١.

تساءلنا : هل يمكن الاستناد إلي الدين في بناء حضارتنا فإننا نقول : (إن التردد في الإجابة علي هذا السؤال بالإيجاب لا يدل إلا علي جهل بالإسلام ، وبصفة عامة بتأثير الدين في الكون) وهو يعلل اختياره هذا بأن (قوة التركيب لعناصر الحضارة خالدة في جوهر الدين ، وليست ميزة خاصة بوقت ظهوره في التاريخ) [١].

ويضيف مالك إلي ذلك تعليلا آخر ، يشبه أن يكون قانونا من قوانين الحضارة ، أو مبدأ من مبادئها ، وهو يعبر عن ذلك بقوله (إن نهضة مجتمع ما تتم في نفس الظروف العامة التي تم فيها ميلاده . كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء لنفس القانون) ويعود مالك بهذا القانون إلي حديث الرسول صلي الله عليه وسلم ، الذي تضمن بيان هذا القانون ولكن بِلُغَةٍ أخرى حين قال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[٢].

غير أن الأمر لا يكفى فيه مجرد الكلمات ، بل لابد من الإدراك الواقعي للمشكلات التى كانت حائلا دون هذا الخيار .

ولقد كانت هناك ، وما تزال ، توجد مشكلات لابد من مواجهتها . ومن هذه المشكلات أن هناك تباعدا بين القيم الروحية ، والواقع السياسى . وقد وقع ذلك منذ عهد مبكر فى حياة المسلمين[٣]ومن شأن ذلك أن يخمد الشعلة الروحية التى توقد جذوة الحضارة ، وتعمل على تركيب عناصرها .

ثم إن الحياة الاجتماعية لدى المسلمين قد تباعدت هى الأخرى ، عما كانت عليه فى فترات ازدهار الحضارة الإسلامية ، ويعبر عن ذلك بعض المسلمين بقولهم : إننا لم نعد مسلمين إلا بشهادة الميلاد ، ويظهر هذا التباعد

---

(١) السابق : ٨٧.

(٢) انظر : ميلاد مجتمع ١/ ٩٣ ، ١٠١ وقد بحثت عن هذا النص كثيرا ، فلم أجده فيما تحت يدى من كتب الحديث.

(٣)انظر شروط النهضة : ٧٧ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١٠٣.

واضحا فيما نراه من اختلاف بين حياة المسلمين في داخل المسجد عن حياتهم في خارجه ، فالمسلم في داخل المسجد يرتفع إلى حالة عليا من سمو الروح ، ورهافة الشعور،وصفاء القلب . وبفضل الحقائق الدينية التي يستمع إليها " وكثيرا ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائبا في دموعه ، بل لقد نرى الإمام نفسه ، وقد خنقته شهقاته وانفعالاته ، ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته ، بقيت الحقيقة – التي زلزلت كيانه – في المسجد ، ولم تتبعه إلى الشارع ويستخلص مالك من ذلك " أن هناك انفصالا بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي ، هناك افتراق بين المبدأ والحياة" [1].

ومما زاد الأمر حدة ، أو زاد الطين بلة كما يقال : أن المجتمع الإسلامي أخذ يتجه إلى الاعتماد المتزايد على الحضارة الأوربية ومنتجاتها ، اعتقادا منه أن ذلك يشفي العالم الإسلامي من أمراضه ، وينقذه من تخلفه . ويذكر مالك أن العالم الإسلامي كان أشبه بمريض ، شعر بألم ، لكنه لم يعرف حقيقة مرضه ،فاشتد في الجري نحو الصيدلي ، أيّ صيدلي ، يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام " هذا شأن العالم الإسلامي ، إنه دخل إلى صيدلية الحضارة الغربية طالبا للشفاء " [2] .

لكن المشكلات – مهما كانت جسامتها – لا تستعصي على الحل .

ويمكن تصور الحلول واستخلاصها بعد الفهم الدقيق للواقع ، والتأمل الواعي للقرآن لكريم والسنة النبوية ، والنظر في أحوال الأمم ، والاعتبار

---

(١) ميلاد مجتمع ١٣٣-١٣٧ والنص من صفحتي ١٣٤ ، ١٣٥وقد كتب مالك هذا منذ زمن بعيد ، وما يزال الأمر مستمرا على هذا النحو ، بل إنه صار أكثر من ذي قبل.

(٢)شروط النهضة ٥٩ ، وهو يقول : ففي الحجرة التي أكتب فيها الآن ، كل شيء غربي ، فيما عدا القلة التي أراها أمامي " السابق ٦١، ٦٢ ، وربما لو عاش مالك إلى عصرنا هذا لرأى أن القلة القديمة قد أوشكت على الانقراض ، وحلت محلها قلل وأدوات أخرى مصنوعة من مواد مستوردة من خارج المجتمع الإسلامي

بسنن الله التى تتجلى فى تاريخ الحضارات عامة ، والحضارة الإسلامية خاصة .

ويذكر مالك أننا عندما نتأمل الحضارة الإسلامية فلا بد أن نلاحظ فيها عاملين : العامل الأول هو الفكرة الإسلامية ، والعامل الثانى هو الإنسان المسلم الذى هو السند المحسوس لهذه الفكرة . ويتوقف المستوى الذى تبلغه هذه الحضارة ، على مستوى التفاعل بين العاملين أو بعبارة أخرى : تأثير العقيدة والفكرة الإسلامية فى نفس المسلم ، على مستوى الفرد ومستوى الجماعة .

ومن حسن الحظ أن الفكرة الإسلامية يمكن استخلاصها من مصادرها المحفوظة ، التى ينبغى أن تكون لها الصدارة والأولوية على " صور " الفهم التى ظهرت لدى المسلمين . وفى ذلك يقول : " فكل محاولة لإعادة بناء حضارة الإسلام يجب أن تقوم أولا ، وقبل كل شيء ، على أساس سيادة الفقه الخالص على الواقع السائد ، الذى نشأ عن صفين . ولاشك أن هذا يقتضى رجوعا إلى الإسلام الخالص ، أعنى تنقية النصوص القرآنية من غواشيها الكلامية والفقهية والفلسفية "[1] .

غير أن النصوص لن تُحْدِثَ آثارها المرجوة فى النفوس إلا إذا اتصلت بهذه النفوس اتصالا يحقق لها الفاعلية ، ولذلك كان من أوائل ما دعا إليه " هو أنه يجب تنظيم تعليم القرآن ، بحيث يوحى من جديد إلى الضمير المسلم الحقيقة القرآنية ، كما لو كانت جديدة ، نزلت من فورها من السماء على هذا

---

(١) وجهة العالم الإسلامى : ٥٦ ولعل ما قصد إليه مالك من مثل هذا القول إعلان رفضه لتلك الاتجاهات التى ظهرت فى هذه العلوم إلى تقديم العقل على النقل ، أو الرأى على النص ، وأدت إلى تأخير النصوص الشرعية عما يجب أن يكون لها من سبق وأولوية ، وهو هنا يطالب بأن يكون للنصوص موقع الصدارة ؛ لأن هذا هو الموقع اللائق بها.

الضمير" [1]وليس المقصود هنا مجرد التلاوة ، بل أن تكون هذه التلاوة – التى تتم بعقل يقظ وشعور مرهف – طريقا إلى التأثير فى الفعل والسلوك والقيم وسائر جوانب الحياة الاجتماعية .

وتؤدى مثل هذه التلاوة إلى دفع النفس إلى الإيمان من جديد ، وإعدادها لأداء رسالتها الخاصة ، مع ما يتطلبه ذلك من آلام جسام " والدين وحده هو الذى يمنح الإنسان هذه القوة ، فقد أمدَّ بها أولئك الحفاة العراة من بدو الصحراء الذين اتبعوا هدى محمد صلى الله عليه وسلم " [2] .

والإسلام المقصود هنا ليس هو الإسلام الخامل الخامد ، الذى لا أثر له فى فكر أو شعور بل إنه " الإسلام المتحرك فى عقولنا وسلوكنا ، والمنبعث فى صورة إسلام اجتماعى"[3].

أما إذا تحول الإسلام فى النفوس إلى إيمان خامد ، أو بتعبير مالك إلى إيمان جَذْبِى دون إشعاع فإن رسالته التاريخية فى إحداث النهضة واستمرارها واستعادتها تكون قد انتهت . وتأثيره الفعال يكون قد زال ، أى أنه لكى يؤدى مهمته التاريخية فلا بد أن يبقى مهيمنا على روح الإنسان وعقله ، وقادرا على إلهامه وتحريكه ، وليس العيب هنا فى الإسلام ، ولكنه فى المسلمين . وفى هذا يقول مالك : إن الإسلام ليس فى حاجة إلى مديح ، دون عمل به ، لأن هذا المديح نوع من التعويض بالكلام عن الواقع ، والإسلام هو الفكرة والمنهج ، أما الإنسان فهو العامل الذى يقتنع بالفكرة ويطبق المنهج ، ويستخدمها فى تحقيق تقدمه " ولاشك فى أننا حين ننقد

---

(١) ميلاد مجتمع ١ /١٤٧ وتذكرنا هذه العبارة بعبارة مماثلة لمحمد إقبال ، كانت من جملة وصايا أبيه إليه . انظر : روائع إقبال للسيد / أبى الحسن الندوى ، دار الفكر ، دمشق ١٩٦٠ ص ٣١.

(٢) شروط النهضة : ٨٨.

(٣) السابق : ١٣٦ ، ١٣٧ ، مشكلة الثقافة ٧٨.

مظاهر ضعف هذا العامل فإن ذلك خير وأفعل من أن نستطرد فـــى تقـــريظ الآلة . ومما لا جدال فيه أن الإسلام قد احتفظ بمضائه الـــذى صـــيغت بـــه الحضارة الإسلامية ، كَدُرَّة فريدة فى التاريخ ، ولكن المسلم هو الـــذى فقـــد استخدامه الاجتماعي "[1] .

وهكذا يختار مالك الإسلام طريقا لاستعادة النهضة ، وكان اختياره هـــذا يتأكد بالتجربة الواقعية للكفاح البطولى للشعب الجزائـــرى ضـــد الاســـتعمار الفرنسى . فلقد كان الإسلام هو الحصن الذى فشلت تحـــت أســـواره جميـــع المحاولات التى استهدفت سلب الشعب الجزائرى شخصيته على مدى قـــرن من الزمان ، كما كان الحافز الايديولوجى الرئيسى الذى دعم جهده البطـــولى خلال الثورة " ولكى نلخص هذه الكلمات لابد لنا أن نقول : إن علينا العـــودة إلى الأصول والمنابع التى منها نبع تاريخنا "[2] .

✦ ولا شك أن هذا الخيار الذى ارتضاه مالك بـــن نبـــى يختلـــف عـــن خيارات أخرى قدمها الباحثون عن منهج للنهضة ، والخروج مـــن المـــأزق الحضارى الذى لا يزال المسلمون يعيشون فى ظله . وقد أشار – صراحة – إلى بعض هؤلاء ، وهو يتحدث عن مشروعه للنهضة ، مثلمـــا أشـــار إلـــى التجربة الكمالية فى تركيا ، وأفكار الشيخ على عبد الرازق فى مصر ، وقـــد ذكر فى كتبه الكثيرة التى ألفها حـــول الحضـــارة ومشـــكلاتها ، والنهضـــة وشروطها كثيرا من المبادىء التى لابد من مراعاتها ، كتوثيق العلاقة بـــين الفكر والواقع ، وإحياء العقيدة فى القلب ، وضرورة التخطيط ، والعمل طبقا لمنهج شامل دقيق ، واحترام قيمة الزمن ، والتأكيد علـــى عنصـــر الفاعليـــة والإيجابية ، والحرص على تأكيد الأصالة والاعتماد على الذات ، إلى غيـــر ذلك من الأفكار الإيجابية النافعة .

---

(1) فكرة الأفرو آسيوية ، ٢٦٦ ، ٢٦٧.

(2) بين الرشاد والتيه : ٧٤.

ويمكن القول أخيرا – إن الأفكار تظل حبيسة الكتب ، بل حبيسة بعض العقول – أحيانا – ما لم تجد طريقها إلى التنفيذ على أيدى من يعتنقونها لتتحول إلى برنامج عمل أو منهج حياة . فإذا لم تتيسر لها هذه الفرصة بقيت على حالها فكرا أو كلاما . وليس هذا ذنب الفيلسوف أو المفكر الذى بذل جهده ، وبرىء من التقصير ، بل هو ذنب المجتمعات التى لا تُصغى إلى نداء مفكريها ، مرتضية أن تواصل العيش فى رحاب أمراضها الاجتماعية دون أن تتقدم خطوة إلى الإمام ، مُؤْثِرة هذا السكون الذى هو سكون العدم أو الموت على تحمل آلام المخاض والميلاد.

وتظل هذه المجتمعات تدور فى حلقة مفرغة من الأفكار التى لا تجد سبيلها إلى التحقيق ، ويظل المجتمع على حاله ، يجتر هذه الأفكار من حين إلى حين ، وينطبق هذا على أفكار مالك ، وأفكار غيره من المفكرين ، الذين شغلوا أنفسهم بقضية النهضة منذ فترة جاوزت قرنين من الزمان ، وسيضطر كل متحدث عن النهضة – بعد هذه الأجيال السابقة – إلى التأكيد على المفاهيم الأساسية التى انشغل بها جيل الرواد ، من حيث إصلاح النظم التربوية ، والاجتماعية بمفهومها الشامل ، وتحويل الأفكار إلى واقع اجتماعى ، والتخلص من الأمراض الاجتماعية وفى مقدمتها : ما أسماه مالك : القابلية للاستعمار ، ومن تصور الحضارة على أنها حضارة أشياء تقوم على التكديس والاستيراد ، لا على أنها حضارة أفكار تقتضى الاعتماد على الذات ،وضرورة العمل على تقريب المسافة ما بين مواطن اتخاذ القرار فى المجتمع واجتهادات المفكرين ، حتى لا تكون هذه الاجتهادات أشبه بصرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد .

وكثيراً ما كرر مالك أن التغيير يبدأ من النفس ولذلك كان يقول غير نفسك تغير التاريخ [1].

---

(١) انظر شروط النهضة :٤٤ .

ثم كان يردد كثيرا الآية الكريمة : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَـا بِقَـوْمٍ حَتَّـى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١٣)

وهى الآية التى أصبحت شعار الإصلاح فـى الجزائـر علـى يـد الشـيخ عبد الحميد بن باديس ورفقائه ، وإنها لصالحة لبداية الإصلاح فى كل حـين وفى كل مكان [١] .

۞ ۞ ۞

(١) يثير اختيار مالك بن نبى الإسلام طريقا لاستعادة النهضة بعض الأسـئلة الهامـة ، ومنها علاقة هذه النهضة بالحضارات الأخرى ولاسيما الحضارة الغربية التى ذكـر أنها تمثل فى القرن العشرين قانون لعصرنا ، وتحتاج الإجابة على هذا السؤال إلـى فرصة أوسع ، لا يتسع لها المقام .

الفهرس